منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

سميحة خريس

بابَنوس

رواية

بابَنوس



رواية

سميحة خريس





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1060-8

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com



e-mail: info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

إلى روح الطيب صالح

شُكر

- الشكر لوزارة الثقافة الأردنية لمنح الرواية حيزاً في مشروع التفرغ مما دعم أبحاثي وسفري.

- امتنان للكنز المعرفي المُعاش الذي بُعث في خاطري بعد ما يقارب ثلاثين عاماً من دراستي علم "الأنثربولوجيا" على يد الدكتور "صاموئيل باسليوس" في جامعة القاهرة.

- امتنان لمجموعة الكتب والمراجع التي وَضَعت السودانَ على طاولتي.

- تقدير حقيقي للقفزة الإلكترونية ممثلة بـ "الإنترنت" الذي جعل العالم حجرة مكشوفة، وجاء بالعالم إلى ورقتي.

- وأخيراً؛ الشكر الجزيل لكل من، "سارة خازن الخزين"، و"ثريا ميرزا"، و"ست النفر"، والأستاذ "سيد أحمد" والشاعرة "روضة الحاج" الذين ساعدوني في تقصي هذا العالم الخفيّ وجعلوا هذا النص ممكناً، والشكر موصول للزميل "جعفر العقيلي" على دوره في المراجعة اللغوية للرواية.

الرسالة

لكل مخلوق أم وأب، وخالق. لا شيء يُبعث من فراغ، حتى الفكرة في رأسي الأبيض المكلل بالشيب، تولد من أم تلدها. لسنا آلهة منقطعة عن جذورها، ولكن الرياح تذرونا بعيداً عنها غالباً، وتجذرنا في أماكن غريبة، تصير لنا أباً وأماً ووطناً.

مثلما شجرة الأبنوسة قوية مخاتلة، أبوها اللقاح؛ يسري دم أمها الشمس الحارة الساطعة في عروقها الخشبية. تنمو على ما نريق من ماء محبتنا فوق التراب، تزهو بأنفاسنا، وتزهر باللمس، تعطي والفأس تضرب جذعها، فإذا ماتت؛ بيعت منحوتة عبقرية للخواجات.

حينها أيضاً لا بد لها من أب وأم جديدين؛ نحات وإزميل.

نظام كوني شامل، إلا أني كثيراً ما أشعر -من دون منطق- أني خارجه.

يسمّونني "الحكّامة"، ويناديني الصغار الشُّفَّع بما ينادون به جداتهم: "حبوبة". فبياض ذوائبي وثقل السنوات التي سبقتني وتبعتني يخولانني لأكون جدة الجميع، وإن فشل سكان الحِلة في تحديد عمري بالأرقام. أيضاً؛ لا تستطيع ذاكرتي الدقيقة، المفصلة، ولا حكمتي التي وهبني إياها القدير وربيتها على الخبرات ومرور الزمن أن تحدد عمري، كما لو أني ولدت هكذا منذ البدء؛ بشرية كهلة ضربت التجاعيد وجهها، شعر أبيض خشن أكرت مكوم فوق الرأس كما العمامة، وجسد نحيل بعصب

شديد، لم تذهب أعباء الحياة ولا الوقت الذي يسرق العمر بقوته وبأسه.

لا التباس في كوني امرأة، ولست في عداد الإناث، فأنا حكّامة(*)؛ والحكّامة عادة مخلوق مغاير، فوق البشري، أعلى من المرأة قليلاً، تصطف قريباً من موقع الذكورة ولكنها تتجاوزه، وهي بعد كل تلك المواصفات، ليست ملاكاً، ولا خنثى، تجمع في كفيها فراشات ملونات، وتفيض على محيطها أمومة لا حدود لها، تحل الإشكالات العالقة بحسم الرجل وحكمة الأنثى، من دون سلطة غاشمة أو ثراء خادع فإن كلمتي غير قابلة للمراجعة أو المحاججة.

عرف أبي ما سيكون من شأني منذ مولدي، قال إني جئت الحياة بعينين مفتوحتين ونظرة جسورة، فأسماني: "الرسالة". هيأني لدوري، أو فَرض علَيّ الدور؛ سيان، فها أنا ذا حكّامة. اسمي رائج في جبل مَرَّة، قلب دارفور الأخضر، حيث تسمّى البنات في بلدة الفاشر وسواها من نواحي دارفور الشاسعة باسم "الرسالة"، وقد لا يكنّ أهلاً له. لكن الاسم لبسني وبت جديرة به، ثم نسيه الناس واستبدلوا صفتي ومهامي الجسيمة به.

وضعتني أمي في زمن صعب تخلله مَحْلٌ شديد، يصيب المحل الفقراء بداية، وقد كنا كذلك، تثقل وطأة الفقر على أجسادنا الهزيلة وتتجاوز أرواحنا القادرة على فرح مجاني لا مبرر له. أبي فقيه مجموعتنا الصغيرة الفقيرة عند سفح الجبل، "فكي"(*) على قدر ما أعطاه الله من علم القرآن، واحد من بين قلة من الرجال الذين يمتهنون عملاً، فهو معلم خلوة القرآن الذي لا يجد تلاميذُه ما يدفعونه له في زمن المحل. وككل

(*) تعبير عن الحكمة صفةً وإصدار الأحكام مهاماً.

(*) فقيه

المختلطين الذين تشابكت جذورهم، لا يمكن نسبنا إلى قبيلة بعينها عبر تتبع أرومة العائلة، لكننا نخترع لنا نسباً كيفما أردنا، حدث هذا في مجاعات سبقت مولدي وأخرى لحقت بي، ولكن المرة التي وعيت فيها على مجاعة الرحيل مثلت انقلاباً في حياتنا، وحياتي تحديداً.

استفحل المحل عند السفح الفقير للجبل وفي الضواحي المتاخمة لبلدة الفاشر، حارت النفوس وخوت البطون، عصفت الطبيعة فرأينا جالوص بيوت الطين يتشقق عنا، والسقوف تنشلع تاركة إيانا في العراء، أرجف الخوف قلوبنا الحزينة، حملنا زاداً قليلاً ومصحفاً، ومسابحَ للذكر نكر حباتها بين أصابعنا متضرعين إلى الله، وسْحنا في البراري.

انتشرنا في الأرض تحت امتداد السماء الزرقاء وضربات سياط الشمس الموجعة، نبحث عن موقع نعيش فيه أو نعتاش بخيره، وما كنا نملك إلا ماشية قليلة، معرضة للوباء والموت بلا ماء ولا كلأ، بالكاد تسد عنزاتنا رمق صغارنا بلبنها الشحيح، لم يكن لنا نصيب في السهول التي تُزرع بالدُّخن والذرة والسمسم، ولا تلك التي تغص بالتمباك، فما بالك بمزارع البطيخ الموسمية التي لا تحتمل مزيداً من الأنفار في غرب الفاشر.

طرد جبلُ مَرَّة الرافل بالخير فقراءَهُ، هججنا كي لا تتضرر مكاسب الأغنياء أو تقل حصصهم. لا يُطرد الفقير جهراً، لكن الحياة تضيق الخناق حوله حتى يختنق، وقد كان والدي وعائلته الصغيرة المكونة مني وأمي وأخ رضيع، ضمن مجموعة هجرت الجبل على خيره الكثير الذي لم يطلهم؛ هجت تبحث عن موقع في تلك البوادي الواسعة، مجموعة لم تحمل من انتسابها سوى بعض حكايات "الهدايّ"(*) الشاعر وقصص العجائز الحكّامات وهن يخترعن لنا أصلاً ونسباً.

(*) الحكواتي

نفخر أننا من نسل "المساليت" العظام، القبيلة الإفريقية العربية التي تسد جموعها عين الشمس، أولئك الذين روضوا الجوع والقيظ والهبوب الذي يركب الرياح الموسمية عاصفاً مغبراً، وامتزجوا عناصرَ بشرية شتى؛ بألوان عديدة، وأرواح صلبة الشكيمة، ولكننا وبقدرية لا يد لنا فيها؛ فقراء، لا نملك أرضاً ولا أنعاماً تعيننا، ولا لوناً صريحاً يساعدنا على الانتساب، منا خضر تفصح وجوههم عن العروبة، ومنا زرق تخلطوا بإفريقية واضحة، ومنا من يفج سواد جلده كما قلب الأبنوسة.

مرت شهور ونحن نسعى في سكة طويلة، أربعون إنساناً نسير على أقدامنا الواهنة "كداري"(*)؛ مخففين عن أنعامنا وطأة الطريق والجوع والتعب، يرافقنا جمل وحماران وعنزتان، يسيح عرقنا على امتداد ظهورنا ثم يجف في جفاف الهواء، فنحكه بأعواد خشبية اقتلعناها من أشجار ميتة صادفتنا، توحي أنعامنا القليلة أننا أثرياء وسط هذا اليباب الموحش الفقير، بينما يفضح عرقنا على الأجساد العارية فقرنا.

ابتعدنا عن جبل مَرَّة وبلدة الفاشر كثيراً، مررنا بصحارى تسكنها الأفاعي، سلكنا دروباً جافة خوفاً من الحيوانات المفترسة، وتوقفنا في جنبات الغابات، فعملت النسوة والفتيان في موسم جني الصمغ أُجَراء لدى نفر من البيض والجلابة الشماليين منتجي الصمغ، الدندارية، الذين جاءوا من المدن إداريين وتجاراً ينقلون الخشب والصمغ ويديرون مجموع العاملين، يشترطون على أولادنا ارتداء لباس من قماش الدمور الخشن يستر عوراتهم أثناء خدمتهم، ولا يكتفون بحبل الرهط(*) الذي نزنر به

(*) سيراً على الأقدام

(*) حبل يربط وسط المرأة تتدلى منه زينة وأحجار، الرهط هي الجماعة، والمقصود التزام المرأة بقانون الجماعة

خصور النساء، يظنون أنفسهم في منزلة أعلى من منزلتنا، ونحن عند الله سواسية، نغتابهم في جلسات الونسة ساخرين:

- ود أبو جلبا، حبل القيطان،(*) كان لقيته في دكان يقول ليك: إذا كان.. وكان لقيته في غابة يقول ليك: يابه.. وكان لقيته وحيدا، ينطيك وليدا.(*)

لأني ابنة مقرئ القرآن، فقد كنت وأمي نرتدي صداراً قماشياً يستر أثداءنا، كما يلف الرهط خصرينا وينهدل من لحاء الشجر والأقمشة على ركبنا، بينما اكتفت النسوة بحبل رقيق علقت فيه بعض صفقات الشجر والحجارة الملونة، أكسبنا رداؤنا هيبة خاصة أكدت للجمع اختلافنا، لكن هذا لم يُعْفِنِا من العمل مع مجموعة النسوة، عملنا في ظروف صعبة فمنحونا لقاء تعبنا مالاً زهيداً تصبرنا به في مواسم الهجيج والجفاف، تقرحت أكعاب أقدامنا، وتشققت أكفنا؛ لكننا ابتعنا دقيقاً وذرة بما وفرته أيدينا من نقد. واصلنا الترحال آملين، وعندما حاذينا مركز الولاية جنوباً، قرب مدينة نيالا، توقفنا قليلاً نناقش ما إذا كان علينا دخول المدينة لنتعيش بمهن رخيصة ونتفرق بين أحيائها ودروبها، أو الاستمرار في السعي وصولاً إلى مصير مختلف! خفنا من ضياع واحدنا عن الآخر في فوضى المدينة الكبيرة.

كنت طفلة تخاتل الصبا حينها، وقلت بحكمة أعجبت السامعين:

- *نلقى حتة تلمنا كلنا، لو تفرقنا نهون.*

استجابوا لي رغم أني مجرد طفلة شافعة ينادونني باسمي: "الرسالة". بقينا معاً يسكننا حلم في إيجاد بقعة نصير أسيادها وتصير لنا وطناً،

(*) أبو جلباية مخيطة بالقيطان

(*) تعبير عن المدني الذي يساومك كتاجر، ويستعين بك وقت الحاجة، ويتخلى عن ولده لحماية نفسه.

وصلنا إلى واد رملي منقطع مخبأ في جيب عند انحدار الأرض، بدا لنا المكان أليفاً برمله الناعم النظيف، أصيبت أغنامنا وأنعامنا وصغارنا بلوثة بهجة، فتعفروا بالرمل متدحرجين، اختلط ثغاء وضحك ونهيق، لهذا؛ ظننا المكان مراحاً لحرية وادعة بلا شروط.

عثرنا على تجمع شجري في شمال المراح الرملي؛ سدرتين، وثلاثة لالوبات، وتبلدية واحدة ضخمة فتية، لم يمسس جذعها المكور العظيم فأس، مغلقة غير مجوفة، إضافة إلى عدد من الشجيرات الشوكية المتناثرة التي أقبلت عليها العنزة جائعة، وحَشّها الحماران والبعير والأطفال.

أوحى لنا التجمع النباتي بقرب الماء في تلك الواحة الخفيضة، رمى كبارنا المتعبون هياكلهم المضطربة الراجفة على الرمال الدافئة الناعمة تحت ظل الشجر، وأطلقوا ألسنتهم في التمني، قالوا:

- *نحفر؛ تطلع مويه.*

اشتكوا أنهم ما عادوا يملكون عصباً قوياً، ولا كراعين قادرة على مزيد من المشي، وأن الرضّع التصقوا بصدور أمهاتهم، وانتفخت بطونهم بهواء فارغ، وكلّت أيديهم، وتكدر بياض أعينهم اصفراراً.

استرخينا، فغفت النسوة والأطفال في ظلال الشجر. كعادتي؛ جالست الرجال في حلقة الاندداية وهم يشربون في قرعة مشتركة سائل المريسة، ويتلذذون بالبصل الملتوت بالشطة، ويلعبون لعبة الخَرّبَقَة التي تعلموها من التجار الذين سافروا في الماضي إلى سوق وادي سوف في الجزائر، وعادوا بتلك اللعبة يجزون بها الوقت الضائع أساساً.

خطّوا بأصابعهم سبعة أسطر أفقية فوق الرمل، وسبعة تقطعها لتنشأ تسعٌ وأربعون حفرة بين الخطوط، صفّوا بعر الإبل ومثلها من الحجارة في الحفيرات، وسمّوا فيالقَ البعر والحجارة بالـ "الكلاب"، ثم أطلقوا الكلاب تفتك ببعضها بعضاً وفق كر وفر وحصار متوهّم وهم

يتضاحكون، الناظر إليهم في لحظات الأنس والتجلي لا يقدّر أنهم هاربون من ماضٍ أليم، ينتظرهم غد موحش. أبي الفكيه الجاد والوحيد الذي يرتدي ثوب العّراقي قصيراً بأردان، داعبهم ساخراً:

- *مادين كراعينكم، مرتاحين، تقول في بيت!*

متكئة على فخذ أبي، قلتُ:

- *ليه ما يبقى هنا بيت؟*

بين اقتراح ومزاح، وميل إلى الاستسهال بعد ركوب صعاب الماضي، اخترنا تلك الفسحة الرملية المستلقية بقعر جبل، والمغوية بفيء وظلال السدر واللالوب والتبلدي، اخترنا البقعة التي لا اسم لها، بيتاً ووطناً، قدّرنا أن انقطاعها ميزة تبعد عنا الطامعين، فراغ يعفينا من اتباع الحكام في المدن، والعسكر في الأرياف، والعُمد الذين يشاركون كلَّ مسِتقر نتاجه ولقمته الضئيلة. وبمزاج عال، وفرح وبهجة أسميناها "الخَرْبَقَة"؛ نسبة إلى اسم اللعبة التي كانت أول نشاطنا على أرض الوطن الجديد، من دون أن نقيس مدى قربها أو بعدها عن حواضر القرى والمدن.

نصبنا العصي وفروع الأشجار بهمة، ورمينا فوقها سعفاً وقطعاً من قماش الدمور لتصير بيوتاً مؤقتة قبل أن نجمع القش والخشب، ونبني القطاطي(*)، بعدها حددنا الملكيات والحصص بالتساوي وبلا مطامع.

سمعت صوت المكان الهادئ الفارغ، رجعاً مرتداً يهتز على مهل مثْل صدى حانٍ، همس لي الهواء أن هنا لي وطن. اتسعت الخَرْبَقَة وصارت حياً حقيقياً لقبيلة شكلناها بتكاثرنا عبر سنوات لا أستطيع عدها، فنساؤنا ولودات، ثم بمجيء آخرين، عمرنا وطناً، وطن على قدر جماعتنا الصغيرة، استبدلنا بقعة صغيرة منسية بالأرض الرحيبة، في ما بعد اكتشفنا كم هي قريبة إلى حاضرة نيالا، مُغْفَلة قربها. رأى معظمنا خطوط السكة

(*) أكواخ من القش وأغصان الشجر

الحديد التي تنتهي عند نيالا، وشاهدوا الكهرباء في المدينة، وارتاد بعض صبيتنا مدارسها أو مدارس مدينة الضعين. إلى شمالنا غابة يسكنها مزارعون من الضغين يتعاملون معنا بحذر خشية أن نشاركهم ظلال أشجارهم، وإلى الغرب آبار ماء، وأحياء متفرقة تشبه حينا وإن كانت أكثر رفاهية، تنتج تمر النخيل وترعى كثيراً من الغنم، وتهش أطفالنا إذا قادتهم حماقتهم إلى مساكنها.

أحببنا مكاننا الفقير، واكتفينا به فتوقفنا عن الترحال.

حل معظمنا وارتحل في سفر قصير، لكنهم دائماً عادوا إلى البقعة التي غفلت عنها عيون الحكام الإداريين في الفاشر ونيالا، كما هونتها عيون الرقابة؛ ولم يعرفها المسؤولون الحكوميون في عاصمتنا "الخرطوم"، تلك الواقعة في قلب الوطن الكبير البعيد.

تناست شرعةُ التطوير والتغيير خَرْبَقَتنا، فنجونا من محاصصة الضرائب على لقمة العيش الشحيحة، لم تُسِل بقعتُنا لعابَ أصحاب الأراضي المتغيبين في المدن، ولا الخواجات الحمر أصحاب الرؤوس الشقر والعيون الزرق، الذين يجوبون البراري بحثاً عن البترول والصمغ، ولا تجار الجلود ومهربي العاج والأبنوس وريش النعام، ولا المهنيين الجلابة المقيمين في الحواضر حيث تُبنى البيوت من الطوب، ولا حتى حيوانات الغابات المفترسة المتسللة إلى الحواضر. لم يكن لدينا ما يغري سوانا.

آخر العالم؛ حيث لا يرغب أحد في الوصول إلى الخَرْبَقَة، ولا نرغب نحن بوصول أحد إلينا، منحني المكان أنا بالتحديد حرية كي لا أشبه سواي، كما تكاثرت شجراتنا المعطاءة من دون ضوابط، ولا خصام على ملكية، فقرنا خصم يعاندنا ويشغل أيامنا ويغنينا عن خصام بعضنا بعضاً. هكذا ظلت الخَرَبَقَة المعزولة محمية من الأطماع، بقعة لا تغري، ولا تستوقف إلا المارة التائهين الذين عادة ما يكونون بحاجة إلى

الراحة وبعض خدماتنا، يقايضوننا بالقماش الذي بتنا نصنع منه أثواباً تستر عري نسائنا ورجالنا. اقترب الرجال والنساء من تعاليم الكتاب المقدس فستروا أجسادهم، بعضهم استجاب للقانون الذي يلزمهم بذلك، أخذنا الثياب من العابرين وسقيناهم ماءنا، سترنا عرينا تدريجياً. لم يعوزنا الماء في موسم المطر، نجمعه في حفيرة كبيرة يسبح فيها الصغار، نسمّيها "النيل" تفاؤلاً وتكبيراً لمقامها، وتشبيهاً ببحر النيل الكبير الذي يشق البلاد بعيداً ولا يوافينا، نخزن ماء المطر أيضاً في خزان التبلدية الكبيرة الذي فختناه في جذعها. برعنا في جَبْل طين الأرض قبل موسم المطر وتسابقنا لإقامة بيت الله من السعف والقش وخشب الغابة، أما مئذنته فكانت من طين الحفيرة، بإقامة الجامع أيْقَنَا أننا وطن كامل، حرصنا على حماية جدارن الجامع وطين مئذنته بملاط طيني نجدده كل عام قبل مطر الخريف، ترى الصغار والكبار يتقافزون حماسة كقرود "الككو" الصغيرة مبتهجين وهم يتسلقون المئذنة فاردين الطين الذي حملوه لتقويتها، يتلمسون بركاتها ويتركون بصمات أصابعهم فوق طينها تشهد عليهم.

صنعنا جنتنا الخَرْبَقَة، نسوسها بحكمة تتجاوز اللعبة على الرمل، حيث تميت كلاب البعر والحصى بعضها بعضاً، بينما نتساند في إنقاد بعضنا بعضاً.

لا يغري ماؤنا القليل وزرعنا المتواضع قبائل البقارة في النزول إلى ديارنا مطولاً، فهؤلاء بقطعانهم الكثيرة يحتاجون مروجاً وأنهاراً، رحمنا فقرنا وضعفنا من النزاعات التي تشتعل فتائلها في السهول القريبة والهضاب الأغنى منا نسبياً.

لكن "الشفيع" الذي غادر المكان طفلاً برفقة والده ود الأمين وأمه خدم الله الذاهبين إلى الحج في مكة العظيمة الجليلة، عاد رجلاً ثرياً بعد

أعوام، وقد ترك والديه مجاورين لرسول الله، يلكن العربية بلكنة أهل الأرض المقدسة، ويدعي أنه حاصل على الثانوية العامة، ويعيب علينا انقطاعنا، ويندب عزلتنا، ويقول كلاماً يعني أننا خارج الكون، فقريتنا الصغيرة لا توجد على الخريطة! أيّ خريطة تضمن لنا الأمان الذي نعيش؟ لم يُعِر الناسُ انتقاداته آذاناً صاغية، حتى لو فعلوا؛ فإنهم يجهلون ما عليهم فعله لتغيير هذا الواقع، سخروا منه قائلين:

- *دنياك ما دايرنّها[*]، لا بتحنن قلوب الوليدات، ولا تلقى بدرها الحق، الحرة فيها مرقت من أهلها، مثل الخادم مشت، والمسكين ما في كريم له تلفّت.*

تمكن "الشفيع" المتعلم صاحب العلاقات الممتدة من الاتصال بالحكام الإداريين، وجاهد كي يسمى "عمدة الخَرْبَقَة"، ارتدى جلباباً مثل الأعيان وعمامة فاخرة ومركوباً من جلد الأفعى في قدميه، واكتفى. ماذا أضافت إليه تلك الأبهة وهذه الصفة الإدارية؟ عملاً إدارياً كسولاً في حجرة طينية فيها طاولة وكرسي ودولاب معدني مخلخل نخر الصدأ أطرافه ومفصلاته ورُصّت فيه ملفات يعلوها الغبار، يقضي نهاره كما "التنبل"، ينزلق جسده على كرسيه، فاتحاً فاه شبه نائم، في يده منشة من ريش دجاج الوادي المنقّط يهش بها الذباب والبعوض، ويحرك الهواء المنقطع أمام وجهه. لم يفلح في رسمنا على الخريطة، ولا تمكن من إلحاق المكان بإدارة مدنية، ولا سمح له الأهالي بجني الضرائب على المحاصيل، ولا وجد في نفسه همة لكتابة تقارير ذات فائدة للإداريين في العاصمة، كما لم يلغ مجلس الجويدة الأكارم الذين يحكمون بين البسطاء في الخَرْبَقَة، ولا أثر في سلطاني. ظل يطاطئ رأسه إذا تحدث معي؛ رغم أنه يغتابني معيباً علَيّ امتناعي عن التغني في قصيدي بالحرب والقتال أسوة بحكّامات البلاد

(*) لا نريدها

المتفرقة، ويدينني في شأن اختيار هذا الموقع المنعزل السقيم، الذي أسقط القوم من حسابات العصر.

لا أعيره اهتماماً في ما يفتي ويحلل، ليس أني أحبس أهلي بعيداً عن الدنيا، ولا أني أخاف مواجهة الحياة، فأنا من المساليت الذين لا يخافون، واجهوا الفقر والريح والجفاف والجوع؛ فما انكسروا ولا انصاعوا، وتحدثوا برطانتهم وبالعربية معاً وما تلجلجوا. أما "الشفيع" فهو مجرد فتى لعبت به النقود والشهادات وأثواب القماش وهواء المراوح الكهربائية في المدن، وتخنثت كلماته بين لهجتنا ولهجة الصحراء العربية وبعض كلمات إنجليزية يرددها مثل ببغاء، وعاثت الشهوات الصغيرة خراباً في رأسه؛ فأوهمته بمكانة عالية، فإذا سيق وراء وهمه؛ لم يتبعه أهالي الخَرّبَقَة.

نعم، لدينا عمدة معتمد، ولكننا خارج العالم. هل أزعجني هذا؟ ربما؛ في اللحظة التي فرحنا بها في إيجاد وطن، كان همي مثل كل رجال الخَرّبَقَة أن نبتعد ونكتفي ونأمن، في خضم الخوف الذي يطال كل حبة تراب مستعدة للدفاع عن وجودها، وجدت لنفسي وأهلي سبيلاً مغايراً، ساعدتهم على التحول إلى حجارة على الأرض لا إلى كلابٍ مسعورة تطارد بعضها بعضاً، زيّنت لهم تحمُّلَ أوضاعهم التعيسة، جمّلت المزايا التي يتيحها هذا الوضع لنا، لكني في أزمنة مختلفة، وأنا أرى أطفالنا يكبرون، أقع فريسة كآبة عابرة.

أيقظت رعايتي لـ "بابَنوس" و"آدمو" في أعماقي توقاً إلى العالم أكثر من الخوف منه، بت أخاف من حبسهما في واقع موجع قليل الإمكانيات لا أفق له. تمنيت لو أطلقت لروحي العنان فأعلّم الأولاد أن الأرض لهم وطن واحد لا الخَرّبَقَة الصغيرة، خفت شطط أفكاري ومفارقتها للواقع الذي يكبل بني البشر. يرضع الصغار حكاياتي وقصائدي وأغنياتي، يتربّون عليها؛ يشربون قليلاً مما أحفظ من كتاب الله،

أوثق صلاتهم مع الحياة التي ترتعش على أوراق الشجر، أو تهمس في الريح، أو تتجلى في شعاع الشمس، علّمتهم رفقة الكون الكبير من موقعهم الصغير فيه، دربّتهم على الإصغاء لهديله وهسيسه قبل سماع ضجيجه العالي، لكني عجزت عن وصلهم بالحياة التي صنعها البشر على شاكلتهم خارجنا؛ حياة معقَّدة محكومة بنصوص وقوانين، محدودة ضيقة على اتساعها، حياة تميل إلى الآلات من دون سواعد الناس، هل كنت أحميهم؟ أم أجز أجنحتهم بسكين مخاوفي؟ يقض مضجعي الشعور بأني والرجال الذين اتخذنا القرار بالسكن في تلك البقعة قللنا من قدرات أبنائنا على الصمود في وجه حياة معقدة؛ حياة تنمو وتتشابك في المدن والحواضر البعيدة التي تُقام فيها المدارس والمستشفيات والشفخانات(*) والجامعات، وتُبنى فيها البيوت من الطوب، وتتخلل جدرانها أسلاك الكهرباء ومواسير المياه والحنفيات، وتؤثث بالمقاعد الوثيرة المنجدة، والمراوح التي تلاعب الهواء، والثلاجات التي تحفظ الطعام، والأفران الغازية لطهوه.

وعيت موت شقيقي الرضيع إثر جوع عابر؛ أقل من المجاعة ولكنه مميت لأصحاب الأجساد الواهنة، حدث ذلك كما لو أن شيئاً لم يتغير من نظام الكون، أغمض الطفل الشافع عينيه وارتحل، دفنه أبي وذرفت أمي دمعات حزينة؛ ولم يكن هناك نواح، فقد ذهب الصغير كما سنذهب كلنا، رأيناه بعد رحيله بأعوام يعتلي فرعاً أخضر في شجرة الموتى التي نبتت من العدم، وأراه كلما تطلعت إلى وجه طفل غاف، أسترجع مشهد شفتيه تمصمصان كما لو كانتا ترضعان الهواء، أو تنقلان إليّ رسالة عن صغار يجب ألاّ يموتوا.

(*) الصيدليات

حملت اسم "الرسالة" منذ ولادتي، كما حملت تبعات الاسم، في الطفولة لففت رأسي بعمامة صغيرة، وارتديت عراقيّة بيضاء كما الأولاد، كي أتمكن من الجلوس في الخلوة حيث يعلّم أبي الصغار حفظ القرآن، وكنت أشطر الجالسين، وأقدرهم على الحفظ، ختمت حفظ القرآن في التاسعة، كما حكّمت بين أقراني، على صغر عمري، ثم بت أُحكّم بين الكبار، يقول لي أبي الفكيه:

- *أنتِ حكّامة الخَرَبَقَة القادمة بإذن الله.*

لا أعرف متى لم يعد أحد يردد في حديثه عبارة "جاك الخير، جاك ود عثمان" -يقصدون أبي- ومتى استبدلوا بعبارتهم تلك جملةَ "جاك الخير، جات الرسالة بنت الفكي" ومن ثم "جت الحكّامة"، ما عادوا يتذكرون اسمي الأصلي "الرسالة"، وباتوا ينادونني: "الحكّامة".

أتحدث عن زمان ممتد طويل يختلط علَيّ؛ أراني طفلة مرة وكهلة مرات، زمان عرفنا فيه مجاعات كثيرة، وصار الموت رفيقنا، قضى والدايّ تباعاً في مجاعة لاحقة عن مجاعة الهجرة الأولى، دفنتهما مع جمع كثير في جبانة حددناها في الامتداد الصحراوي للمكان، شلنا(*) لهما الفاتحة بخشوع ومضينا، كثيراً ما باح أبي برغبته في أن يُدفن في الفاشر على سفح جبل مرة، لكن الفاشر صارت بعيدة، وباتت الخَرْبَقَة وطناً.

حين حمل الرجال نعش العنقريب بحباله المجدولة التي توسد جسده قاصدين بقعة صحراوية قريبة، ثقل النعش وارتخت أقدامهم تحته وتعرقت صدروهم، فإذا بالنعش يستدير كما لو كان مشدوداً بمرس، فاستداروا؛ عندها أوشكت الجنازة أن تطير، أطلقوا أقدامهم تسابقه وأيديهم تتشبث به، وركضوا، وزغردت النسوة للجثمان المشتاق إلى الجنة، لكن الناس ورغم المعجزة؛ خلطوا في كلامهم، قال نفر منهم:

(*) أي رفعنا أيدينا بقراءة الفاتحة - من شال الشيء أي "حمله"

- *الفكيه ده وليّ.*

وقال الأكثرية:

- *ساب لينا بته حكّامة.*

ترسيمي حكّامة تقع بين الولية والمغنية والهداية وضاربة الدلوكة(*) أهم وأبقى عندهم من أسطورة الولي، وهم دائخون من الجوع والعطش، تمسكوا بأن كل إشارة سماوية لا بد لها من امتدادٍ على الأرض، وقد كُنت الامتداد الحي لمعجزة طيران نعش أبي.

في المجاعة التي أفنت نصفنا على الأقل، كنت في أول بلوغي، بين الطفلة والأنثى، تغاضيت عن خسارتي الشخصية بأبي وأمي، عالجت أوجاع عواطفي بعقلانية، أقنعت وجعي أن أبويّ لحقا ولدهما الميت راضيَيْن، ولله حكمة في ما أراد. وأشرت على أولاد الحلة الحيارى بالصمود وعدم المغادرة. في تلك الآونة توسل "الزين" الصوفي والد "سر الختم" الشاعر إلى الله أن يتدخل لإنقاذنا، راح يلتف حول جسده ويدور على قدميه حتى يقع أرضاً وهو ينشد:

- *حي.. حي.*

وكنت أتوسله أيضاً بالصلاة، وأسابق زمني ليظل معظمنا حياً. قلت لهم:

- *لا تخافوا ولا تفارقوا داركم، خطر الجوع أخَيَر من خطر البعيد.*

لم أكن المرأة نفسها في شبابي ولا في طفولتي، أعرف أن كل امرأة كُنْتُها انطوت في أعماقي مثل جنين يفسح الزمان والمكان لآخر ينسل منه، وإن قرأت في عيني "بابَنوس"، ابنتي من صلب غيري، أنها تستبعد كوني شابة في زمن بعيد، عرفتني عجوزاً تجهد لرفع كتفيها وقد شاب شعر رأسها وركبتها الحكمة فأثقلت خطاها. لا تستطيع الصغيرة تخيل شبابي،

(*) الطبل الصغير

عندما كنت شبيهة بغزلان البر النفورة، جميلة وعصيّة، وكان أبي قد قرأ فاتحتي لأصير زوجة "ود الأمين" الذي ابتاع لي هدية العرس؛ عيش ودرة وبصل وقروش ودخان، لكنه لم يحرك وجداني، كنت أتلفت حائرة بحثاً عن رجل، شباب مجموعتنا الصغيرة بأجسادهم الممشوقة وقاماتهم الطويلة بدوا مثل غابة لا أجد فيها شجرتي المثمرة، أحببتهم كلهم بنسب متفاوتة، لكن ود الأمين لم يدخل قلبي.

بعد وفاة أبي جاءني ود الأمين شارطاً أن أخلي عني ضرب الدلوكة والغناء في الأفراح والأمسيات، وأتناسي قول شعر الدوبيت الشعبي، وأكتفي بتعليم الصبية آيات كتاب الله. ضحكت فلم يفهم. عن نفسي أميل للمهمة الجادة في تحفيظ القرآن للصبية، لكني لو سمحت حينها للرجل أن يلوي مسار طبيعتي، لما صرت الحكّامة التي أنا عليها، لهذا رددت عليه مهره من دخان وبصل وذرة وقروش، وأعلنت أني لن أتزوج. أصيب ود الأمين بصدمة لوقت قصير، تجاوزها سريعاً فحمل هداياه للبنت الخجولة "خدم الله"، وهي التي ولدت "الشفيع"، عمدتنا العائد من الاغتراب.

خليت عني توق الأنثى إلى ذكر، وتصرفت بصبر وحكمة وزهد.

يجف نيلنا المتواضع أحياناً؛ يصير مستنقعاً يسكنه البعوض والضفادع، إذا جعنا اقتتنا بلحاء أشجار الغابة القريبة، نقشرها ونمضغها خادعين بطوننا، أو نجففها ونسحنها ونزقها في أفواه الصغار، ننتظر فرج الله الذي وُعِدْت به، ويصدّقونني لأن المطر ينهمر بعد وعدي بأيام؛ يشق الأرض الطينية الجافة ويرويها ويعبئ بحيرة النيل من جديد، ساقياً ظمأ حبوب الدُّخن التي نثروها في سفح الخَرْبَقَة. الله كريم، تتحول الأرض العقيم إلى فردوس أخضر يطلع زهراً كثيراً وعشباً منادياً أطياراً ملونات صادحات، يتواصل انهمار ماء السماء، وتتفتق رشاشات صغيرة فاتنة من

رمل الأرض، ترتفع عالياً ويطال رذاذها الراقصين حولها في حبور، الله كريم، الله جميل.

صرت الحكّامة بلا منازع في هذا الجمع، وقلت القصيد لأوافقهم على منصبي الذي حددوه، ثم استمرأت الأمر، وتلذذت بنسج الكلام وعقده وحله، ونغمات القصيد ورجعه وصداه، بت أستمتع بعذب الحروف حين تتجلى من انحناءاتها روح المعنى في جمل بديعية، الشعر وحده قادر على إيقاظ روحي الشفافة وربطها بروح العالم، شعرت كما لو أن داخلي صوتاً حريرياً يتسلق الحروف ويكشف جمالها للعيون، وأن ناظريّ صارا أقدر على رؤية ومضات الحياة وألوانها، كما تدرب سمعي على التقاط أنفاس الدنيا وموسيقاها المذهلة، يمكنني سماع صوصوة قمري لم يفتح منقاره ولا أصدر صوتاً بعد، أسمع زقزقته المحبوسة في الصوت، في الصدر، في الوجود، كما أشعر برفة جناحه قبل أن يطير. وجدت مثل إحساسي بالكلمات في قصيد الولد "السر"؛ الشاعر البوهيمي الذي يسمع توبيخي إذا أكثر من المسكّرات فيعتذر مدركاً كم أحبه.

أنا صوفية في بقعة مضيئة داخلي، أكثر من "الزين" والد الشاعر "السر"، الذي يظلل الناس بحلقات الذكر، ويسليهم بالدوران، نلتقي جزئياً على حفظ آيات القرآن، ولكن تأويل ما أفهمه من الكتاب مختلف عما يفهمه.

أنا ابنة الحياة بلا منازع. مع ذلك؛ وبعيداً عن ظروف المكان ومكانتي الرفيعة ومحبة الناس المحيطة بي، وهجوم المجاعات وانحباس المطر وهطوله؛ أحس بفراغ مخيف في أعماقي، كما لو كنت حقاً خارج منطق الحياة، بشرية لا أب ولا أم لي، أتذكرهما بالخير بين الناس، وغالباً ما أنساهما كما ينساهما كل الناس، فقد مضى زمن طويل طويل؛ أضعتهما في الذاكرة، لا أتذكر كيف كانت ملامح وجهيهما، ولا أي تفاصيل

تعينني على معرفتهما بين جموع الناس مثلاً، لهذا أحاول تعويض تلك الهوة الخفية، بإسباغ أمومتي على العالم المحيط، واصطياد مودته الخبيئة، أقول لنفسي: أمي الحكمة، وأبي القدر، وأنا أم الجميع.

مرت فوقي رياح الزمن وعركتني، هدأت غزالتي التي تكاد تطير في البرية، وتوقرت، صرت حكّامة أقرب إلى الكياسة وإن مارست اللهو الجميل، أشدو بكلمات الأغاني في الأفراح مادحة العروسين، يهز قرع دلوكتي أردافَ البنات ويدفع بصدورهن إلى الأمام وأقدامهن تتراجع في تواتر راعش في رقصة الترترة، أظل أنا الحكّامة الحكيمة، قد أصير نغماً خالصاً، ولكن المرأة في داخلي نائية عصية.

يمس تعب الناس قلبي بحزن أجاهد في الامتناع عن التعبير عنه، أقول إن مداواته أَولى من ذرف الدمع تأثراً، ويخيل إلي أن كل وجع يشبه تماماً حالة المرأة في المخاض، وصياحها يقطع نياط القلوب، ولكن وراء الوجع صيحة طفل جديد، واستمرار للحياة. هكذا أحاول إخراج المتوجعين من أحزانهم.

أرمم بتعاطفي العملي معهم أوجاع روحي، "ست النفر" على بساطتها وسذاجتها تعرف ذلك عني؛ حتى لو لم تفصح. لقد تلقفتها طفلة، هي ابنتي عملياً، كانت شافعة صغيرة في التاسعة من عمرها حين ماتت أمها "تركية" ربيبتي الأولى، كانت رحمها الله تتشبث بصغيرتها كالمجنونة، تمنع عنها أي يد حتى يدي، بموتها انتقلت البنت إلى حضني.

تصاب "ست النفر" بحالات مس تصرعها وتتركها هامدة واهنة لأيام، عالجتها واحتضنت خوفها بالرقي وآيات الله، فكبرت بين ذراعَي ابنة أذود عنها بشراسة إذا لزم الأمر، أمنعها من المشاركة بلعبة "دنقري" التي تبدو لي فجة قميئة مخالفة لشرع القرآن، ولكني أترك لها مساحة كي تكبر مستقلة، تحملتُ اختلافها وقلة حيلتها، لم تغضبني بفهمها البليد،

ووجدت لها في تنمية مهارات النسوة درباً يخفف انزعاجي من عجزها عن التعلم كما الأطفال، تلك الغربة، وذلك القصور الذهني الطفيف؛ تتحمل مسؤوليته أمها الخائفة المرعوبة "تركية".

في شبابي، وصل "ديقو" صياد النمور إلى الديرة، يحمل على ناقته بنتاً مغبرة نحيلة ببطن بارز، ظن كثيرون أنها خرساء، قال صائد النمور الغريب إن لها اسماً غريباً لم يعد يذكره، واسماً هيناً يمكننا مناداتها به؛ "تركية". قدرت السبب وراء اسمها، فقد كانت البنت بيضاء كأنها من الخواجات الذين نراهم يرافقون الصيادين وتجار الأبنوس والعاج، أو في باحات الكنائس في الفاشر ونيالا.

"تركية"، أُمّ "ست النفر" وجَدّة "بابَنوس"، لها شعر يميل إلى شقرة غريبة ملتبسة، كأن التراب يغطيه، بشرتها باهتة، أنفها عريض وشفتاها مكتنزتان، وهذا كل ما تبقى من أصلها الإفريقي، مزيج فريد بين دم أبيض وآخر زنجي. في البداية لم أصدّق أن رجلاً مثل "ديقو" يحمل على ناقته بنتاً في العاشرة أو الحادية عشرة لشهور عديدة، يقول إن أمها حمّلته البنتَ أمانة ليعيدها، يأتي بها قاطعاً نصف الدنيا من أوروبا البعيدة، ويجتاز مصر والسودان محاولاً الوصول بها إلى نيالا لإعادتها إلى أهلها من دون أن يعرف لهم اسماً ولا صفة واضحة، خاصة وهو لا يملك دلالة أو عنواناً أو اسماً يهتدي به، يصل صائد النمور وتاجر العاج بالبنت إلى ديارنا حبلى، ويتركها فلا يقايض بها ولا يطالب بمكسب، ويرضى بمشورتي بترك البنت في عهدتي، وعدم تعريضها لمخاطر المدينة الكبيرة نيالا، بدا الرجل مكتفياً بما قام به، ممتناً لعرضي، سارع "ديقو" إلى مغادرتنا كمن يفر من فعلة نكراء؛ واضحة جلية في بطنها المنفوخ أمامها.

رجحت أن "ديقو" هو الفاعل، خاصة بعد أن وُلدت "ست النفر" خلاسية مخلطة بين بياض أمها وزرقة أبيها.

لسِتّ النفر وأمها تركية تاريخ حافل محمل بالأسرار، أسرار يصعب الخوض فيها، لأن "تركية" لم تكن تجيد الكلام، وكانت لها رطانتها الغامضة التي لا تشبه أحداً، تحدث فيها ابنتها فقط، وقد قضت أعوامها التسع بيننا رابطة الطفلة على صدرها بخرقة كبيرة أولاً، ثم ممسكة بذراعها ملتصقة بها كيفما تحركت. حتى بيت الخلاء لم تدخله أيّ منهما بمفردها، رغم لطفنا وصبرنا تعاملتْ "تركية" معنا بحذر وذعر كأننا سنختطف صغيرتها، لم تندمج؛ ورحلت "تركية" بأسرارها التي لم تسلمها لنا ولا باحت بها بعدها ابنتُها، مع ذلك منحتني الصغيرة "ست النفر" هدنة مع الدنيا في وقت ما، ربيتها وفرحت بها، وتعهدت ضعفها حتى قويت، ثم زوجتها، لم أكن راضية تماماً. ولكنها بدت لي تختار شيئاً لأول مرة، وافقتها؛ وفرحتْ حين أنجبت "بابَنوس"، كأني صرت جدة للمرة الأولى، لست شريرة، إلا أني تمنيت، وفرحت سراً لأن زوجها رحل ولم يعد، في كل مرة يظهر بها أخاف أن يصطحبها معه بعيداً في حياته الشاقة، لكنه اختفى منذ أعوام، تركنا في سلام أسري رائق، أنا وربيباتي الحبيبات.

أرى صباي المندثر في بريق وشقاوة عيني "باسالم"، وحده يقدّر أني ما زلت صبية، أنا نفسي لا أعرف بداياتي، كأني وُجدت هكذا؛ نخلة عجوز مثقلة بالثمر، أضيف إلى لحائي كل يوم لحاءً جديداً، فتصير حكمتي ثخينة، وظلي وارفاً، وطعم بلَحي محيراً، يوقف المشتهيَ الجائعَ على مسافة بين التوق لتذوقه، والشبع من رؤيته.

ينطبق الأمر تماماً على "باسالم"، منذ عرفته وقف على مسافة مني، في عينيه يتلألأ توق لم يمت ولم يَخْبُ، ولم يُعلن كذلك، أقصى ما يفعله إخباري بين جد وهزل أنه قال قصيدة في منامه يصفني ويمتدحني، ثم نسيها عندما استيقظ، فأضحك؛ ويضحك الجالسون متهمين إياه بالكذب.

في فعاله عزوفٌ، إدراكاً لهول المسافة بيننا، تلك المسافة لم أصنعها أنا، ولا ابتدعها هو، ولكنه حين جاءنا يمانياً نحيلاً قصيراً، هائماً يبحث عن حاضرة نيالا، طامعاً بفتح دكانه فيها، ثم مغيراً وجهته إلى بقعتنا وقد أرهقته رياح شهر أمشير، لم يجد لدينا دكاناً. فكر أن العمل في تلك الزاوية المنسية من العالم سيكفيه ويعفيه من منافسة تجار المدينة، وسيسمح له بمراقبتي من بعيد؛ وقد فتنه قوامي الفتي المشدود بالثوب العاجي، وعقد لسانه انطلاق لساني.

عند وصوله إلينا وجدني الحكّامة التي تكبره عمراً، والتي ردت رجال القبيلة وأعلنت عزوفها عن الزواج، ولم تشارك في ألعاب ملامسة الجسد أو الاختباء في الغابة القريبة مع رجل، الحكّامة التي يمتثل الكبار والصغار لاقتراحاتها وأوامرها. جاء لنا "باسالم" بأمتار من القماش يحملها على حمار كما تاجر من الجلابة، كان حاكم الخرطوم النميري قد أمر بأن يرتدي أبناء الغرب والجنوب ما يستر عوراتهم، بعضنا سبق أوامره لواعز ديني كما فعلتُ وأبي وأمي، وبعضنا تسربل بالثياب امتثالاً لعصر يسوق المدنية إلينا عنوة.

أقبل أهل الخَرْبَقَة على بضاعة "باسالم"، وخاطوا ثياباً في الضعين القريبة، بعد وصوله بسنوات فارقنا عرينا إلى الأبد، وربطنا حشمتنا بتعاليم ديننا، تغيرت الدنيا، ولم يَطَلْنَا من المدنية إلا ثيابنا.

جلس "باسالم" على عتبة الحوش لسنوات يراقبني أهز رأسي رافضة قول شعر يحرض على الحرب كما الحكّامات، يسمعني أعالج خلافات العمدة الذي سمح لـ "بخيت" بزراعة قصيل الدخن على جزء من أرض مخصصة لآخر، أو أوازن بين أهمية مرور الأبالة من الطرف الجنوبي للسهل أو امهالهم حتى يهطل المطر، أو أقرر إن كان الولد الذي أرسلته النسوة إلى نيالا لابتياع حاجاتهن يغشهن، وإن كان على مقرئ القرآن تقاضي

أكثر من حزمة من اللحم المقدد، وكيس من شراب الأبريه الأبيض لقاء تعليمه أولاد الخَرْبَقَة.

لم يكن "باسالم" قادراً على تجاوز المسافة الفاصلة بيننا؛ فأنا كبيرةُ مساليت الخَرْبَقَة، وقومي يحقرون الخواجات بألوانهم الميتة، ويسخرون من العرب الجلابة، وهو وافد عربي فقير.

ولأني من حكمت بمنحه مربعاً صغيراً من أرض لا يدّعي أحد ملكيتها، ليقيم عليها دكانه، فإنه يشعر بامتنان نحوي، رفضت قوالب الصابون وخيشة السكّر التي حاول إهداءها لي بمجرد افتتاح الدكان، فظلت المسافة عالقة بيننا، قامت على تعامل تجاري دقيق؛ لم أرْتَضِ ولو لمرة أيّ مجاملة حينما يقوم اليماني برحلاته المكوكية لجلب بضاعته من الفاشر أو نيالا؛ أدفع ثمن مشترياتي بانتظام، ولا أترك مجالاً لمنة أو إكرامية صغيرة بيننا تختصر المسافة. وأدت مشاعري النفيسة تلك بكل كبرياء، أصف أيّ امرأة تفعل فعلتي بالخرقاء، ولكنني لست مجرد امرأة. أنا الحكّامة.

في زمن بعيد جداً، زمن مر بالمرأة العزباء "الرسالة" التي كنتها، سقط قلبي في صدري توجساً واشتياقاً وخجلاً، وسهرت أراقب النجوم كما لو كنت بنتاً صغيرة، بشرة "باسالم" السمراء التي لوحتها الشمس، لم تمنع احمرار وجهه حتى منابت شعره وهو يحدثني، تفور دمانا، فيغض بصره بصورة لا يخطئها حدس المرأة، ولكني لم أكن امرأة عادية يحق له اشتهاؤها ولا يحق لها أن تشتهي، وكان غريباً وجلاً منكسراً، يقرأ ويكتب لكنه لم يحفظ القرآن مثلي، في هذه النقطة كنت أكثر ثراءً منه؛ على قلة مالي وتدفق السيولة بين يديه في ما بعد، لكن الغنى لا يقاس بالقروش التي تعمر الجيوب.

بعد سنوات من الصمت على نبض القلب، وحين صارت المسافة بيننا برزخاً يستحيل قطعه، جاءني لأعينه على إيجاد زوجة يأنس لها في

غربته؛ فرغم إحاطتنا به ما زال يعد نفسه غريباً، ويتذكر بقعة في اليمن يسمّيها "يافع"، يعتقد أنها جنة الله التي سقطت على الأرض، ولم أكن أجادله رغم سخريتي الباطنية، فإذا كانت "يافع" تلك جنة؛ لماذا فارقها؟

سرنا معاً إلى بيت اليتيمة "ثومة"، أتعاطف مع البنات اليتيمات، لم تصدّق "أم ثومة" أن رجلاً "أحمر" يرغب بابنتها العجفاء جامعة الحطب بلثتها العريضة وأسنانها البارزة، فما بالك أن يكون اليماني الثري نسبياً، صاحب الدكان! لهذا وجدتْ زيارتنا تستحق إطلاق زغاريدها، ومن ثم؛ تم زواج "باسالم" الوافد العربي اليماني بـ "ثومة" السودانية المسليتية، صار بعضاً من الحلة، صاحب دكانها الوحيد، ووالد الأبناء الذين يساعدون والدهم قبل أن يكبروا ويلتحقوا بالمدارس وبجامعي الصمغ وبالتجار الهائمين على وجوههم، كانوا مثل رجال الجلابة يميلون إلى العمل بأيديهم وقد جعلوا "باسالم" جداً لأحفاد كثر أسهو عن أسمائهم. ولده البكر "أبَّكر" صار مرافقاً للصغار الذاهبين إلى المدرسة، أوصيه بالعودة قبل المغيب، كما أوصي الصغار أن يحكموا الإمساك بأكُفّ بعضهم بعضاً ويسيروا في قاطرة إذا تأخروا وغشيت عيونهم مع هبوط الليل.

تغضبني شراسة ربيبتي الثانية "حَوّا"، وأنا قليلاً ما أغضب. جاء بها "ماديو" زوج "ست النفر" في زيارته الأخيرة؛ حبلى تكاد تموت لفرط هزالها، وما إن رحل عنا حتى تكور بطنها سريعاً وبرز واشياً بحالها. رغم عارها المجهر كانت روحها عدائية، تمردت على اقتراح العمدة بإنشاء قطية خاصة لها تقدم فيها جسدها ضيافة للعابرين، فرحتُ بتمردها انتصاراً للدين على التقاليد، لم تسمح "حَوّا" لرجل بالاقتراب منها، ولا أجابت عن الاستفسارات الدقيقة، ولا شفت فضول أي من أهل الخَرَبَقَة. قدرتُ أنها اغْتُصبت، ولم أفه بكلمة، ولكني ضممتها إلى حوش بيتي، مانعة المحيطين بنا من التعليق والثرثرة، تصرفنا كأن ما يجري طبيعي.

وضعتْ "حَوّا" صغيرها في معاناة، تمزق فرجها وزعقت مثل ممسوسة، وتواصل زعيقها إذ رأت وليدها، بدت زرقة عينيه غريبة مرعبة وسط وجهه المغضن الأسود، ملامح غير مسبوقة مزجت بين لون حدقات عيون الرجال البيض وسواد جلدتنا. لكنه طفل على أيّ حال، إذا تعب من البكاء أسدل عينيه على الصورة نفسها التي رأيت فيها أخي في نومته الأخيرة. غضبت من الأم الصغيرة التي نفرت وامتنعت عن إلقامه ثدييها، أسميته "آدمو"، كثير من صغار الحلة يحملون اسم آدم، أردت تدليل "آدمو" الصغير الذي يموت على مهل باكياً، وظننت أني أملك القدرة على ليّ مصيره وتغيير قدره إلى ما قدر الله؛ وكنت أداته.

هرعت إلى بيت "باسالم"، وجررنا الأتان النفساء؛ وقد كانت بلا اسم حينها، ينادونها الحمارة، جررنا الحمارة إلى حوشنا، فظلت تعقص وتقاومنا متقهقرة إلى الخلف، وحين ثبتنا قدميها في جدار البوص وربطناها بالحبال، عافرت تحاول الرجوع إلى الخلف، فضحكنا كثيراً إذ انتظمت حركتها في ما يشبه ترترة العروس التي تتحدى عريسها وتثير رغباته بالابتعاد المنتظم ثم تستسلم، عندها جئنا بثمرة القرع المجوفة وملأناها بحليب الأتان وسقينا "آدمو". سمّينا البهيمة المعطاءة: "ترترة".

لم تلن "حَوّا" ولم تستكن ولا شُفيت من عفاريتها إلا وقد تخطى الولد عامين من عمره ملتصقاً بضرع البهيمة، اقتربت منها حذرة، ناولتها جسده الضئيل وهو مغمض العينين نائم، فضمته إلى صدرها وبكت بهدوء لا يتناسب وعنفها، تنفستُ الصعداء فقد أنقذتُ اليتيم من موت محقق، وصار لي ابن يكبر إلى جانب ابنتي "بابَنوس".

أنا أم بلا رحم يلد، حمّلتني تلك الأمومة هماً وعبئاً، أن ترى الصغار يكبرون يعني التفكير بمكانهم تحت الشمس، أن تختار مصيرك ومكانك بحرية لا يمنحك الحق في اختيار مكان سواك، لم تكن تلك أفكاري

مسبقاً. كنت واثقة وأنا أختار وطن أهلي، ولم أعد كذلك مع صغار الحلة. تعلمني الحياة درساً جديداً، في لحظات وحدتي حين أسلم رأسي للنوم، تومض فيه فكرة مريعة، أني وحيدة غريبة، لا أعرف من أنا! كيف إذاً أجرؤ على تقدم الآخرين وإرشادهم دروبهم؟ لعلّي أخطأت بسبب زهوي وكبريائي الزائفين، فمن أنا حتى أسوس العالم على هذا النحو؟ أصغر الأشياء أكثر أهمية مني، يمكن لنملة تدب في التراب أن تترك أثراً أعمق من أثري، يمكن لحمض ثمرة القنقليز أن يصنع يومي، ولا أصنع أنا أمراً يقولب حياتي، الأشياء تضغطنا على قالبها، ولسنا نحن "البني آدميين" أصحاب العقل وحَمَلة الأمانة الإلهية الذين نصنع الحياة، ولكننا نكابر ونصوغ أوهامنا عن أنفسنا بكبرياء مفرط.

أسأل نفسي مرات، هل تستحق تلك المكاسب التي توفرها المدينة أن نخضع للتنظيمات الإدارية التي تصادر أرواحنا الحرة؟ حيث يجري تصنيفنا إلى زرق وخضر وحمر، ونصير تابعين لمن يرحّلنا أو يستبقينا، خاضعين لقوانين كتبها آخرون، وبدلاً من استنبات أراضينا الفقيرة المحدودة، نصير خدماً في بيوت الإداريين الجلابة، أو على أحسن وجه موظفين لراحتهم وإنجاز أعمالهم. هل تستحق لقمة الطعام الثابتة المضمونة ذلك الموقع من الحياة؟ وهل نستطيع بعزلتنا الآمنة اتقاء غضبة الحياة والموت حقاً؟ وهل يمكننا بإمكانياتنا المحدودة جعل خَرْبَقَتنا جنة البشر على الأرض؟

قناعتي أننّا أهل الخَرْبَقَة؛ نعيش لعبة الدنيا على هوانا، نغير نظامها، ونسوسها حتى لو حملتنا بمجاعاتها وفقرها على درب الموت. الحصى الصغيرة والبعران التي نسمّيها كلاباً فتفترس بعضها في اللعبة؛ هي خَرْبَقَة الدنيا خارجنا. خَرْبَقَتنا مختلفة تماماً؛ إنها خَرْبَقَة التنعم بالاستقلال، أن تكون عارياً يعني أن القماش لا يشتريك، إننا قوم الصبر على الجوع،

وهدهدة المحبة والوفاق، خَرْبَقَتنا هي اعتكاف الحمائم في أوكار بعيدة عن الصقور الكاسرة، إنما ما تبقى من أرواح المساليت فينا. وليذهب "الشفيع" وطموحه العريض إلى الجحيم.

أصنف نفسي في موقع الأثرياء في زمن الرخاء، يهديني الفقراء ذرة وملحاً لقاء تعليم أولادهم، وتجود حاكورتي الصغيرة بالدُّخن والقمح أحياناً والباميا وقثاء العجور الشهي، وتدر شطور عنزاتي اللبن، ماذا يريد الجسد أكثر من هذا؟ رزق معقول حماني من الفاقة، كنت أرجع وفرة رزقي لمباركة إلهية أُسبغت علَيّ لاحتضاني المرأتين؛ "ست النفر" و"حَوّا"، وولديهما اليتيمين، "بابَنوس" و"آدمو"، ورعايتي جارتَنا الكفيفة "زينب"، صارت ربيبتاي منتحتَين، بائعتين محبوبتين، وإن مال الناس إلى وداعة "ست النفر" وصمتها، وعطفوا على مرضها، بينما تعاملوا بصعوبة مع "حَوّا"؛ عواسة الكسرة، وست الشاي، صاحبة اللسان السليط. أداري طيف وجه شقيقي الميت، وأعالج ترددي ومخاوفي على الصغار بشق طريق لهم للالتحاق بمدارس المدينة، مشوار طويل يقطعونه للتزود بعلوم الدنيا، مُرْتَدِين كما أولاد العرب جلابيات وفساتين وقمصاناً، لكنهم يعودون كل يوم مع غياب الشمس إلى حضن الخَرْبَقَة وأمانها، يتحررون من ثيابهم إذا شاءوا، فلا أغالي في تقريعهم، أزين للبنات منهم التحلي بالثياب، وأتعهدهم كما الزرع، أجالسهم أكثر مما أجالس الكبار، يقايضونني بحفظ جزء "عَمَّ" من القرآن مقابل حكاية عنترة أو تاجوج، ويحفظ كبارهم سورة البقرة لقاء أمسية أضرب فيها طبل الدلوكة الصغير، وأغني ويرقصون، أطلق العنان للشعر والنفس والتمني حين نتخيل معاً عالماً جميلاً نحبه ويحبنا.

في مهرجان الخيالة عندما نجمع المحاصيل، أو في أمسيات المصارعة، والشباب يتعاركون أرضاً كما العجول النزقة، لاعبين مثيرين الأغبرة

ضاحكين، تترجرج دقات الدلوكة عالية ومنخفضة بطيئة وسريعة، وأغني لهم واحداً واحداً، بأسمائهم:

- *آخر الزمان؛ لكين أولادنا غير. يا حلاته، حليل الولد "شديد" شجاع وما تلفت. الزمان شحيح؛ لكين حليل الولد "محجوب"، جواد؛ يده مدت وما تخفت. والرجال نوخت؛ لكين حليل "سيف" راكب الأصيلة بعين الشمس يسابق. وقت الفقر والدوخ والنوح؛ حليل "عثمان" كريم اسمه في خشوم الناس تردد. حليل "آدمو" ود قلبي اللي للفعل فعال وما تردد.*

يسخن إيقاع الدلوكة مع الاصطفاف لرقصة الجراري، وينقلب صوتي نداءً سماوياً حين يصطف الفتيان وهم يهمرون ويكرون ويتقافزون وأنا أغني:

- *الشوقة الشوقة يا قلبي، أنا قلبي حريق فوقها؛ أنا قلبي، الجراري بشوقها؛ أنا قلبي حريق فوقها؛ أنا قلبي.*

يهمر الفتيان وتتلوى البنات كما الثعابين الكنيزة رافعات أردافهن؛ مزحلقات رقابهن يمنة ويسرة بخفة وبطء شديد، فإذا خرج فتى متحمس من صفه وضرب الهواء بأصابعه المهتزة مشبلاً(*)، اقتربت واحدة منه تتطعج؛ تكافئه بإلقاء رأسها نحوه واسترجاعه سريعاً، بالكاد تلمس مسائد شعرها المجدلة صدر الشبال، ترتفع الحماسة ويسحب الفتية أنفاسهم ويطلقونها وهم يهمهمون، ويدقون الأرض بأقدامهم في ضربات تتناغم مع دقاتي، وصوتي يردد عالياً:

- *القمر طلع، البرق شلع، البت الجميلة السمحة لي.*

(*) ضرب الأصابع في تحية فوق رأس الراقصة

لا أحملهم عبء معتقدي، ولا أسفعهم به، ولا أحوله قيداً، أقترب على مهل من فكرتي، ألجأ لصلاتي، وأتركهم ينطلقون وراء الشابات في الغابة البعيدة، والفتيات مدنقرات(*) يتظاهرن بالبحث عن إبرة ضاعت، يتبع كل واحد منهم طريدته ويعلو ضحكهم، فأبتسم وأصر أسناني كما لو أني أوبخهم، أهز رأسي وأمشي لقطيتي تاركة لهم فسحة من الحياة بلا قيود ولا أثقال، واثقة أن زماناً قادماً سيخفف غلواء شغفهم بالجسد وألعابه ووحشيته، وسيربطهم بكتاب الله على نحو مفعم بالرضا. لا أتعجل.

ليس لدي أقارب من لحمي ودمي، ولا أحفاد من صلبي، فصلبي لم يعرف ماء الرجل، إلا في النظرات الغامضة التي تبادلتها و"باسالم" في شبابنا، وصارت حبل ود وصداقة واهتمام متين عجيب لا ينقطع في كهولتنا وشيخوختنا. مرت ليال كثيرة وأنا أكبح الإحساس المميت بالوحدة والغربة، لم يكن نجاحي تاماً، فما زلت رغم فيض المحبة حولي ومنزلتي الرفيعة أسترجع حقيقة أني وحيدة غريبة. كما عالجت تلك الفراغات الإنسانية المتأتية من انقطاع النسل مرات عديدة في حياتي حين جعلت أهل الخَرْبَقَة أهلي. وتبنيت "تركية" ونسلها "ست النفر" وصولاً إلى "بابَنوس"، ثم "حَوّا" وولدها "آدمو". هؤلاء عائلتي، ولكني وحيدة في أعماقي. كلما جلست إلى عنقريبي(*) أفك خيوط مشكلة معقدة، وأعقد حبال المودة والصلح بين المتخاصمين؛ رممتُ بعضاً من خرابي، وكلما داعبت مزاجي ليقول شعراً؛ حققتُ تلذذاً، ومسحتُ جراح الروح والعقل، وكتمت صرخات الجسد المولولة في مسامي تحت وطأة الحرمان الوحشي الذي يستيقظ والناس نيام، أعالج ندوب ناسي كلما جمعت

(*) منحنيات

(*) سرير من الحبال

العيون والقلوب حولي، أو قرأت أشعاري؛ أنظر إلى "باسالم"، فيظن الجالسون أني أنتظر هزة رأسه التي تعزز قولي، وتوافقني، في الواقع؛ كنت أسأل نفسي، كيف لهذا الرجل الغريب القفز مجتازاً المسافة الفاصلة بيننا وأنا أجعل من نفسي حكيمة زماني؟ ولو أنه فعلها يوماً لكان درب حياتي قد اختلف تماماً.

في ساعات قيامي بدور الحكّامة، أنسى كل ما يخصني: اسمي القديم "الرسالة"، أنوثتي المتوارية وراء ثوب الدمور الواسع بلونه العاجي، رغباتي وأحلامي، عطشي وجوعي، وحدتي، والفجوة المقيمة في فؤادي؛ أصير عقلاً صرفاً، حتى ما يبدو مني من نزق عاطفي، أو ملامسة ومداواة لجراح الناس، كأوجاع "السر" الشاعر العاشق، كل هذه أمور أديرها بثبات عقلي منطقي، لهذا حظيت بالتبجيل، وتوافق الجميع على عائلتي المصطنعة التي تحظى بمكانتي تقديراً ورعاية، في ظروف أخرى كانت "ست النفر" أو "حَوّا" بشريتين يسهل نفيهما وإقصاؤهما ومحاسبتهما بحكمٍ قيميّ مهين، أما تحت جناحيّ؛ فلهما مثل ما لي، تُعامَلان عند الآخرين بما أعاملهما به.

مع ذلك:

- *شيطان شعري ما غراني، عركتني التجارب والزمن وراني، اللي عيونه لقدام ما بكون وراني.*

يرفع أهل الخَرْبَقَة من مكانتي، يتبعون شوري أكثر من أحكام مجلس الجودية، ويستجيبون لقوانيني أكثر من قوانين "الشفيع"؛ العمدة الذي كشف بقعتنا نسبياً للإداريين، وحاول رشوتي بلقب "الأميرة" الذي ترسم به الإداراتُ الحكومية ولاءَ الحكّامات في التجمعات النائية، لم يغرني اللقب، وما أردته ثوباً يسبغ علَيّ ارتباطاً بمن يحكمني. لا يحكمني غير الله، ومهما تغير علينا الزمان، أظل حكّامة الخَرْبَقَة، لا حاكمتها، أعلم الناس تصريف الحياة قائلة:

- *أوصيكم على البيت الكبير؛ اشروه، على ضيف المحوع؛ عَشُّوه، على الولد اليتيم؛ رَبُّوه، على الجار إن وقع؛ شيلوه، على السيف السنين؛ اسعوه، على الفايت الحدود؛ واسوه.*

أُثقل على نفسي بحكمة ينتظرها الآخرون، وقد خلعت الأنثى من أعماقي بقسوة كماشة تسحب مسماراً، كما لو كانت ضرساً نخرها السوس فشلعتها محتملة ألمهَا، كما خلعها الناس مني بلا وعي. ما تبقى لي من الأنوثة إلا حكمتها وكشفها وفيض تحنانها، استعضت عن رجفة القلب، ورعشة الجسد، بتلمس الأشياء من حولي، بمتابعتها حتى أصل إلى أمها وأبيها، بمسح دمعة الأشياء حين تبكي، بتضميد جروح البشر التي لا تُرى؛ وإن كانت نازفة. اتسعت حلتنا، وصارت وطناً حقيقياً، ومر فيها من مر، وزاد سكانها، وتمازجوا عرباً وزنوجاً ومساكين وطامعين، فقد كنا على طريق العابرين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، محطة استراحة ومستقر. عندما شاب شعر رأسي، سلمت أني لست المرجع الوحيد لتلك المجموعة، تسللت على مهل من كرسي الحكّامة متشاغلة بدوري في تربية "بابَنوس" و"آدمو"، ومتابعة مصالح الزراعة التي تطعمني خبزاً، شجعت الرجال الذين شاركوني المشوار الصعب على استعادة أدوارهم بروية، حولت جلسات الانداية أو التعطل الصباحية للرجال حول القرعة الطافحة بخمرة المريسة إلى جماعات تحكيم مبجلة، ومن دون إدارة ظهري نهائياً، أردد بينهم بحبور ومحبة أم:

- *عسانا دايماً، تامين ولامين وما ناقصين.*

كلما حملنا جنازة إلى الجبانة(*)، أو مررت بشجرة الموتى عند حد خزان الماء، فكرت أني سأترك الوطن يوماً بلا حكّامة، أو شرعة تسوسه، فقد خذلتني "بابَنوس" و"ست النفر" من قبلها، وما أرادت إحداهما أو

(*) المقبرة

استطاعت ارتداء ثوب الحكّامة والقيام بالدور الصعب، ولا انصعت أنا إلى تقمص دوري كأميرة تسوس قومها وفق تراتبية تعين لها المرافقات والنائبات، بل اعتكفت في خَرْبَقَتي أديرها كما يلهمني ربي، لهذا أردت إحياء مبدأ الجودية، حين يتجمع الأجاويد من كبار الناس لحل المشكلة، بخاصة أننا لا نتبع إدارة يمكننا الارتكان إليها إذا ما طرأ خلاف بيننا، أو قانون يحكم على الظالم والمظلوم؛ إلا ما تعارفنا عليه أخلاقياً، وما فاهت به شفاهي من حكمة. استحسن رجالنا من الجودية الكرام اتّباع مثل هذا الإجراء الذي يكبر الكبير ويحترمه، ويعزز دورهم، فلجأوا إلى قانون "دالي"، وهو قانون قديم وضعه سلطان الفور العتيق "دالي". إذا ما سرق أحدهم؛ غرموه بست بقرات إذا كان من البقارة، أو مائة بعير إذا كان من الأبالة، أو ما يعادل ثمنها، وإلا الحبس. قاموا بتخصيص قطية للحبس عينوا عليها الفتى "شديد" حارساً. في أكثر الأحوال تكون تلك القوانين مجرد قوانين غير معمول بها، فليس في حلتنا بقارة ولا أبالة، ولا ماشية كثيرة ولا نقد وفير، كلنا ضعاف الحال بالكاد نكفي يومنا، هكذا؛ ما إن يُحبس السارق، حتى يعود رجال الجودية لي، فلا أردهم، وأقول مرحبة متصدية للأمر:

- *حبابكم عشرة.*

أقضي بينهم، فأقدّر الفدية التي يتوجب على أهل المخطئ دفعها، وأزن الجرم بملابساته وبحال السارق والمسروق، لأنطق بالحكم الذي لا يرده أحد، حتى لو كان جمع الفدية للسارق من كل بيت في الحلة.

أترك مشاكل الضرب والشكل بين الأشقياء للأجاويد يحكمون وفق قانون دالي بتغريم الضارب بثوب من الدمور إذا جرح المضروب، ونصف ثوب إذا لم يكن هناك جرح. أما خلافات الكبار ونزاعات الحصص الزراعية؛ بعد أن صرنا مزارعين، وحصص الماء خارج موسم المطر، فترتبط

كلها بتقديراتي الخاصة، وهي في جلها أمور عسيرة أسوسها بالرحمة دون العدالة في زمن المجاعة. هو زمن تُنتزع منه العدالة أساساً.

لا يمكنني إحصاء عدد المجاعات التي مرت على الخَرْبَقَة، فالمطر ينقطع كأنه لم يزر تلك الأرض بتاتاً، ويجوس الموت بيننا عادياً ويومياً، فأنسى جوعي كي أعالج جوع الآخرين، أتفقد "زينب" الضريرة يومياً في قطيتها الفقيرة، أدعي أن عنزتها حلبت هذا الصباح لبناً وفيراً، تمد يدها الهزيلة وتمسك بالقرعة الطافحة، أسقيها بنفسي وأنا أتحدث عن شقاوة العنزة. ماتت عنزتها منذ أعوام، وأظن "زينب" تعرف؛ لكنها غير متأكدة. فكيف لها تفريق عنزتها من عنزتي! أمدها ببعض الذرة وأضع طبق العصيدة أمامها وأمضي مشيَّعة بدعواتها في رطانة حانية، ف "زينب" لا تجيد العربية، ومنذ فقدت عائلتها وبصرها باتت مسؤولية بيتي.

أتنقل بهمة في المجاعات العابرة بحثاً عن الجوعى والصغار وجثث المسنين في قطاطيهم، أمنع الأمهات الخائفات من هجر المكان برضّعهن وصغارهن هرباً إلى المدن البعيدة، أنبه إلى مخاطر الطريق الطويلة المزروعة جوعاً وبؤساً، والتي يقتتل العالم على جنباتها في معارك لا تعنينا، حيث ينتشر عسكر الحكومة، والأشقياء المسلحون من عصابات "الجنجويد"(*)، ولا يخلو الأمر من حوادث انتقام متفرقة تعبر الصحاري والغابات الجنوبية إلينا، إذا ما التقى صدفة واحد من قبائل المسيرية بجنوبيٍّ من قبائل الدينكا.

عندما نجوع؛ يرتضي الجميع قراراتي بجمع كل ما لدينا من خزين، وإعادة توزيعه بالمقادير التي أحددها، عندها لا أحسب حساباً قانونياً حول من يملك ومن لا يملك، نصير كلنا أبناء الجوع، ولنا حق في الطعام المجاني مهما قل، نمارس قوانين خَرْبَقَتنا الرحيمة. ثم في لحظة غير مرصودة

(*) اسم فصيل عسكري يعني "جن على جواد" بلغة الزغاوة

ولا متوقَّعة؛ تنفتح السماء وتُسقط ماءها، عندها نرقص ونغني، نشبع قبل أن نأكل، يُشبعنا شعورنا بالأمان، وتظل مهمتي عسيرة في ترتيب الأمور حتى جني النبات، وإعادة المحاصصة بين من تبقى من أهل الخَرْبَقَة.

زرعت النسوة السفح دخناً، لكن بعد جنيه قص الشبان جذور نباتاتهم ليمنعوا الرعاة البقارة من دخول أراضيهم بحثاً عن طعام لمواشيهم، أستدعي أولادَنا ونسوتَنا موبخة؛ أصدر أمراً قاطعاً بالتوقف عن تلك الألاعيب، لا يسلم الشبان بسهولة، ويكثرون النقاش، فيشكون من العرب البقارة الذين يحتقرونهم لسواد بشرتهم، ويسمونهم أهل "التكل"،(*) ساخرين من زراعتهم ومهنهم، غير متورعين عن مشاركتهم نتاج عرقهم، أعلّمهم أن الأرض ملك للجائع والمحتاج، وذلك التوافق والتناغم لا يكون على وجهها لولا أننا نتساند.

أخفف مخاوفهم من نقص المياه، بل أفسر المجاعات الطارئة في مواسم المحل على أنها بعضٌ من توازن الطبيعة وعدلها وحكمتها، والإنسان وحده من يخل بذلك التوازن الدقيق. يستجيبون غالباً، ويظل هناك نفر عصاة من الشباب النزقين الأنفين الذين أحبهم على شقاوتهم، خائفين أن يطالهم العطش إذا فرطوا بما لديهم، يعمدون إلى إغلاق الآبار دون العطاشى المارين، فليس لكل البشر القدرة نفسها على التعاطف والعطاء. ما أصعب دور الحكّامة.

الموازنة بين الحكمة والعدالة والهوى، أمر أختبره كل يوم بصورة مضنية.

تاريخ العالم حافل بالأسرار، أعرف التاريخ البعيد لمجمل الحياة؛ وأتأمله كما لو كان يدور حولي في اللحظة الراهنة، وأمط شفتيّ علامة جهل حين أُسأل عن الجديد، كأن أدعي أن اسم الحاكم الحالي في

(*) أهل المطبخ المستقرين

الخرطوم غاب عن ذهني، وماذا يهم إن كان محمد علي أو غوردون أو المهدي أو النميري أو البشير؟ لا يمكنني تفسير أرتال رجال الأمن الذين يتدفقون على المدن القريبة، ولا علاقة الجنجويد بالعسكر، ولماذا يتحالف الطرفان على المزارعين في القرى والمدن القريبة، ولماذا تحرق مساكن الفقراء ويتم إرعابهم وطردهم؛ وتدخل قطعان الأبقار تقتات بما زرع الهاربون! نبدو بعيدين عن جنون العالم.

يستحسن أن يظن أهل الحلة أحياناً أني لا أعرف، لست كاملة؛ فأنا من البشر، مع أني أعرف الكثير، أعرف الملك نمر، والمهدي الأول والثاني، وحتى تشرشل والملكة الأولى الإنجليزية إليزابيث، كما أعرف أن الحالية الشمطاء تحمل أيضاً اسم إليزابيث! أعرف الكثير عن مصر والسعودية وتشاد وليبيا وفلسطين التي سرقتها "إسرائيل"، وأعرف بلاد الخواجات إنجلترا، يمكنني تصور الخريطة التي ترتسم عليها كل هذه البلاد، ولا وجود فيها لاسم حلتنا الخَرَبَقَة.

تعلمتْ "بابَنوس" رسمَ خطوط منحنية لهذا العالم على الورق، ترسم النيل الحقيقي خطوطاً رفيعة تلتقي بخطين يقتربان ويندمجان في خط كبير في الوسط، كما لو كان شجرة جرداء مقلوبة، علّمها تلك المهارةَ "أبّكر" ابن "باسالم" البكر وأستاذة المدرسة "فاطمة"، وإن ظلت "بابَنوس" تنسى رسم نيلنا؛ حفيرتنا التي حفرناها بأيدينا، أشياء صغيرة لا تهمها، لكنها تعني لي العالم. أما "أبّكر" فإنه يعرف الكثير؛ أشياء تعلمها في المدارس والسفر وخفيت عني، المعرفة بالأخبار والحكايات والمعلومات سهلة ممكنة، ولكن معظم ما أعرفه عن أسرار الحياة؛ يخفى عن الجميع.

هل علمتني معرفتي وحكمتي الزهو بعقلي وبما أنا عليه؟ لا أظن، لكنهما أثقلا كاهلي. لم ينحنِ كتفاي عبثاً، مع تقدم العمر وكلما تهدل جسدي منكفئاً على ضعفه ووهنه، نهضت روحي منتصبة.

أتابع الشبان الواهمين بامتلاك يومهم وأمسهم، وأقصى ما يذهبون إليه غدهم، أراهم خفافاً كفراشات تتهادى، أرواحهم متوثبة؛ جاهزين لصراع أيامهم بكبر وثقة مطلقين، بل إنهم يختلقون صراعهم ويستجلبون عدوهم جلباً. بينما الحكمة التي أثقلت رأسي، تهوّن علَيّ استعداء العالم وعداوته والصراع معه، أبداً لا يكون ناظري في الفيل وساعدي يطعن ظله. رائقة أداوي ضربات الحياة وجراحها، لا تعنيني آثار مخالبها على جسدي، بصبر أم تفلّي ابنتها، أخلع أشواك الدنيا.

يمكنني بصبري إذابة العالم كله في كأس شراب"الحلو مر" اللذيذ وشربه، لهذا أنسى وأتناسى، أغفر وأرحم وأفهم، أمنح وأعطي وأتعفف، أتغاضى عن هفوات البشر، حتى جرائمهم، أشفق على ضعفهم، وأزهد في القوة والمجد والمال. أنا الصلبة الصارمة الجافة اليابسة، أصير لينة هينة مطواعة، أتنحى كي يمر الآخرون بهبوبهم وعصفهم وضوئهم وضوضائهم.

"بابَنوس"

لم أعرف الأشقاء، فقد نشفت أمي بعدي مثل حطبة، ما عادت أنثى تَعِدُ بالبنين والبنات، مجرد خشبة بنية رمادية باهتة، تنفع في إسناد خابية الماء، أو حمل الحطب من الغابة المجاورة. تقرفص ساعات تعوس العجين، ثم تمسده بحركة سريعة فوق الصاج المقلوب على تنور النار؛ تصنع الرقاق الهش اللذيذ، ثم تبيعه في الحلة وخارجها، كما تبيع خدماتها، تنتقل من بيت إلى بيت، يهيئون لها تنورهم وحفرتهم وصاجهم، وتنجز هي عجينها ورقاقها.

تتسلط أمي الكيسة الهادئة على "حَوّا" الزرقا المتنمرة! كما لو كانت امرأة مغايرة، "حَوّا" التي لا يقدر عليها أحد؛ تملك أمي زجرها بنظرات تأنيب موبخة، لكنّ عينيّ أمي ليستا دائماً حاضرتين.

تجلس أمي "ست النفر" لساعات طويلة صامتة ساهمة، ترتد إلى زمن بعيد، تنفصل عما حولها؛ صماء بكماء، ثم تنتبه وتنظر إلينا بحياد كأنها لم تختفِ من المكان لفترة طويلة، تقول بهدوء:

- *أسوي ليكم كباية كركديه؟*

تنهض لإعداد مشروب الكركديه حتى لو لم يجبها أحد. تشارك في مجمل نشاطات النهار، والمطبخ مملكتها بلا منازع، لكنها لم تعد تصلح للإنجاب بعد إنجابي، ذاك ماض بعيد كأنه لم يكن، وأنا وحيدتها، درتها الفريدة التي لا تمنحها عطفها، ما عرفت العطف إلا في لمسات الجدة الحبوبة الحكّامة.

لم أحْظَ بالأشقاء، شبيهة بشجرة الموتى، وحيدة على حد الماء عند انعراج الحفير، ولأني لا أعرف كيف يكون للمرء أخ أو أخت، فإن كلمات الحكّامة تبدو غريبة، حين تشير للولد الصغير قائلة:

- *آدمو اخوك.*

كيف يكون أخي؟ ليس بيننا صلة دم، لا يجمعني به جد ولا أب ولا أم، وهو نفسه وحيد كما لو كان حصاة في العراء، لولا خوفي سخط الحكّامة وأشياء أخرى في صدري، لكنت أسميته في لحظات الغضب والمماحكة كما يسمّيه أهل الحلة سراً، "جنا حرام"(*). لكني لا أفعل، أشفق عليه من الهمس الخفي، وأحزن عندما أتصور رحيله وحيداً إذا كبر وشاخ، لن يجد له أهلاً واقفين عند الشجرة ينتظرون روحه على حد الماء، وحدها أمه "حَوّا" ستكون في انتظاره.

"آدمو" منقطع إلا من أمه "حَوّا" السليطة الصعبة، كأنه هبط من السماء، أو بزغ كالجني من العدم بعينيه الملونتين بين اخضرار عشب ندي، وزرقة السماء عند العصر. ألوان لا تشبه السواد في عيون البشر على تلك البسيطة، مع ذلك كحل الله عينيه برموش يبدو معها غامضاً مخيفاً فاتناً.

لا أعرف كيف تكون الأخوّة، حين يأتي الجميع من ماء واحد، ثم يكبرون في بيت واحد، رغم أني كبرت معه، ولكن الأمر مختلف. هو أيضاً لا يعرف طبيعة أن يكون له أخت أو أخ، حتى لو سمع طوال عمره أني مثل أخته، مثل أخته! أي أني لست أخته.

أفزع حين يتمدد قربي في الفلاة، تورمت ذراعه النحيلة بانبعاجات رشيقة يلامس ذراعي الطويلة، ينقلب؛ فأشعر بتورمات أخرى يحاول إخفاءها، وأحس اشتداد عجيزته وصلابتها.

(*) ابن حرام

ركضنا معاً وراء عنزة عتوت(*) رعناء أمسكنا بها تقرض أوراق شجرة العرديب في حوش ود "باسالم". لم يكن يُسمح لنا بالابتعاد أكثر مما تبتعد العنزات إلا برفقة الكبار، فهناك عند سفح الجبل الذي كان مباحاً سابقاً؛ مُنع الأطفال والنسوة من التوغل. الجسورات يغامرن حاملات الحطب من الغابة البعيدة. هناك تختبئ حكايات مرعبة، لا يريد أيٌّ منا سماعها أو اختبارها.

أفلتت العنزة منا، تراهَنّا أينا أسرع في الإمساك بها، جرينا، وحين تمكَّنّا كِلانا من إمساك رأسها وتثبيت بدنها الذي فرفط بيننا وهي تماعي بحشرجة ووجل، ضرب كوعه اليابس نهدي الجديد؛ فنفرت، وأطلقت صيحة ألم، ثم أمسكت عن البوح، لم أشْتُمه لحظتها، فقد تبلبل حسي، وأصابني بله مؤقت. ولكني في ما بعد ابتدعت أسباباً أخرى تبرر السباب، وفهم هو أن ألماً أصابني؛ أخجل البوح به.

عدنا إلى القطية نتشاتم ونتراجم بالحجارة، تماماً كما كنا نفعل مع أقراننا الصغار حين يحاصرونه وراء القطية؛ يتفحصون خضرة عينيه مغازلين وساخرين، أو يمسكون بخاصرته، يدفعونه متضاحكين ليواجه جدار القطية. يلتصقون به ضاغطين جسده بجسد أكبرهم، عندها أتناول الحجارة الصغيرة وأرجمهم شاتمة، فيفلت من بين أيديهم، ويزوغ من بينهم مراوغاً جارياً لينضم إليّ، نرجم الفتية وهم يتصايحون:

- *أخته الكبيرة جت.*

يفر الصبية المعتدون عن الشمال وعن اليمين، يعرفون أني أرعاه وأحميه بشراسة تشبه شراسة أمه الغائبة في الأسواق تبيع.

سريعاً، لحق طوله طولي وهو الأصغر، وعرض ساعداه وفخذاه، وانشطر صدره إلى عضلتين بارزتين، ونفرت أوردته وشرايينه، ولم تعد

(*) العنزة الصغيرة

الحكّامة تتساهل مع عريه؛ ألزمته بالستر كما ألزمتي منذ مطلع طفولتي. ونحن نكبر، استغنى تدريجياً عن حماية فتاة دق خصرها وارتفع نهداها وتكورت عجيزتها. بتنا طرفي نقيض، ذكراً وأنثى، تمرد على حمايتي، وادّعى أنه لا يحتاجها، ولم أعايره بضعفه وخضرة عينيه التي تغري فاسقي الحي، وضياع نسبه الذي يجعله "جنا حرام"، لا أجرؤ على إهانته بتلك الملاحظة، فنسبُ الحكّامة يخلق تعاطفاً بيننا، ويسبغ على كلينا أخوّة نحتمي بها.

أتحاشى أن يلمس -ولو صدفة- انحناءاتي الجديدة، النهدين الصلبين، خصري وردفيّ. عندما منعتني الحكّامة من جعل جسدي مطرحاً للعب؛ أشعلت خيالاتي السرية، بت أشعر بكل تفاصيل هذا الجسد الذي يهددني باشتعالاته، وأهدهده بمخاوفي.

أضبط المسافة التي أقترب فيها من "آدمو"، أعود معه وقد تناوبنا على حمل الدلو البلاستيكي الطافح بالماء الذي جلبناه من بحيرتنا النيل، أو من حصتنا في خزين شجرة التبلدي. نشد الدلو بحبل من ثوبي المهترئ الذي قطعْتهُ فتائلَ وربطْتهُ بإحكام، تعلمنا الوصول بمعظم الماء الذي نحمله، لا نترجرج كي لا يطشطش الماء على الدرب، نتحمل الثقل لإيصال أكبر كمية ممكنة، وحتى لا نضطر للعودة بحمل آخر. عندما نصل، نتعاون في رفع الدلو، وندلق بعض الماء في خابية الحكّامة، وبعضه في خابية أمي "ست النفر"، وما تبقى في خابية أمه "حَوّا"، ونتلقى معاً التوبيخ لتأخُّرنا والشمس تهبط في عرض السماء، نسمع تحذيراً من طشاش الرؤيا، ومن التحول إلى كفيفين كـ "زينب" العميانة جارتنا. كما نهدَّد بالزرق الذي قد يبزغون فجأة ويخطفون الأطفال.

تبالغ أمي قائلة:

- *خليكِ حايمة.. لو مسكوك؛ تصيري خادم عند البرغال[*]، مثل حبوباتك رحمة وتركية!*

لا أهتم لكلماتها، فأنا لا أعرف من هن الجدتان "رحمة" و"تركية" اللتان تذكرهما بين الحين والحين، كما أنها نسِيَتَ أني زرقا، وأبي أزرق، فما من خطر يحيق بي أو يخيفني. ناهيك من كون رأسها مسكوناً بأوهام أمها وجدتها، يتلبسها جني الخوف وتبدو خارج الحياة وإن كانت في تفاصيلها، تخترع قوماً لم أرهم بتاتاً، ولا يعرفهم أحد، تسمّيهم "البرغال".

توبخ الحكّامة "ستَّ النفر" على كلماتها البشعة، وتطبطب ظهري. تغتنم "حَوّا" انشغال الحكّامة بنا فتشْتُم ولدها بسباب فاحش لأننا تأخرنا، "حَوّا" كعبة[*] لا يمكن تهذيب لسانها إذا غضبت، يشيح "آدمو" بوجهه، تلتقي نظراتنا، فأشيح، هو ليس أخي، وهو صغير، كنت طفلة حين حملته على ذراعي ودهشت من لون عينيه، ليس أخي، ولكني أتظاهر بذلك؛ ويتظاهر، وفق ما أرادت الحكّامة التي نقلت التوبيخ من أمي إلى أمه.

لا أعرف كيف تكون تلك الأخوّة المدَّعاة، لم أعد أنام قربه على عنقريب واحد، ادعت أمي أن العنقريب لا يتسع لكلينا، وتهامست مع الحكّامة بصورة ملفتة للنظر، لم ألتفت، تظاهرت أني لا أسمع، قانعة بالأخوّة، وإن لم تلده أمي، ولا ولدتني أمه، هكذا أرادت الحكّامة، دائماً يصير ما أرادت الحكّامة. حتى لو حلمت سراً بالحضن، تلك الحكاية العتيقة التي تحكيها الحكّامة عن أهل الغرب، عندما ينام الرجل ومعشوقته يحتضن أحدهما الآخر، يكتفيان بحرارة الأجساد وفيض التحنان، يغالبان الرغبة ويتدربان على تصبير الجسد، فلا يطأها ولا تعطيه أسرارها إلا عند

(*) البرتغاليين

(*) سيئة

وقوع الزواج، هل يحدث هذا عندما يتبع الشبانُ البنات من طرائد لعبة دنقري إلى الغابة، أم إنهم يجسرون على التوغل في أسرار الأجساد المتلهفة؟ لا أعرف؛ فالحكّامة منعتني من اللهو الفاحش، ولم تمنع حلم التحاضن من زيارتي نائمةً، يمر الحلم مخجلاً، فإذا استيقظتُ تذكرتُ أن الفتى ما زال طفلاً، "آدمو" الصغير لا يجدر أن يكون بطل أحلامي الشريرة.

يخترق اللون العشبي المزرق حياديةَ الفضاء والأرض الترابية بصورة فاضحة، تتراقص الألوان في عيني "آدمو" ناتئة على سطح مستوٍ، لبؤبؤي عينيه الواسعتين خضرة عميقة، مشطبة بسواد طفيف، محاطة بهدب كث طويل، كما لو كان زناراً حول العين، ولعينيه لمعان مذهل، يخفق قلبي بلا هوادة.

فضاؤنا أغبر كالح، عاطل عن اللون، إلا أن النسوة يبالغن في ألوان أثوابهن، تقول جدتي الحكّامة إنهن يعوضن ما فات جداتهن اللواتي اكتفين بحبل الرهط وحجارته المشنشلة.

أمي الكئيبة المتحفظة في شتى الأمور، تفضّل اللون اللبني بزرقة السماء، ولا تمانع إذا تخللته أزهار صفراء وحمراء كبيرة، ألوان ثيابها مختلطة لكنها باهتة دائماً؛ كأنها عتيقة، تموت جرأة اللون في عتق قماش ثوبها المهبل بهبال الخشب والفحم والنار ورائحة الطبيخ، بينما "حَوّا" الزرقاء كالليل، أم "آدمو" التي تقاربني لوناً، تجلب أثواباً زاهية بألوان صارخة، تقتنيها بتفحص حريصة على جدتها، تلف جسدها بقماش شفاف ملطخ بجرأة؛ صفرة مشوبة بلطشات من أحمر، خضرة فاقعة، بقع بلون معجون الكركم. تفلت "حَوّا" ثوبها لينسدل عن كتفها إلى تحت نهدها مبرزاً الصديري المشدود معرياً الكتف، كما لو كان الأمر يحدث صدفة، ملعونة أم "آدمو"، لا شيء معها يحدث صدفة. هي "ست الشاي" كما

يسمونها، تقرفص في السوق بإبريق الشاي والكاسات في زاوية ظليلة، تحت سعف تنصبه بين جدارين، تبيع الأكواب الساخنة للمارين، يشع الضوء حين ينزلق ثوبها عن فتحته الواسعة عند الصدر، واسعة إلى حد مراوغة ثدييها المكتنزين للناظرين، يلمحون استدارتهما على الصدر الفسيح ولمعانهما برهة ثم يغيبان إذ تشد الثوب معدّلةً قماشه فوق الفتحة بحركة اعتيادية متكررة. تقتنص العيون الجائعة ولا تتردد في شتم من تطلع أو أتى بحركة تَعدُّها تحرشاً.

لم أرتدِ الثوب الذي يلف الجسد كما النساء، ليس بعد، تجلب أمي ملابسي عن طريق اليماني الذي يحضرها من سوق ليبيا في الفاشر أو نيالا، بلوزات واسعة، وأخرى ضيقة، وجيبات قصيرة أو طويلة زاهية، أحياناً منفرطة الأطراف، تعدلها بالإبرة والخيط، وقد أحظى بفستان كامل فيه زهور وفراشات ومربعات ودوائر، أفضّل أيضاً الألوان الزاهية، وإن كان لا يعوّل على ما أفضّله، فأنا أرتدي ما يأتونني به، لكني أفرح حين يأتون باللون الزاهي، هكذا أختلف عن "آدمو" الذي غالباً ما يكتفي بالبنطال والفانلة الداخلية، وقد يرتدي قميصاً أحياناً، لكن ألوانه محايدة، هو ولد في كل الأحوال، وإن كنت ألاحظ فرحته حين تبتاع له أمه قميصاً إفريقياً مشجراً تتفجر فيه غابة مزهرة، إنه مثلي يعشق الألوان، لكنه في الأغلب يرتدي ما يتوفر له.

يتوفر لنا الكثير، ثياب ملونة، وأحذية خفيفة تكشف أصابعنا، بات من المهم ارتداء مركوب جلدي، فلقد كبرنا وصرنا نغادر الحوش، لا ترتضي الحكّامة بمشينا حفاة، تقول إن هذا لا يليق بأولاد الخلاوي الذين سيصيرون علماء الناس، تجملني وتجاملني كما لو كان ذلك ممكناً، متناسية أني أنثى، لعلها تراني وعداً بحكّامة شابة، لكنها مخطئة، ليست لي حكمتها، وفيّ من نزق الطير الكثير.

تتوفر لنا أشياء لا عَدّ لها ولا حصر، أحذية وثياب، وفرح وضحك، وفضاء مفعم بالروائح والأنوار والألوان والأصوات.

لا تنقطع الروائح الزكية من حوشنا؛ على فقرنا. فأمي تتاجر بما تطبخ، رائحة الملاح الأخضر مفضّلة عندي، في منتصف النهار حين يكاد العالم ينفجر تحت سياط الشمس الحارقة، يروق لي ملاح "أم ظمتا" المعد من البطيخ، عند المساء، أعدّ بنفسي ملاح "كركنج" بطبخ أوراق الكركديه، أحب لونه الأحمر ورائحته الحلوة، وأستلذ بمص حبات "المديكة" الصفراء الكبيرة، لاحسة حلوها الحامض في لساني.

يفضّل "آدمو" رائحة زفر ملاح الشرموط الأحمر الذي فرك فيه اللحم جيداً، وملاح الزجني الحبشي بشطة الدليخ الحادة الحارة التي تلسع لسانه، لا أحب رائحة العصيدة رغم أني آكُلها، تفوح بتعفن عتيق؛ يمكن تناسي تلك العفونة لنفاذ روائح أكثر حدة. رائحة الهواء الساخن، وخشب العنقريب المشدود بالحبال الذي ننام فوقه، شذا الدخان في الحفرة التي تتبخر فيها "حَوّا"، وفوح معجون الدلكة الذي تعجنه أمي في كتل بنية مخضرة وتقسمه إلى أكياس تبيعها لنسوة الحلة، تعبق الدلكة بجنون حين تفرك "حَوّا" جسدها ليفتح لونها وتلتمع بشرتها.

أشم رائحة الشمس، تصلني رائحة الشمس البعيدة من كبد السماء، أحب أيضاً رائحة المطر المنهمر باعثاً صهد التربة محرضاً التراب على نفث أريجه، يهطل المطر فيفقع قلبي فرحاً، أجري بين الرشاشات التي نفرت من الأرض لتمنحنا وعداً، أتمنى لو استطعت تعليم الفرح لأمي، ولكن ذلك دون المنال، إنها سد حجري كئيب في وجه كل انفعال.

لكل ما حولي روائح حادة: الطعام، التبغ الذي يدخنه "سالم"، الحنة في كف جارتنا العروس "تاجوج"، الشمس، الهواء، الجلد، الخشب، التراب، ناهيك من الرائحة النفاذة التي تنبعث من برازنا حين يحمل الفتى "كنج" صفيحة الخراء الذي جمعه من بيوت الراحة في القططاطي، ليسكبه وراء الجبل؛ تواكبه في رحلته اليومية أسراب الذباب الأزرق والحشرات الطنانة، ويتبعه الصغار هازئين:

- *أبو عفونة.. شطة بليمونة.*(*)

كنت أنضم للصغار إلى أن منعتني الحكّامة، وبت استحي، وبدوري منعت "آدمو" من الانضمام إلى جوقة السخرية.

يتناوب الإنسان والطبيعة على تفجير الرائحة في حلتنا الخَرْبَقَة؛ كما تتناوب العتمة والضوء.

الحياة حولنا مضاءة بسياط من نور تخترق العيون والأجساد، للشمس ضوء حاد، قارص، ناصع، مباشر كنصل السيف، قد يتكسر بين أغصان الشجر القليل، ثم ينفلش فوق الكون، فتكون هناك ظلال تنبعث منها أطيار ضخمة ترف في مخيلتي، وبنات يلعبن، ونسوة يدفعن أجساد عشاقهن، أحتفظ بما أراه في الظلال لنفسي. إذا ودعتنا الشمس تركت غبشاً في نواظرنا تتراجع فيه الرؤية. يقول "باسالم" إن هذا مرض يصيبنا لعدم تناولنا الخضار بكثرة، أيّ بطر يفكر به الرجل العربي زول الدكان! فنحن نتناول ما يكفينا ويشبعنا.

يتخلل ضوءُ القمرة السماءَ الحالكة ليلاً كما البلل في القماش، هين مُتَفشٍّ لكنه واضح، وإن ضعفت قدرة أعيننا على إدراك المحسوسات حولنا، نصغي بانتباه لمعزوفة الأصوات الغامضة.

(*) كناية عن صاحب الرائحة العفنة الذي يتم تفادي شمّه بمص ليمونة مغمسة بالشطّة.

صفير الريح، وسكون الهواء. للصمت صوت مخيف، قد يصير أليفاً أحياناً.

لحلتنا صوت مميز: ضجيج الصغار، وزعيق النسوة، صمت المغربية وسكينته، وشيش المقشات تجرد الحوش قبل شاي العصر، جرة مركوب الشاعر "السر" البطيئة وهو يمر مثقلاً أمام البوابة، نباح كلب على أحد المارة مساءً، غياب صوت الكلب رغم وجود المارة عند الظهر، أنفاس الكلب الرتيبة اللاهثة بوهن وهو منبطح على بطنه يعانق رطوبة التراب، يستجلب البرودة من باطن الأرض التي يغلي سطحها تحت سياط الشمس، ارتطام قطرات المطر المدورة الكبيرة بالقطيات والأبواب الحديدية الصدئة، تسارعها ثم سحها على سور الطين الذي يحيط بمساكننا، وتبعثرها فوق شظايا الزجاج المتكسرة والمزروعة أعلى السور حصناً لدخول المتطفلين، بلل الماء على رؤوس الصغار وأثواب النسوة التي تلاصق أبدانهن، وانفلات القطرات فوق الأوعية الجلدية والحديدية، أو تجمعها في باطن القرعات المجوفة والأزيار والقلل.. صخب يحدثه الكون حولنا، كما لو أنه يغني ويضرب النقارة فرحاً.

ثم في المحل تموت الأصوات، وليس في الأفق إلا صمت الترقب.

يغلب على حوش الحكّامة حيث قطيتنا وقطية "آدمو" وأمه، لون ترابي في كل الأشياء، في العنقريب، ومقعد البمبر الصغير المخصص للجلوس. بينما ينفرش لون قرعي فاقع في الشرشف الذي يجلل حبال العنقريب، زهرات كبيرة لها لون مسحوق الكركم أو قلب حبة المانجا الناضجة، وزهرات الكركديه، وبتلات مغلقة على مشحات خضراء كأنها طيف الغابة الداكن. في الأعياد تغير "حَوّا" أو أمي مفرش السرير ليصير أحمر قانياً، محاطاً بصفرة كثيرة كأنها فضاء المفرش.

ثياب الحكّامة في الأغلب بيضاء، وهي لا تقوم بالتغيير إلا في متشابهات عاجية، تحفظ لها هيئة ثابتة.

تأمر الحكّامة بقش الحوش عند العصر، في الغالب تلك مهمتي، بينما تجهز أمي البنابر(*)، وقد تجر العنقريب، فتصنع جلسة دائرية، ليلتئم جمع الصحاب اليومي، ويكون صخب وتبسط، تدور أحاديث جادة، يخرجون منها سريعاً أو يمزجونها بالمسخرة والضحك.

نفوسهم بريئة وقلوبهم بيضاء، لكن رؤوسهم تكتظ بالسخافات التي تعترض الحكّامة على المغالاة في بحثها، يميلون إلى الصور الإباحية، يستمتعون بالتشبيه والتمثيل والوصف الدقيق المضحك، يحكون عن مغامراتهم عندما يلعبون لعبة "دنقري" التي ذاب لسان الحكّامة وهي تذمها، "ابرة ودر، دنقري كوسي".(*). تنحني النسوة ويتحركن في مرح متظاهرات بالبراءة والانشغال بالبحث عن الإبرة المفترض ضياعها، تتكور مؤخراتهن الصلبة عالية، وتدب الحماسة، فيلاحقهن الشباب العزابة، يتصيدون مَنْ خانتها قدماها؛ يتراكبون، ويضحكون.

حتى عم "باسالم"، أو كما يسمونه: "أب سالم" أو "سالم العربي" أو "اليماني"، الذي يتظاهر بالدماثة في حضرة الحكّامة، لا تعوزه الفكاهة حين تسرد القصص الجنسية، يضحك باقتضاب سريع، بينما ترخي زوجته "الثومة" فكها ببلاهة. أيضاً؛ لا تستحيي "حَوّا" أم "آدمو" من الضحك، رغم أنها امرأة فتية يدخل كل ما تقوله في باب العيب، لكنها لا تعرف العيب. يشخر زوج "تاجوج" الشين(*) "بخيت" بضحكة رقيعة مستخدماً ذراعيه لتوصيف المشاهد، ويكاد يفقد الوعي لضغط لحمه

(*) مقاعد صغيرة من الحبال

(*) ضاعت الإبرة، دنقري "انحني" بحثاً عنها

(*) القبيح

ودهنه على رئتيه عاجزاً عن التوقف عن الضحك، تختفي عينا "تاجوج" الضيقتان عند الضحك، بينما تغطي فمها؛ تدعي الخجل لترفع غويشاتها الذهبية في وجوهنا، وتخفي أسنانها المتراكبة ولثتها العريضة، تكتم كركرة ساذجة بكفها المخضبة بنقوش الحناء.

كلهم؛ تتلذذ أسماعهم وألسنتهم بالكلمات العائبة السفيهة، ينخرطون في نوبة ضحك جماعي تقطع أنفاسهم وتخفق نبض أفئدتهم وتدمع عيونهم بلا توقف، لمجرد أن يذكر أحدهم مزحة خبيثة أو كلمة نابية، حتى "زينب" العميانة تضحك في زاويتها، ثم بعد ذلك ينظرون إلى الأطفال متنبهين ومنبهين. بالنسبة إلي كان الأمر شخصياً؛ جاداً ومحرجاً.

نعم؛ تحرجني ضحكاتهم الماجنة، خصوصاً إذا تعلق الأمر باسمي، بعض العابرين والتجار والخواجات يلفظونه "أبنوس"، لكن ناسنا لا يخطئون به، يلفظونه باسترخاء "بابَنوس". يبدو اسماً للتدليل، أو وصفاً جمالياً لبشرتي التي تضاهي بحلكتها صفحة السماء السوداء في منتصف الليل، ويحاكي لمعانها التماثيل المنحوتة بعناية لوجوه إفريقية يفج النور من سوادها، تباع مثل تلك التحف للخواجات والتجار القادمين من أم درمان بأثمان باهظة، أغلى من تحف العاج الوهمية المصنوعة من عظام الحيوانات المحفوفة.

ربطتني القرابة بشجرة البابَنوس التي تحمل اسمي، تلك التي تكثر في كردفان وعلى سفح جبل مرة، وتطول إلى عشرة أمتار، وقد تقف على أكثر من ساق، في الساق الكبيرة تحديداً تخفي أسراراً تشبه أسراري، إذ يكون اللحاء رمادياً يميل إلى مشحة بنية، مثل لون جسد أمي، بينما قلب الساق أسود حالك، مثلي.

يقفز أصحاب الحكّامة الذين يتونسون كل مساء على دكتنا عن كل تلك المقاربات المنطقية، ويذهبون إلى وصف لئيم، يقاربون بين حال

الشجرة وكيفية تشكلي وولادتي، حين انشقت أمي عني؛ تصوروا عرضاً لولادة الأبنوس الذي يتسابق عليه التجار العرب والخواجات، يتجاهلون ارتباطه بالبقعة التي جاء منها أبي "بابَنوسة"، أو يحمل دلالة ولادتي ملونة بزرقة غامقة من أم رمادية أميل إلى الحمرة، ويجدون لهم سبباً مغايراً مخجلاً، يقولون: إن أبي الهائل الأسود احترق، ثم انتفض داخل كهف البنت البنية الضيق المعتم، وبذرني لأخرج على هيئته؛ سوداء لامعة صلبة منتصبة. وهكذا فإن جذع شجرة الأبنوس البنية التي تحاكي لون أمي الكاكاوي الأقرب إلى حليبية ثمرة العرديب الغضة قبل أن تجف وتيبس، حفظ في قلبه كما الشجرة، جسداً أسود، هو أنا. عتمة جلدي لم تحرجني، وإن أحرجتني النكات والتعليقات البذيئة، تزجر الحكّامة المازحين وتمنعهم من التفوه بتلك الحماقات على مسمع الطفلة، فيمتثلون، ولكنهم قد يعاودون المزاح الفج نفسه في أيّ عصرية مقبلة.

الذي لا تعرفه الحكّامة ولا أجرؤ على الاعتراف به أمامها، أنها تأخرت في منعهم وضبطهم، أو تهاونت ولم تكن حازمة تماماً كعادتها، فقد فهمتُ مغزى الصورة في وقت مبكر عما هو متوقع من صغيرة مشت للتو على قدميها. عندما توقفوا عن أحاديثهم تلك، كنت قد اكتفيت بالصورة وفهمتها، ربما لهذا لم أشعر بالحيرة مثل البنات والصبيان الذين يجهدون في البحث في مخارج أجسادهم ومداخلها، وثقوبها وانتفاضاتها، عن سر مجيئهم إلى الحياة، أعتقد أني وعيت على الكيفية المعقّدة من دون أن أسأل أو أجرب أو أحتار، بل يصيبني يقين جنوني لا أبوح به لأحد، بأني أتذكر لحظة تشكلي في قلب الكهف السري لأمي، أتذكر شعوري وهي تتلقفني نطفة لتصنعني على ما أنا عليه.

دخل أبي الأزرق الإفريقي أمي السمراء العربية المخلطة بدم أوروبي، فجئت نتاجاً منحازاً إلى دمه ولونه، هذا ما تبقى منه فيّ.

عندما فهمت بعضاً من طرافة الأمر، لم أنزعج، تصورت لوهلة استحالة أن يكون هذا الحدث الصاخب قد عصف بجسد "ست النفر"، أعني أنْ تضاجع رجلاً، أو أن تلد طفلاً، ولكن هذا ما يقال.

أنشغل عن أمي بشجرة البابَنوس، أستقصي المزيد من أوجه الشبه بيننا، زرت كردفان مع أمي والحكّامة قبل عامين حين خرجنا في مهمة معلنة طلباً للحطب، لم يرافقنا "آدمو" إذ احتبس في قطية أمه يتعافى من جرح ختانه.

أضمرت أمي في قلبها أمنية لقاء أبي، مع أنها قليلاً ما تتمنى، لم يستجب القدر لأمنيتها، واستجاب لرغبتي الدفينة في رؤية شجرة البابَنوس التي يسميها البعض الأبنوس. تنشطر ساق الشجرة إلى أكثر من عود، لوني الأسود خفي في أعماقها، رأيت أوراقها مثل الريش الطائر، وأزهارها مثل أجنحة فراشات بيضاء مدلاّة في عناقيد تفوح عطراً نشرَ شذاه في الفضاء، وتذوقته في سقف حلقي، وجدت روحي معلّقة هناك، وأحلامي تطير مع حفيف الورق الريشي الأخضر، كأني ألمس دمي في دم الشجرة، رأيت لروحي أظافر مدببة سنينة؛ كما فروعها تنتهي بأشواك مشرعة، ورأيتني أفيض جمالاً لا حدود له؛ كما ثمرتها؛ قرن مسحوب ينساب عند الطرفين. يليق بي اسم "بابَنوس".

تقع قطية الحكّامة في حوش واسع مزود بساحة ترابية مسوية ومرتفعة تجمع الناس فيها نسمّيها "الدكة"، تصطف قطيتي أنا وأمي وراءها مباشرة، تليها قطية "حَوّا" وابنها "آدمو"، في الخلف حجرة طينية هي المستراح الذي نستخدمه بيتاً للخلاء، في موازاتها شبكنا الأخشاب وعيدان القصب في بقعة خُصصت لإيقاد الفحم، واصطفت بها حلل الطعام حيث التكل؛ مطبخنا المشترك، وحيث يمكن للعنزات شم رائحة مُلاحنا وعصيدتنا، كما ترانا الحمارة "ترترة" من مربطها ونراها.

سمّوا حمارتنا "ترترة" لأنها وصلتنا لإرضاع الصغير "آدمو" مذعورة، تضرب الأرض بقدميها متفلتة إلى الوراء بحركات مضحكة متتالية، ترجع بانتظام كأنها تفكر في الفرار، تشبه حركتها رقصة العروس؛ "الترترة" إلى الوراء. لبق عليها الاسم ولبسها، عندما تحرن ترقص ترترتها. تنظرنا "ترترة" بتفهم عميق، وتشاركنا معظم طقوس يومنا، حتى عندما نتحلق للحديث أو للاستماع إلى حكاوي الحكّامة، فإن "ترترة" تطرطق أذنيها وتسمع بانتباه، وقد تنهق بانسجام وتكرر نهيقها فتضحكنا.

تسكن عائلات الخَرْبَقَة في حوش واحد إذا جمعتها القربى وصلة الدم، وتسور حوشها بأعواد البوص أو سور طيني، ومثلها فعلنا؛ بنينا لنا حوشاً وقطيات داخل سور، وكانت لنا مساحة من الأرض مشتركة نزرعها، وتقاسمنا ما تأتي به تجارة أمي وتجارة "حَوّا" المتقلبة وفق المواسم، صنعنا من أنفسنا عائلة؛ كأن لنا دماً واحداً، هو حبل الحكّامة الخفي المتين الذي يربطنا، وإن كانت الحكّامة نفسها امرأة مقطوعة، لا أب أو أم أو أخوة، ولا زوج أو أبناء، مع ذلك؛ كنا عائلتها.

عندما ينفضّ الغرباء الذين يرجعون إلى الحكّامة في حل مشاكلهم العويصة، ويخلو الحوش والدكة الحجرية الخاصة من المتشاكلين الذين يستشيرونها ويحكمونها، ومن السادة والأعيان الذين يقرضون الشعر، ويناقشون أحوال البلاد في العاصمة البعيدة أو الولايات القريبة أو الخَرْبَقَة، يتجمع الرفاق المقربون يحتسون الشاي والكركديه عصراً، يشكّلون المجموعة المقربة نفسها التي لا تخلو أمسياتنا منها بتاتاً: "باسالم" وزوجته "الثومة"، والعروسان "بخيت" و"تاجوج"، أحياناً تنضم إلينا العجوز العميانة "زينب"، تجلس مقرفصة جانباً تسمع؛ وقد تضحك من دون إصدار أي صوت، لا يمنعها صمتها من مناداتي بصوت عال حين تلح عليها مثانتها؛ تطلب مني نقلها إلى المرحاض، ويضحكون، حينها

أنزعج وأكشر؛ ولا تراني، أرفعها مُتّقية غضبة الحكّامة وتأنيبها، أرافقها إلى خلوة المستراح، الكنيف، وأقف بالباب حتى تنتهي وأعيدها إلى جلستها المضجرة بالنسبة لي والمسلية لها حيث تسمع أخبار الدنيا من الجالسين، بالطبع لا تخلو الجلسة بتاتاً من أمي و"حَوّا" و"آدمو"، أحبهم جميعاً رغم أن ما يقولونه عن أبي الغائب بات يزعجني.

أبي لم يهجرني، قالت لي الحكّامة:

- *ما تسمعي الكلام، أبوك زول حر، من البقارة.*

عرفت أمي أن الزعيم الأزرق "ماديو" الذي مر بالخَرْبَقَة بأبقاره بحثاً عن الكلأ، لم يكن قادماً ليستقر، لكنها رضيت بتلك المغامرة المجنونة، فقد جن بها جاهلاً أمر مرضها والإغماءات التي تصيبها، فتنته وفتنها، أو أثار مشاعرها، ربما جعل جلدها المعفر بلون السكن يقشعر، وربما.. وربما.

قيل لي إن الحكّامة عاندت في البداية، لم ترغب بإتمام الزواج؛ لكن أمي حرنت وصَمّتْ أذنيها عن قلق عرابتها، وعن النقاش الطويل مع أبي، اتخذت قرارها، وكما أرادت؛ كان.

يقسم الشين "بخيت" الذي كان صبياً يافعاً حينها، أن صوت أمي هز القطية وعم صراخها القرية كلها، فقد كانت مختونة ضيقة، وكان الرجل وحشياً، وضع بذرته ومضى.

عاود "ماديو" المجيء لمرات في زيارات متقاربة في البداية، ثم تباعدت. عندما وُلدتُ، جاء أبي ورآني؛ أهداني حُلي ذهبية وفضية خبأتها أمي، أعطتني الحجل الفضي عندما أخضعوني لبتر أعضائي في الختان، فتلهيت بنقوش الحجل الجميلة عن وجعي، ولم يلهني، لا رغبة لدي لتذكر ذلك الألم.

تناسيت ألمي القديم، وإن عاودتني الكوابيس، لكنها ليست بالأمر المقلق، مجرد أسئلة حول ما قطعوا وما أبقوا وما خاطوا، وهل لذلك القطع

أن يجعلني امرأة ضيقة تموت إذا ضاجعها ذكر أو ولدت طفلاً؟ تجمع المتهامسات من النساء أن الختان إجراء احترازي كي لا أسلّم جسدي لنضج الشمس الحارقة وإغوائها، ولا أفكر في الرجال. في بقعة سرية في أعماقي، عرفت أن عقلي إذا ما انفلت فلن يفيد ختانهم، تصرفت في خيالي مثل بنت غلفا(*)، وشعرت بالغيظ والغيرة وهم يغنون في ختان الولد "آدمو"، الذي صيره ختانه ذكراً فحلاً.

تباعدت زيارات أبي، في زيارته الأخيرة أحضر "حَوّا" وتركها بيننا ورحل ولم يعد. عندما اكتمل وعيي.. فارقه أبي؛ "ماديو"، وأظن أن أمي لم تعد تنتظره، لا أتذكر هيئته التي لم أرها، ولكن أرسمه في خيالي على ما وصفوا، كأني أتذكره أو أعرفه، أشياء كثيرة في حياتي اعتمدتُ فيها على ما قالوه لي، تذكره "حَوّا" بالخير فهو منقذها، كثيرون ظنوها تحمل جنينه، وأن ذاك الجنين المنتظر أخي، ولكن زرقة عيني "آدمو" المشوبة بالاخضرار أطاحت بظنونهم، ليس ابناً لـ "ماديو" الغائب؛ ربما كان لواحد من الرجال البيض الذين عاشرتهم "حَوّا" في مخيمات الإغاثة فترك دليلاً منه في عيني الفتى.

لم أسمع أمي أبداً تلوم دهرها أو تحتج على غياب أبي، بدت أيضاً ممتنة، ربطت بين ظهوره في حياتها وتراجع مرضها ونوبات الإغماء الحادة، باتت أميل إلى حالات غياب صامت معقولة ومقبولة، وبدا منطقياً جداً أن غريباً غامضاً مر في المكان، وترك فيها بذرة، ثم مضى، وها أنا؛ البذرة، تنمو.

لم أرتَدِ أثواب النساء الزاهية التي يلففنها حول أجسادهن، ليس بعد، أفضّل ملابس البنات التي تمنحني حرية الحركة، ولا تكبل ذراعيّ وقدميّ، أفضّل ألاّ ألتحق بفئة النساء سريعاً، وإن كان مشاط شعري

(*) بنت لم تُختن

الأكرت الخشن بضفائر المسائر الصغيرة، والتي شبكت في نهاية كل مسيرة مضفرة خرزة ملونة.

أعلن نهداي عن بلوغي، إلا أني ما زلت طفلة في تقدير الحكّامة، وفي أعماقي.

النسوة محبوسات في أثوابهن، في حلل المطبخ، في مهامهن الكثيرة، أثداؤهن مشرعة لرضاعة الأطفال، وأيديهن منشغلة بإتمام الأعمال، ودموعهن إما محبوسة قهراً كأمي، أو مكابرة كالحكّامة، أو مطلقة بحماقة كـ "زينب" الحزينة و"حَوّا" الشكاية، أو مصاحبة لغنج رقيع كـ "تاجوج". الطفولة تعفي الفتاة من الوقوع في كل تلك الفخاخ المنصوبة على امتداد العمر، ولكن! هل تطول الطفولة كما أشتهي؟

مجموع النسوة اللواتي يحطن بي متفقات على حرماني من طفولتي، منشغلات بتغيير معالمي كما يفعل جسدي الذي يتمرد على ركضي النزق عند النيل، ألحق بـ "آدمو" ضاحكة مهرولة، وفجأة أنتبه إلى ترجرج صدري، أكبح اللعب، وأتوقف تماماً. أرفع ذراعيّ أحيط صدري أخفي خفقه وبروزه، وأضع كفي على فمي، أداري وأخفض ضحكتي حتى تتلاشى، ثم أدّعي التعب، وأجلس عند الماء، أدلّي قدميّ أبحث عن طراوة البحيرة الصغيرة وبرودتها، أصمّ أذنيّ عن احتجاجات "آدمو" على توقفي عن اللعب، بات ينعتني بالثقيلة السمجة، وأتجاهله.

لست سمجة، في الواقع أنا خفيفة الروح، أقرب إلى خفق جناح الفراشات الملونة في الغابة، أرف ولا أُحْدث صخباً، أشعر بتفردي، ليس على طريقة أمي التي تحب العزلة والعيش في عالم بعيد عنا وإن كانت معنا. أتعامل مع عقلي بحذر؛ أخاف تشريع منافذه وفجواته وأبوابه فيقع فيه من عقول الآخرين خلط كثير، أقف على تلك البوابات حارساً، أوارب الباب لأمي، وأتفادى "آدمو"، وأغلقه أمام "حَوّا"، وينعدم

التواصل دائماً مع "تاجوج"، وأفتح نافذة صغيرة لبكر ابن اليماني؛ فهو يعرف أشياء مذهلة أحب أن أعرفها، وكل مداخلي مشرعة للحكّامة، إنها أم روحي وعقلي، لها وحدها أتيح الدخول بلا قيد أو شرط، ولها وحدها أسمح بتشكيلي وتغييري، وأكشف محبتي للحياة وإرهافي السمع لإيقاع الكون، وأعرف أنها تقبلني وتفهمني، وإن ضقت بأوامرها ونواهيها التي تنسبها إلى القرآن كثيراً، وإن أخلفت ظنها وأمانيها بأن أصير حكّامة الخَرْبَقَة المقبلة.

تأخذني الحكّامة في حضنها وهي تحكي تفاصيل حكاية "تاجوج" و"المحلّق"، أو "الهلالي" أو "الملك نمر" و"مهيرة بت عبود" والمهدية والسلطان "علي دينار".

تفلتني لتدق الدلوكة دقة عالية يشوبها الفرح، أقرفص مقابلها فتبرق عيناها الصغيرتان بمحبة، تغني وتغنج الكلام بانسجام:

- *آلّ بعده يجنن.. آلّ قربه يحنن..*

الهيّن الليّن.. وديع وحنيّن.. شغل بالي.

صوتها المتعجل الطروب يخترق الهواء مثل صفير عبقري، أتمنى لو أعشق من يجنّني ويحنّني ويشغل بالي، حتى لو حمتُ في السكك مثل "السر" عاشق "تاجوج"، لا أبوح بأمنياتي وأطوي سر اشتياقي إلى الوله والغرام، أمنح نفسي لرعاية الحكّامة التي تضمني إذا عرجت على تذكر الحكايات العتيقة عن خطف الصغار من القرى وبيعهم في الزرائب خدماً وعبيداً، لكنها تمسك بيدي تمسدها وتهدهدني وتمسح كتفي إذا حكت حكاية شجرة الموتى.

شجرة الموتى ليست حكاية بالمعنى الدقيق، إنها فكرة تسكننا وتهيئنا للموت القادم على جسد كل منا، أما بقية الحكايات الممتعة فإنها تتتبع ما قام به بشر عاشوا وراحوا، ويمكن للحكّامة إضافة تفصيل جديد في

كل مرة على حكايتها، فتصورها بتشويق بالغ، كما تنظر إليها من زاوية مغايرة عندما يختلف النفر السامعون، حتى الألفاظ المستخدمة في السرد تتنوع وفق طبيعة السامع، فالحكّامة تدرك الفروق بين الناس، الذكي والغبي، الكبير والصغير، الأنثى والذكر، حتى المتعجل والمتأني، تعطي لكل قدره وحقه، للحكّامة القدرة على الإمساك بريقنا حين تتحدث.

لا يُسمح لنا بالابتعاد جهة الغابة، إذا شاهدتنا أمي نسير في ذلك الاتجاه يركبها جن، أظنها ترجح حدوث اختطاف من قِبل الناس البيض، أو أعوانهم أصحاب الزرايب، تهمس لي أن جدتي حُبست في الزريبة مثل العنزة لشهر قبل أن تباع لأصحاب العيون الزرق، ولكني وقد بلغت السادسة عشرة لم أر زريبة واحدة، ليس هناك زرائب تبيع الناس إلا في مخيلة أمي، عقلها مشوش، ولسانها معوج، في الليل تتحدث بلغة الكفار "البرغال" الذين ابتدعتهم، وتنسى نهاراً، وتهجم علَيّ تشد مسائر شعري وتوجعني إن أخبرها أحدهم أني اقتربت من الغابة، "آدمو" ود "حَوّا" أكثر جرأة مني رغم أنه يصغرني بعامين؛ لأن أمه أكثر شجاعة. يشعرني بالغيظ وهو يتباهى بدخول غابة الهشاب فيجمع الصمغ أو يحتطب، يعود من الغابة تلتمع بشرته بعَرَقه مثل سماء حالكة، وأقيس بناظريّ اكتناز عضلة ساعده؛ تلتف وتكبر متكورة أكثر في كل مرة. أحب ما تفعله الغابة به، وأحلم أحياناً بالهروب إليها.

كل البنات يذهبن للاحتطاب، هو عمل نسائنا أولاً، ولكني وحدي مستثناة، سأظل أحلم بالطيران مفلتة من تعاليم حكّامتي ومخاوف أمي، المكان الوحيد الذي لا يمكن لأمي الاعتراض عليه وإن كان مشواره بعيداً؛ يأخذ جل يومنا، هو المدرسة. بمباركة الحكّامة وإصرارها، منذ أعوام ونحن نخرج فجراً، أنا و"آدمو" و"ولد الشفيع" و"مريم" النحيلة أخت "الثومة" والصغير "سيف" ولد "باسالم"، نرتدي أفضل ما نملك من

ثياب، يرتدي "سيف" و"ولد الشفيع" بناطيل زرقاء وقمصاناً بيضاء، ثيابنا أنا و"مريم" رثة قياساً بهما، لكن على أقل تقدير ثيابي نظيفة وثيابها متسخة ملطخة زيوتاً وشحباراً وبقايا أطعمة، يرتدي "آدمو" ثياباً مجنونة، يخبئ لمشوار المدرسة قمصانه الإفريقية المشجرة التي تنسدل أردانها حتى المفصل، ولكنها متسعة تسمح للهواء بالتسلل، مع ذلك تفوح رائحة عَرَق إبطيه، ينقلب قماش قميصه ويتكوم عند كتفيه إذا رفع ذراعيه، عندها أرى التكور القاسي في أعلى زنده.

يرافقنا في رحلة المدرسة "أبَّكر".. هو قائدنا، إذا لم يتسنَّ له الخروج معنا، فإن الرحلة تُلغى، لم يصب "أبَّكر" العربي بالعشى الليلي مثلنا، يستطيع الرؤية بوضوح حتى في العتمة، يحرص على قيادتنا إذا داهمنا المغيب، ويرصد من لم يساعده نظره، كي يوعز لأبيه بعد ذلك مد قطيته بالخضار.

لا ننتظم في أيامنا المدرسية في الضعين، ولم تعين فصولنا ولا انتهينا من مرحلة لننتقل إلى أخرى، ولا أَجَدْنا العلوم إلى حد القول إننا تعلمنا وانتهى الأمر، فالطريق بعيدة و"أبَّكر" قد ينشغل عنا، وهناك مواسم للمطر والخطر، تصير المدرسة رفاهية نشتاقها حين يأتينا خبر بانتشار مسلحين على الدروب.

تُعلّمنا معلمتنا في الضعين ما بدا لها، ونحضر إلى المدرسة إذا تسنى لنا ورغبنا، أو أُرغمنا من الحكّامة، وللحق فإني أمَلّ الجلوسَ أرضاً على الرمل الحار القاسي، وأنا أحمل دفاتري وأقلامي الخشبية وأتابع المعلمة الواقفة أمام السبورة السوداء التي خط فوقها بالطباشير عبارة مفروضة من الحكام يُمنع مسحها، تمحوها الريح أحياناً فتعيد المعلمة تثبيتها بكف رخوة إذا لمحت اقتراب أحد المفتشين: "إن الدين عند الله الإسلام، ومن ارتضى غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه".

أفضّل دروس الحكّامة التي يتخللها الضحك ويُسمح فيها بالأسئلة، كما تختتم بالحكايات الخرافية التي تفوق الواقع لذة وتخترق الصدر وصولاً إلى القلب كما لا تزول من الرأس.

تقع المدرسة على مشارف بلدة الضعين لا في داخلها، يأتي تلاميذها من أماكن بعيدة مثلنا، بعضهم لا يملك دفتراً ولا قلماً، يتشارك معظمنا الكتب العتيقة المهترئة. في طريقنا الطويلة الموحشة التي نسلكها فجراً لنصل قبل انتصاف النهار بقليل، أتسلى بإغاظة "آدمو"، أو بالاستعلاء على "مريم" العويرة(*)، وقد يتحدث "أبّكر" عن رحلته إلى الضعين والتجارة التي يروم في ذلك اليوم، ينبهنا إلى إعلام أهلنا بالبضائع التي سيعود بها ثم يتركنا عند سور حوش المدرسة القصبي. نصل متأخرين دائماً؛ تقول معلمتنا "فاطمة" إننا فوتنا درس الحساب والإنجليزي، ولحقنا حصة الدين التي تكون الثالثة انتظاراً للأولاد الذين فوتوا الوقت بشرب المريسة(*) في بيوتهم، نحن فات منا الوقت على الطريق، وافتتحنا يومنا المدرسي بالدِّين ثم درس العربي فالجغرافيا، في المرات القادمة تغير لنا المعلمة ترتيب الحصص، ليتسنى لنا بعض الحساب والإنجليزي. تعرف أننا نذهب إلى الخلاوي ونحفظ القرآن؛ لكنها لا تستطيع أن تفط درس الدين؛ فالكيزان المسلمون، حكام الخرطوم البعيدون، حريصون على هذا الدرس أكثر من سواه، رغم أن مدرستنا حرة نسبياً، تختلف عن مدارس نيالا والضعين النظامية التي تسورها الإدارة المحلية وتجبي من تلاميذها المساهمات لإنشاء الفصول وتزويدها بالكراسي الخشبية.

جاءت معلمتنا "فاطمة" أساساً من أم درمان، ثلث العاصمة الأعرق والأعتق، رافقت والديها إلى النيل الأزرق حيث عمل والدها

(*) البلهاء

(*) سائل شعبي مُسْكر

معلماً قبل أن يحتجّ على جمع التبرعات من الطلبة المعدمين فيقدم استقالته، ثم ينتقل مع عائلته إلى الضعين لينشئ تلك المدرسة المعفية من أيّ تكلفة، ولأن الابنة "فاطمة" أنهت دراستها الثانوية فقد صار بإمكانها أن تصير معلمة تلك المدرسة الهامشية المقامة للطلبة العابرين. هناك مدرسة أخرى أقامتها هيئة إغاثة عربية، يرتدي طلبتها زياً موحداً، يجلسون إلى مقاعد وطاولات خشبية، وينقسمون إلى صفوف وينالون الشهادات، كما أن هناك مدرسة للحكومة في قلب البلدة في سقفها مروحة تدار بالكهرباء، أما مدرستنا فهي فضاء حر، لا ملابس ولا فصول ولا شهادات، قليل من كتب مستخدمة مقطّعة تأتينا به معلمتنا، يمكننا إخراج قرعاتنا الصغيرة وفتح فوهاتها المغطاة بالقش، وشرب الأبريه الأبيض، بينما المعلمة تشرح حروف العلّة، نتسلى بأرجحة أجسادنا نردد وراءها "نشيد إفريقيا" للشاعر محمد محمد علي:

إفريقيا قد طوت الظلام ... وودعت حقباً عجافاً لا تنطقُ

كانت كأهل الكهف إلا أنه ... في كهفها تحسو الأسى فتورقُ

إفريقيا كانت مجاهل ظلمة ... فكأن من خلقوا بها لم يخلقوا

إن الشعوب وإن تطاول ليله ... كالشمس تسري في الظلام

وتحررت إفريقيا من أسرها ... وأنالها الأحرار ما تتعشقُ

يغمغم "سيف" الصغير بالكلمات الصعبة فيبدو أنه يرافقنا النشيدَ، تحرك "مريم" شفتيها بلا صوت، يصرخ "ود الشفيع" ليثبت للمعلمة "فاطمة" أنه أنبهُنا. الجلوس على مؤخرتي لساعات بعد مسيرة المشي الطويلة مرهق ممل، تسمح لنا "فاطمة" بالتناوب في الجلوس في ظل الشجرة الوحيدة داخل الحوش، وتأخذ دوراً لنفسها أيضاً لتتفيأ، كما تراقب حركة الألم الناجمة عن الجلوس، فتسمح لنا بالوقوف والدخول إلى

المستراح إذا رغبنا، أجدها حجة إذا تصلب ردفي جراء الجلوس على الأرض المنبسطة الناشفة المفروشة تراباً أحمر، أتلكع حول المستراح قبل العودة.

نفاجأ أحياناً بمعلم أو معلمة جديدة، سرعان ما يُعجزه حالنا فيختفي وتنفرد "فاطمة" بنا مجدداً، لا يطيق مدرستنا سوى معلمتنا الفريدة الوحيدة، التي لا ترهقنا بطلب دفاتر عديدة وأقلام ملونة، وتجيء بالطبشور على حسابها الخاص. أستخدم دفتري لكل المواد التي تدرّسها "فاطمة"، يشتري "أبَّكر" دفاتر جديدة من الضعين يبيعها لنا في دكان أبيه وتدفع الحكّامة ثمنها، عندما ينتهي "أبَّكر" من عمله في البلدة يعود لأخذنا، نكون جالسين ضجرين عند سور القصب، ينام "سيف" جالساً، وتلتف "مريم" مثل كلب ميت ملاصقة للجدار، أنا و"آدمو" نتماحك، و"ولد الشفيع" يشخر مثل أبيه، يصيح "أبَّكر":

- هووووووه.

نتنبه؛ نتمطى ونقف. يناول كلّ واحد منا حبة دوم دفعت ثمنها الحكّامة، نعضها ونمصها مستحلبين من خشبها العصير الحامض الحلو اللذيذ، نتبعه في أول السكة صامتين، تلحق بنا "فاطمة" وتعطينا كتاباً صغيراً هدية نحملها للسر، تعرف "فاطمة" شاعرنا "السر" منذ كانا طالبين في المدرسة، تحاول التواصل معه لكنه لا يرد هداياها ولو بكلمة شكر؛ فقد جننته "تاجوج" وما عاد واعياً.

متعبون في رحلة العودة إلى الخَرْبَقَة، مع ذلك نساعد "أبَّكر" في حمل الأكياس المعبأة ببضاعته والتي ستصير في ما بعد مشترياتنا من الدكان، نلحق به آملين ألاّ يداهمنا الليل، إذ يبدأ "سيف" في البكاء رغم أنه الوحيد الذي يرى دربه واضحاً ولكن ارتباكنا يربكه، تغيم المرئيات أمامنا، لا أعرف السر في أن "أبَّكر" وشقيقه لا يصابان بهذا العمى

الليلي المؤقت، يحرص "أبَّكر" على أن نمسك بأيدي بعضنا بعضاً، فلا نتفلت من مسيرته، يقودنا مسرعاً إلى الحلة البعيدة، في بعض الأحيان تسمح لنا "فاطمة" بعدم إكمال يومنا الدراسي لتوفر علينا إرباك العودة ليلاً، فلا يطالنا من المدرسة إلا ساعة أو ساعتان. كان ذلك قبل أن يبتاع "أبَّكر" عربته الركشة المضحكة التي وفرت الوقت واختصرت المسافة، صندوق على عجلين، نعتليها راصّين بضاعة "أبَّكر" في أحضاننا، متكدسين مثل الكدايس(*) في قلبها؛ نغني.

قبل الركشة كنت أمشي بارتخاء وألتقط الأصوات المرهفة: صفير الهواء، عواء كلب بعيد خارج البلدة، طقطقة الحديدة في قفل شنطة "ود الشفيع" حين تخبط لحم فخذه المكتنز، تك تك تك، زنوبة "مريم" الكبيرة وهي تلتصق بقعر قدمها ثم تنفلت، وتلتصق وتنفلت، لات لات لات، أفكر في إعراب جملة "ضربَ زيدٌ عَمْراً"، أبحث عن عبارة لفتح الكلام مع "أبَّكر"، مع نزول الشمس في قعر السماء، وتلون الفضاء بالحمرة الداكنة، وتهيئنا إزاء آخر المرئيات التي نرصدها نبدأ في الثرثرة، ينشد "سيف" النشيد الوحيد الذي يحفظه:

- *سوداننا سوداننا.. أرض الجدود والأب.. فيه وجدت مأكلي.. فيه وجدت مشربي.. فيه وجدت منزلي.. فيه وجدت ملعبي.. ونيلي مبارك.. يجري بماء طيب.*

نعود أنا و"آدمو" إلى استفزاز بعضنا بعضاً، قبل أن ينهانا "أبَّكر" قائد مسيرتنا سائلاً عن الفروض المدرسية والواجبات. يبدأ في مساعدة شقيقه الصغير "سيف"، ومعه نحفظ جدول الضرب، وصلنا إلى جدول سبعة: سبعة في ثلاثة؛ واحد وعشرون، سبعة في أربعة؛ ثمانية وعشرين. نغني وننغم الكلمات ليسهل الحفظ، قد نقف لنستريح، عندها يحل

(*) القطط

"أبَّكر" معنا الواجب المكتوب، نعرب الضارب والمضروب، ونسجل تاريخ معركة كرري المجيدة. إذا لم نكن عمينا بعد؛ يرسم لنا الخريطة، نرى وطناً تصغر فيه الخَرْبَقَة وتتلاشى، نرى ثعباناً جباراً يشق البلاد، اسمه النيل، يرسمه بالحبر ويجعله مثل عفاريت الحكايات يفرد ذراعيه، خط من الحبر يعدل الماء على الأرض، يشق الأرض من جنوبها حيث أقوام الحبش وقبائل الدينكا المحاربين، إلى شمالها عند الشواطئ المصرية المطلة على أوروبا، يتمدد النهر متلوياً كما الثعابين، ولا يصل -على عظمته- إلى تلك البقعة القفر التي نسمّيها بلدنا الخَرْبَقَة. يقول "أبَّكر":

- *هذا النيل الأزرق، وهذا الأبيض، يلتقيان في بحر عظيم ينحدر شمالاً، ويلتقي بحراً مالحاً، حوله الدنيا بأسرها، فيه مراكب وأساطيل.*

لا أعرف ما هي هذه الأساطيل التي تسبح مثل الحيتان في البحر الشمالي الأبيض. ينظر "أبَّكر" إلى حيث السودان، يلمس إبهامه خطاً يحيط جسد السودان الضخم في قلب القارة، ثم يقول:

- *هاذي سلة غذاء العالم.*
- *كور علينا!(*) أنحنا لاقين، لمين حنقسم آلـ في السبت(**) للعالم!*

أتسلى بالنظر إلى تحفة أحضرها "أبَّكر" هدية لزوجته، تمثال بقاعدة خشبية، منحوتة لامرأتين تسندان ظهريهما متلاصقتين، وقد برع الفنان في نحت ثديهما وعجزيهما ودقة خصريهما، واحدة من الأبنوس الأسود اللامع، والثانية من العاج الأبيض المشوب بضباب ترابي خفيف، أظن أن زوجته ستخبئ المنحوتة العبقرية لفرط ما تبرز الأنوثة التي لا تتمتع هي بها.

(*) تعبير يفيد الاستهجان

(**) السلة

أعاود التفكير بسلة غذاء العالم، كم هو اتساع هذا العالم؟ إذا كان يلتف حول بحر مالح كبير كما لم تَرَ عين، ولا قدر إنسان، كيف لنا نحن الفقراء العراة أن نكون سلته؟ تتحدث دروس الجغرافيا عن مشاريع عملاقة، لكن الدومة في يدي صغيرة بالكاد تكفيني مزازتها حتى أصل حوش الحكّامة مع حلكة الليل، وأهرع جائعة إلى مطبخ أمي حيث استبقت لي صحناً من العصيدة والملاح، غالباً ما نلحق به أنا و"آدمو" قبل أن تمسه حموضة الحر ويفسد.

تأمرنا "حَوّا" بالنوم مبكراً هذا المساء بالتحديد، ذلك أن شبح الميت ود عم "ثومة" ما زال في الأرجاء لم يُنهِ رحلته إلى شجرة الموتى، لا نستجيب قبل أن نسمع ضرباً خفيفاً وغناءً رائقاً من الحكّامة:

- *الليلة السمحات ما ظني أنا ملاقيهن.*

وقبل أن تتنادى أمهاتنا يطلبن هجوعنا إلى القطاطي، نتعلق بالحكّامة نطلب أن تحازينا(*).

تضحك بود وهي تمسح رأسي:

- *أها! دخل القش ما قال كش. يبقى شنو؟*

يصيح "آدمو":

- *الظل، الظل.*

أصر على أحزية(*) ثانية لي، تغمز بعينها قائلة:

- *كان شالوه ما بنشال، كان خلوه، سكن الدار. ده شنو؟*

أصيح واضعة كفي على فم "آدمو" أمنعه أن يسبقني:

- *الرماد، الرماد يا حبوبة.*

يأتي صوت "حَوّا" غاضباً من قطيتها:

(*) ان تلاعبنا بالأحاجي

(*) أحجية

- *سحم رمادك[*] أنتي وهو، دايرين ننوم.*

تفلتنا الحكّامة ليلتحق كل واحد بقطية أمه، تنام أمي سريعاً وتشخر وتهذي بكلمات الخواجات الغريبة، أطلعتني معلمتي "فاطمة" عن بلد حقيقي في الخريطة يدعى "البرتغال"، إذاً أمي لا تتوهم! أظل يقظانة أداري عيوني كي لا تلتقي بعيني الميت ود عم "ثومة" الذي لم يلتحق ببرزخه بعد، وقد يجوس السكك ويدخل قطيتنا، لا آمَنُ إلا إذا شاهدوه في الأيام التالية يجتاز الدرب إلى شجرة الموتى.

حكاية شجرة الموتى لا تشبه حكايات سيف بن ذي يزن ولا الهلالي ولا تاجوج، ليست حكاية للتسلي أو التعلم، لكنها تعاش حتى الموت.

عند طرف حفرتنا، نيلنا، الذي حفرناه منعاً للعطش، وقريباً جداً من شجرة التبلدي، خزان الماء الاحتياطي لأيام الجفاف، قامت شجرة الموتى.

لا تشبه الشجرة أياً من أشجار المكان، ساقُها وحيدة غليظة مقشرة كما لو أنها عجوز معمرة، رغم أن الناس يجمعون أنها لم تكن في المكان حين سكنوا فيه. بعد وفاة فكي الحلة والد الحكّامة بخمسة أيام، شوهد طيفه مقفياً يجتاز الحفرة ثم يستدير مبتسماً ملوحاً بكفه.

تقول الحكّامة:

- *شفته شاب مليح أخضر، أدّانا ظهره وفات؛ ما فيهو عرجه كراعه اليمين الّ صابته يوم وقع عن ظهر البعير، كان كامل مكمل سمح، بخشمه بسمه حنينه، وقعت عينه في عيني، غميت.*

تواصل الحكّامة وصف الحكاية والدوار الجماعي الذي أصاب أهل الخَرْبَقَة حين شاهدوا للمرة الأولى شجرة غريبة شابة على حدود الحفرة؛

(*) تعبير للسباب

يعبث الهواء بأغصانها الخضر المورقة، شجرة لا اسم لها ولا ثمر، شكلت أوراقها مظلة ظل عريضة على الأرض، غبشت مشهد الأب الراحل؛ تنبهت الحكّامة من إغماءتها فتبعت طيف والدها، استدار الطيف ودخل تحت ظلال الشجرة تماماً، مختفياً وراء الجذع، اندفعوا مذهولين نحو الشجرة، تبدد الرجل تماماً، ولكن الشجرة ظلت مكانها، بحثوا حولها، وتلمسوها، تأكدوا من حقيقة وجودها، ليلتها صلّوا على روح الميت التي دخلت الشجرة أو انتقلت إلى برزخها عبر الشجرة، سمى بعضهم الشجرة الغامضة: النداهة أو السكة. فهي سكة الموتى إلى الآخرة، آخرون سموها باسمها الصريح: شجرة الموتى. ذلك أن معجزاتها لم تتوقف.

واظب موتى الخَرْبَقَة على توديع أحبابهم ملوحين بأيديهم كما فعل الفكي عند الشجرة، قد تفصل أيام بين دفن الميت وظهور طيفه، لا يرتاح أهالي الخَرْبَقَة إلا بعد الظهور والانصراف النهائي، فإذا تأخر طيفه عن المجيء؛ حرقوا البخور وأكثروا الصلاة والبكاء، لا يحتاج تأكيد ظهور الميت حياً عند الشجرة إلا إلى شهادة واحد على الأقل، ولا ضير في اعتبار إصرار كلب على العواء بانفعال، مشاهدةً أكيدة على اجتياز الميت للدرب، فمخلوقات الله كلها تشاهد وتتحدث وتقول ما رأت، أحياناً تزعم النسوة أنهن شاهدن أحباءهن الراحلين منذ زمن متجمعين في استقبال الميت الجديد عند الشجرة، يقفون باسمين هادئين حتى إذا ما اقترب طيف الراحل، متجاوزاً الأشياء المعيقة، مخترقاً جذع الشجرة بنعومة من دون احتكاك ولا صخب؛ تلاشى جمع الموتى كما الغيم.

نمت نداهة الموتى أو سكة البرزخ مثل كل الشجر، وغلظ جذعها واستطالت، وصار ظلها واسعاً، وسكنتها العصافير والغربان على حد سواء، واستحرم الناس صيد العصافير التي تلوف بالشجرة، كما تركوا

الأفاعي حرة طليقة عند جذعها، ولم يُسمح لنا بشج رؤوس الأفاعي حتى السامة منها، إلا إذا ابتعدت كثيراً عن الشجرة واقتربت من النقطة التي نرفع فيها الماء في دلائنا، أو تسللت مبتعدة عن الشجرة المقدسة إلى الدرب المؤدية إلى القطاطي.

تقول الحكّامة:

- *في قلب كل واحد منا نيل.*

لا يسهل فهم ما تقول الحكّامة، أمي مثلاً تنظر إليها بغباء شديد، لا أعرف ما الذي يجمع أمي بالحكّامة! وكيف احتملت تلك المرأة العارفة الذكية نظرات أمي الذاهلة! ولكن عن نفسي؛ حتى لو لم أفهم حديث الحكّامة في حينه، فإن الأحداث غالباً ما تقود لي تفسيراً طيعاً، ولأني الصغيرة التي يمكن تكليفها بالمهمات الطارئة على عجل؛ فإن الحكّامة تأمرني من دون تردد بالذهاب إلى دكان اليماني وجلب بعض مسحوق الذرة الذي نقص عند أمي وهي تعد العصيدة، كما تحملني قرعة ممتلئة على آخرها بالشربوت لأرسلها إلى "تاجوج"، ولا ترد عند اعتراضي: هل ينقص "تاجوج" وراجلها شربوت؟

تكتفي بالنظرة الجانبية السريعة فتردني عن شطط اللسان، وتشغلني لوهلة الأنوار المخاتلة التي تخللت الهواء وأمي تطفئ جذوة النار بين أثافي الطبخ، تخمد النار في الحطب ويتعفر المكان بالرماد، لكن شرراً بارقاً ينتشر في الهواء، ينكشف الهواء لناظري فأراه وقد كان خفياً، ينجلي ملوناً بالبريق يلاعب ناظري وحدي، ويضيء زاوية في صدري والروح.

أكتشف النيل المزروع بين الضلوع والذي تحدثت عنه الحكّامة، لها طرق فذة بالحفر على مياه النيل الروحي هذا، وتبليل عواطفي بمائه السخي، تقول لي من دون سبب:

- *امشي لزينب، وقولي ليها دايرين ملح.*

أصاب بالدهشة، فسلة الملح المحاطة بالقماش ممتلئة على آخرها،
عدا خزين تخبئه أمي، ما حاجتنا إلى الملح من الجارة العميانة الفقيرة؟
تهمس الحكّامة:

- *يمكن محتاجة حاجة وخجلانة، نطلب الملح؛ نقوم نشجعا تطلب طلبا.*

يترقرق ماءُ "نيلنا" في فؤادي، ويمسحُ العالمَ بللٌ شفيق..

"آدمو"

تفوح الرائحة وتتشكل في غمامة تُرى رأي العين، أدس جسدي الصغير قرب ضرعها إذا لم يكن في الجوار أحد؛ ألتقم حلمتها الجافة. وإذا تحرّكَ زول قربنا؛ فارقتها محاذراً ورحت أكر حولها بثبات واستهبال إلى أن أتأكد من خلو المكان فأعاود التصاقي بها. في تلافيف غمام الرائحة العفنة لجلدها التخين، وصنان بولها، وما لم يُجمع في الأرض من مخلفاتها؛ يمكنني التعرف على شذى ناعم خفي أليف حنين، أتذكره كأول رائحة أشبعت جوعي.

ليس ذنبي أن أحب "ترترة" وأهرع إليها ألتصق بباطن بطنها وأتدلى من فخذها مداعباً، ثم أنقلب واقفاً؛ أقبلها بين عينيها فتشمشمني وتبل وجهي برضاب لزج وهي تهمهم بأصوات أفهمها وحدي. تجن المرأة "حَوّا" كلما عثرت بي على تلك الوضعية، تشدني بلا رأفة وتخربش كتفيّ، تعض زندي وتسبني:

- *العفن، الكعب، المجنون.*

تشحطني بعنف من أسفل بطن "ترترة" فلا أقاومها؛ أخاف أن تؤذيني أو تؤذي الحمارة التي تقف ساكنة مستسلمة لغضب وغيرتها.

تمنعني "حَوّا" من طقوسي بعنف وغضب؛ تضربني وتخربش وجهي، لكن الحكّامة تجرب طرقاً أخرى بعد أن تزجر أمي وتنتزعني من بين يديها. تنصحني بالخروج للعّب مع "بابَنوس"، وتقول لتقنعني إني كبرت

وإن "ترترة" بهيمة عجوز لم يعد ضرعها يدر لبناً، عدا رائحتها النتنة، فهي مجرد بهيمة لا تغتسل كما نفعل، وأنا ولد كامل حسن الخلق والخلقة، وقد أكرمني الله بالإسلام وبكوني بشراً، أتوضأ مرات خمس بالماء أو أتيمم بالتراب ماسحاً عني نجس الحيوان، وقد أذهب لأغتسل في الحفيرة، فأصير جديراً بإنسانيتي وبخلافة الله على الأرض.

مبررات الحكّامة مخيفة تبعث على الرهبة؛ لكنها تخجلني، وتبعدني تدريجياً عن "ترترة"، رفيقة رضاعتي، وإن كنت أحياناً أفكر بصورة معكوسة، أليست "ترترة" بعض خلق الله؟ لماذا إذاً أنا أفضل منها؟ لماذا علَيّ قبول نوبات أمي العاطفية القاسية؟ يكاد قفصي الصدري يتكسر في أحضانها حين تضمني في عاصفة محبة ملتبسة بالغضب، وتختنق أنفاسي من فوح رائحة إبطها الكدرة، مع ذلك؛ هي أمي وتلك حمارة.

وصفوا لي كيف أصيبت أمي بجنون مؤقت وهي تلدني، نبذتني على إثره، وظلت تصيح:

- *ما دايراهو.. ما دايراهو*(*)...

جاءوا بالحمارة لأصير رضيعها البشري، شربتُ بشراهة من فتحة صغيرة خرموا بها القرعة الناشفة التي ملأوها بلبن الأتان، حين اشتد عودي وتمكنت من قبض الأشياء بكفيّ، وضعتني "ست النفر" تحت الحمارة أتسلّى في شد ضرعيها واستحلاب وجبتي.

لم يحملوا أمي مسؤولية انهيارها وخوفها مني ساعة وُلدت، ولا أنا ألومها على تنكرها لي. مع ذلك فما كُنت إلا مخلوقاً يستحق رحمة الناس ورأفتهم، بينما أطالت أمي نفورها ولم تستعِدْ وعيها وتفيق على ما حدث إلا وقد مشيت بخُطا مضحكة معوجة وراء مرضعتي، أدركتْ أن وليدها صار ابناً للأتان وربيباً للحكّامة. اشتعلت غيرتها، فكشرت ونهشت كل

(*) لا أريده

من حولها لاستعادتي ابناً لها، لم يفت الأوان تماماً، فها أنا؛ ابن لها وللحكّامة، ول "ترترة" الغالية.

"حَوّا" ليست أماً عادية، قطة برية سوداء عنيفة، تعانقني مرات وهي تجوح فتكاد أضلعي تطقطق بين ساعديها القويين، وتركلني مرات بعيداً عنها كأني إبل أجرب؛ تكيل لي السباب، تحقرني وتلعن زمانها الذي بلاها بحضوري وأثقل حملها بمسؤوليتي، تشير بقسوة لا ترحم إلى لون عينيّ كأنه أثر شيطان تلبّسني. تعيب عليَّ أثرَ أبي فيّ؛ وهي التي زرعته! رغم غضبها الدفين ونزقها لم تفه مرة واحدة ولو عن طريق الخطأ باسم من كان أبي، ولم أسألها، فمع كل هذا الحشد من الأمهات الإناث؛ من يحتاج إلى أب؟

تتقلب أمي بين حنان الأمهات الخانق وقسوة الساحرات المخيفة، مع ذلك تعوَّدْتُها، قبلتها كما هي مستعيناً بحكمة الحكّامة وإحاطة "ست النفر" الوادعة ورفقة "بابَنوس" الأنيسة، ودفء جلد "ترترة" الذي أتمسح به وإن صاحت أمي:

- *يا عفن، خليك خات راسك بالعفانة، أصلك حمار.*

التغيرات الحادة في مزاج أمي تغري صبية الخَرْبَقَة بي، كما يستدعي اسم "آدمو" بوقعه اللدن سخريتهم، لم يكونوا يسخرون منه إذا نودي به سواي، فعلى حين يفخر أولاد كثر بالإسمين الرائجين "آدم" و"أدمو"؛ يختارون لي تدليله الغريب"آدمو". أن يحمل الاسمَ رضيعُ الأتان "ترترة"، ولد "حَوّا" السليطة؛ الولد الوحيد في الخَرْبَقَة الذي يفتح جفنيه عن حدقتين خضراوتين، له في مقدمة رأسه قنبور من شعرات ناعمة ملتوية ينتظر أن يقصها الفكي استيفاءً للنذر.. تلك أسباب تجعلني صيداً سهلاً للتندر والتسلي. لم يعد بإمكانهم الانفراد بي في السكك الخلفية وعند جدران القطاطي الخالية المطرفة، يداعبون قنبوري، ويحدقون في عيني مندهشين، ويضغطون جسدي يراودونني محاولين الإمساك بعجزي،

أتملص منهم وأعافر وأشتمهم بما تعلمته من لسان "حَوّا" البذيء، فإذا لحقتْ بهم بابَنوس أمطرتهم بالحجارة وتناولت أقربهم إليها؛ فشدت شعره وغرست أسنانها الحادة في أيّ بقعة لحمية مكشوفة من جسده، تراكضوا وتصايحوا:

- *أخته، بابَنوس جات.*

لم ينالوني بتاتاً، فقد شَكّل كل من "بابَنوس" و"أبَّكر" ملاكين حارسين لي في صغري، يمر "أبَّكر" رجلاً عبوساً يوبخهم بنظراته فيلتزمون الأدب عند مروره، يداعب قنبوري ويكلفني دونهم بحمل بعض البضائع من دكان أبيه إلى بيت من بيوت الخَرْبَقَة، يعاملني كرجل.

في الخريف بعد المطر؛ تتحول الحلة إلى ميغة طينية لزجة تطن فوق مستنقعاتها الحشرات الكبيرة من دبابير وزنابير، والصغيرة من ذباب وبعوض، فيقوم العمدة بالجهد الوحيد في عامه كله؛ يتكفل بمخاطبة إدارة الصحة. ثم في يوم رطب يصل الموظف العمومي على عربته حاملاً زجاجات مغلقة، ينصرف مسرعاً، ويذهب "أبَّكر" إلى العمدة، ثم يعود بالزجاجات، يستأمنني على توزيعها على صبية الحي.

عُبأت الزجاجات بزيت رجوع العربات الأسود اللزج، أرصها أرضاً كأنها ثروتي قبل استنفار الأولاد وتوزيعها بينهم، نتراكض للقيام بالمهمة، ندلق الزيت فوق البرك في الحارات ووراء القطاطي والأسواق، يمنع زيت العادمات توالد يرقات الناموس، لكنه لا يكون ناجعاً للغاية، فالملاريا خصم شرس تعرفه دماؤنا.

تعود الفتية مع الوقت على أن بينهم صبياً بعيون خضراء أو زرقاء، وتوقفوا عن توهمه طريدةً سهلة.

لعيني قدرة فريدة على التلون والتقلب؛ كما الضب يبدل لونه بين صفرة رمل الصحراء وخضرة الغابة. عند الصباح وفي ضوء الشمس

الساطع تبرق الحدقتان بزرقة حجرين زجاجيين، تبدو زرقتهما مدهشة للكثيرين، محاطة بأهداب كثيفة سوداء. في عتمة المساء وفي حالات الغضب والحزن أيضاً، ينقلب لون عيني، تخاتله دكنة تحيل الأزرق إلى أخضر يقارب لون حشائش النجيلة المبللة في حوش "الشفيع". تشهق "بابَنوس"؛ فأخجل.

كانت المرة الأولى التي تهربت فيها من مرافقة "بابَنوس" يوم ختاني، لا أتذكر ختانها، لعلّي كنت صغيراً لاهياً، لكن يوم ختاني شكل معاناة موجعة، أتذكر أن الحكّامة تصرفت بكرم كبير فذبحت شاة قائلة:

- *دي كرامة لراجل البيت.*

أنا رجل البيت المزعوم، زهْوٌ رافقته الزغاريد ودق الدلوكة والغناء:

- *الله فوقه، النبي فوقه.*

لم تكن المظاهر الاحتفالية المقامة على نية ختاني كافية لنسيان الوجع الذي يخزني، والخجل الذي رافق قيام "ست النفر" بغسل جرحي بالملح والماء، والألم الذي يطيّر صوابي كلما انسل دفق من البول فوق جرحي، ألم يفوق الذي شعرته حين لسعني زنبور الزنان الأحمر، الذي زن فوق رأسي فأفرحني، ثم عاجلني بقرصة من شوكته المركبة فوق رأسه المدبب المنقط بالأسود، يومها ظننت أن هذا أشد ألم جسدي يصيب الإنسان، لكن الختان غَيّرَ رأيي، بل إني بت كلما شاهدت رجلاً من قبيلة الدينكا وقد رسمت الشلوخ فوق جبينه دوائر من اللحم البارز، أشعر بألمه؛ وأقيسه بما فعلوه بي يوم الختان.

أصاب عضوي احمرار وانتفاخ، ثم تقشر أصفر قبيح أبعدني عن "بابَنوس"، في الليل تصيبني الكوابيس معظمها يدور حول معرفة "بابَنوس" بما حل بي وضحكها مني وسخريتها من رجولتي. أنقذتني

الحكّامة حينها إذ اصطحبت "بابَنوس" إلى كردفان ثم الضعين حيث قالوا إن معلماً افتتح مدرسة على أطرافها يمكننا الالتحاق بها.

عاودت اللعب مجدداً مع أختي بعد شفاء جرحي، وعادت ترافقني وتذود عني، كما نسيت وجع عضوي كأنه لم يكن، على الأقل بت متأكداً من رجولتي التي لم يثلمها عبث الصبية الوقحين، الذين وقفوا يقهقون يوم قادتني الحكّامة إلى السوق، أوقفتني على دكة عالية طالبة مني إلقاء سني الحليبية التي سقطت ليلاً في وجه الشمس؛ أصيح مخاطباً ضوءها الساطع:

- *هاك سن الحمار، واديني سن الغزال.*

غفلنا لوهلة عن سبب سخرية الأولاد، تنبهت الحكّامة قبلي أنهم يربطون بين الكلمة التي قد يقولها أيّ منهم فلا تدل على شيء، ولكن معي؛ يسهل ربطي بالحمار على نحو ساخر. زجرت الحكّامة الأولاد وتوعّدتهم؛ فانسحبوا في ضحك مكتوم، وتركوا في ضميري جرحاً غائراً.

ردت أمي على الأولاد بصورة مغايرة، ابتاعت لي مدفعاً صغيراً من حديد وبارود؛ أفرقعه عندما يحين موعد الإفطار في رمضان، فيملأ قلوبهم حسرة وعيونهم غيرة وحسداً، لكنه لا يعالج جرحي.

جسدي أول من طبب جراحي وتمرد على وضعي بصورة ناجعة، حين لم تعد لي سيطرة على اندفاعاته وهو يكبر ويتغير. بت أسرع من "بابَنوس" إذا ما تسابقنا، وأطول إذا ما تناوشنا أغصان شجرة اللالوب شادين ثمارها، أو إذا جئنا للحكّامة ببعض ثمار الحنظل، كما صارت أناملي أقوى وأنا أستخرج من تحت التراب السقيط المزز الذي تكوّن بعد المطر، نأكله باستمتاع.

"بابَنوس" أكثر نباهة مني في تتبع الضوء وتخيل أشكال ومخلوقات من الظلال وتكوينات الطبيعة، تجن أحياناً ويصيبها البله فتتحدث عن

أشباح تعبر الغابة بعيداً عن شجرة الموتى، لا أصدّقها فهي تحاول إخافتي بكل طريقة ممكنة؛ وأفعل مثل فعلها. أقودها إلى الجبانة حيث الأموات يستريحون في التراب، فأصدر أصواتاً مفخّمة علها تجفل. كلانا يجفل حين يصيح بنا شيخ الجبانة مهدداً بإعلام الحكّامة بأننا ندنس حرمة الموت.

تتذكر "بابَنوس" الألوان بوضوح، وتخترع ألواناً تخصها، كأن تقول إن لون الشجر ليس أخضر تماماً ولكنه "أخلبني"، لم يسمع أحد عن لون كهذا؛ هو اختراعها الذي تفرح به، وتقصد به اختلاط الخضرة بالزرقة، والذي تدعي أنه لونُ عينيّ أيضاً. كنت أحسر منها في تنبيه الكلاب الكسالى النائمة في الخيران؛ أوخزها لتهمر وتكشر عن أنيابها، تتحجج أنها لا تحب إزعاج الكلاب بعيونها التي تستدر العطف والشفقة، فأثبت لها رجولتي وخلافي معها في الرأي؛ "أشوت" مؤخرة الكلب بمقدمة مركوب الجلد الذي ابتاعته أمي من "باسالم" وقد أحضره من الفاشر. نتراشق بالماء أو التراب، ونتسلل إلى أطراف الغابة بحثاً عن الضب القادر على تبديل لونه، فأخيفها بفأر أم سلبويتي الصغير السريع وهو يمرق قرب قدميها إلى جحره.

أمها "ست النفر" امرأة مذعورة على الدوام، تفقد صوابها إذا دخلنا الغابة، تدّعي أن هناك من يتربص بنا ويخطفنا! حتى عسكر الجنجويد القلائل الذين يمرون بمحاذاة الخَرْبَقَة بعيداً ويتجاوزونها لا يقدرون على اختطافنا، فنحن ماهران في تسلق الأشجار والاختباء في جذوعها وفي تجاويف الكهوف، ووراء التلال الرملية في الخلاء، ولكن "ست النفر" امرأة مأزومة بالريبة رغم هدوئها الظاهري، تصاب بقلق كبير إذا ذهبنا نحو الغابة أو جهة حفيرة النيل، تقول:

- *لا تعوموا بالتب(*)؛ تغرقوا.*

(*) حفرة الماء

ولكننا لم نغرق، أضربُ الماءَ بجسدي كله وأطفو ببراعة، أحبس أنفاسي لمدة طويلة تحت الماء في تجويف جذع التبلدي كما يفعل الأولاد الآخرون، حتى "بابَنوس" تتقن تلك اللعبة، لكن "ست النفر" تعاقبها إذا ابتلت ثيابها بما يشي بتلك الألعاب الصغيرة.

أنا أنْبَهُ من "بابَنوس" في حفظ القرآن، أدركَت الحكّامة قدرتي على الحفظ. في الأمسيات المقمرة وعندما كانت تقرأ علينا من حافظتها آيات تطالبنا بترديدها، لا أخطئ أو أنسى. بينما تتلهى "بابَنوس" بخيالاتها وأحلامها. لهذا أعلنت الحكّامة أمام الساهرين على الدكة في حوش قطاطينا أني سأكون فكي الحلة القادم. والحكّامة لا تنطق عن الهوى، لكن أن يتم تعميد فتى مثلي فقيهاً، فهذا أمر آخر. لم تكن الحكّامة قادرة على تحويل مجلسها إلى خلوة شرعية تمنح شهادة للفقيه، فالمجلس مختلط بين تسيير عيش الحياة اليومية وضرب الدلوكة وقول الشعر والغناء، إنه كما يقول شيخ الخلوة "ميغه"، خليط لا يليق بالدين؛ وإن خفف وطأة الدنيا. ولأن الحكّامة تحترم شيخ الخلوة أكثر مما تبجل الزين الصوفي، فالشيخ وقف نفسه على القرآن كتاباً ونهجاً؛ فقد أرسلتني لعامين أعيد حفظ القرآن على طريقته.

أراد شيخ الخلوة "إسماعيل ود خليفة" تحقيق أمنية الحكّامة فيّ، والمباهاة بثقتها التي جعلتها ترسل له بولدها، بل وعَدّني من طلبته المتفوقين، فما إن وافيته وراء سور البوص الذي جدله في سفح مرتفع هضبي صغير، حتى هش وبش، لم ينظر إلى كوز الحلو مر الذي أرسلته الحكّامة هدية له، امتدحني كولد نبيه؛ في الواقع لم أكن نبيهاً، تمكنت فقط من حفظ ما سمعته على لسان الحكّامة منذ طفولتي، قصار السور والآيات التي تشبه الحكم وتفيد المتأمل في حال الدنيا. أما الميزة التي راقت للشيخ إسماعيل فهي طريقتي في خط الكلمات، في ما بعد راقت

مروني لمعلمتي "فاطمة" في مدرسة الضعين أيضاً، قال الشيخ في نفسه: هذا الولد لن يتعبني؛ إنه نصف جاهز.

في حلقة ضيقة استدعى فيها الشيخ شيخاً آخر من نيالا يمتحناني، جلست بينهما مرتجفاً، استعدت برهبة ما حفظت، ثم رحت أجود على طريقة الحكّامة؛ بصوت طروب. أعطوني لوحاً طينياً تلون بالسواد، قالوا: هذه سبورة، وذاك قلم؛ قلم غليظ من طبشور صنع من جير أبيض. خططت بالقلم فوق السبورة بعض الآيات فتبادلا النظرات استحساناً، وقررا أني في أعلى درجات الجهوزية لتعلم طريقة الشيخ في حفظ القرآن، منحاني لقب "قوني"(*)، مما أثار غيرة الأولاد رفاق الخلوة، فقد كنت صغيراً وجديداً وسبقتهم في التراتبية، حاصروني حسداً وغيرة وإن لم يتمادوا كما كانوا يفعلون، فأنا صرت قونياً بإقرار شيخنا، لم يبق إلا القليل لأصل مرتبة "الفكي".

قالت "حَوّا" إن ذلك إذا حدث؛ ولن يحدث، فإنه سيعفيها من دفع مهر أتزوج به، فلا أحد يتقاضى مهراً من فقيه حافظ للقرآن. تقلل أمي من كل الاحتمالات التي تسعى إليها الحكّامة، ولم تكن مخطئة، لا للسبب الذي توهمته من ضعتي وضعف حالي، ولكن لأني لم أتحمل طريقة الشيخ في إعدادي بعد ذلك. أن تحفظ كتاب الله وكلامه على هذه الصورة عملٌ شاق يتطلب إحصاء الكلمات، وصَفّ الآيات في حبال. يسمّي شيخي حبال الكلمات "فبلاو"، يختار لنا كلمة ويبدأ في البحث عنها في كتاب الله، ثم نحفظ الآيات التي وردت بها فيكون لنا حبل، وباختيار كلمة أخرى حبل جديد، وهكذا، نقضي الوقت في استنسال الحبال من الكلام، وفي عد ما تشابه واختلف، وفي كشف ما توافق مع العجائب والغرائب، كأن يقول الشيخ إن إعجازاً بيناً في تكرار كلمة

(*) منزلة تراتبية في حفظ القرآن

"شهر" اثنتي عشرة مرة على عدد شهور السنة، وكلمة "يوم" ثلاثمائة وخمس وستين مرة بعدد أيام السنة، وإن كلمة "الدنيا" ذكرت كما "الآخرة" بتعداد متساو؛ مائة وخمس عشرة مرة. كذلك نجد المعنى وفعله على تعداد واحد، يتكرر "اللسان" خمساً وعشرين مرة، مثلها يتكرر فعله المناط به والواجب عليه في كلمة "الموعظة"، وهذا من المعجزات. وهكذا نظل نلعب بالحبال ونسرد عدد المرات التي وردت فيها كلمة "مصر"، فنقول إنها ست مرات عنت مصر البلد لا الصفة لأمصار الدنيا الكثيرة، ونعجب كيف ترد كلمة "الصلاة" خمس مرات بعدد ما فرضها الله على المسلمين.

في البداية تتبعت علم الحبال دائخاً، معجباً، ثم ضجرت وبت لا أرى فائدة في تلك الحلقة المفرغة. أتملص من الخلوة وألتقي رفيقي الجديد المصارع "شديد"، حارس السجن الصياد الشجاع، أو ألعب مع "بابَنوس" عند ماء النيل، وربما عافت نفسي مد حبال الشيخ حين سألني عن كلمة "النساء"، فقضيت أياماً أقلب القرآن وأحفظ أربعاً وخمسين آية عصية عن النساء، فإذا ما امتحنني، ضحك مني وقال إنها فقط خمس وعشرون آية، إذ إني خلطت بين الآيات التي تورد الكلمة كما هي؛ النساء، وتلك التي تنزع عنها أل التعريف؛ نساء.

ما همي أنا من كل هذا؟ هل عليّ أن أكون "فكيّاً" يعرف إحصاء الكلام، أم أفهم الكلام؟

وهل سيكون جل ما أعلمه إذا صرت فقيهاً كيف نستزيد من الحسنات في تبادل مشروط، فأن تقرأ سورة الفاتحة سبعاً؛ كُتبت لك ألف وأربعمائة حسنة، وأن تقرأ سورة الإخلاص ثلاثين مرة؛ فكأنك قرأت القرآن سبع مرات، وإذا رددت عبارة "سبحان الله وبحمده" مئة مرة؛ غفر لك ذنوبك ولو كانت كزبد البحر!

سامحك الله يا حكامتي الغالية، شعرت بالفضاء الشاسع في عقلي يعتم، بت أجيد العد والحساب على حساب الحكايات والمعاني. لم أعد متلهفاً لتحقيق أحلام الآخرين عبري، ورحت أتسلل يومياً من الخلوة؛ فيكثر شيخي ملامتي، وأميل إلى رأي أمي التي تراني لا أصلح فقيهاً كما لا تصلح التسمية لي. بإمكان الحكّامة توفير التيس الذي تعده لتذبحه عند تخرجي، فلن أنال تلك المنزلة الرفيعة أبداً، حتى لو رغبتُ بالتجوال في العالم أستزيد منه كما يحدث مع من أنهى مرحلة الفكيه وراح يتجول متأملاً.

أمران أحكما إحاطة الملل بي وفجرا رغبتي في الانعتاق من الخلوة، أولهما المدرسة التي بت أرتادها متقطعاً لأسمع عن دنيا غير الدنيا التي نعيشها، وثانيهما مراقبتي المصارعين في حلبات الصراع. راهن "الشفيع" على مصارع ضخم الجثة مثلوم الأذن، بينما راهن "البخيت" على المصارع "شديد كادوك"، حارس الحبس، صياد الأفاعي، وراح كلاهما يتعهدا المصارعين بالرعاية والغذاء في تنافس محموم، فيقيمان المهرجانات التحضيرية للقائهما النهائي، يسقيانهما ما تدر شطور(*) البقرات الخاصة بهما لتقوى عضلاتهما ويشتدا. يتدرب مصارع الشفيع مع صبية الحي الكبار، يلقيهم أرضاً مرة تلو الأخرى، بينما لا يعتني "شديد" بالتدريبات، يبدو كسولاً مستهيناً واثقاً، لا يمكن استفزازه بالتحدي أو السباب، فإذا ما جاء احتفال الصراع، وتجمهر أهل الحلة ينظرون، جندل خصمه مرات وسط التصفيق والرقص. تمنيت صحبة "شديد" القوي المنتصر.

عندما كبرت قليلاً لم أعد أرتضي وجود البنت معي إلا في طريق المدرسة وإذا ما لعبنا بعيداً عن العيون، تمردت على رفقتها جهاراً في

(*) أثداء

الحواكير والحواري، فهي مجرد بنت؛ طالت وتدورت. لهذا أتظاهر بالميل إلى رفقة "أبَّكر" أكثر من قضاء الوقت بصحبتها، في الواقع يثير "أبَّكر" مللي أيضاً بحسمه وجده، فهو لا يتقن لعب الكشوك(*)، عندما يصطف الفتيان مقابل البنات، يتقافزون بانتظام ويطيرون بعيداً عن مواطئ أقدامهم وهم يهمرون ويقمبلون بأصوات زئير تنبعث من صدروهم مرافقة للصفقات المنغمة الموسقة، بينما تصدح البنات في الغناء وهن يتقافزن، يجلس "باسالم" اليماني وأولاده "أبَّكر" و"علي" و"سيف" ينظرون باسمين، أقصى ما يفعلون المشاركة في التصفيق وهم قعود. كيف يمكنني أن أصير فتى مهماً في لعبة الكشوك، كشاكي تنظره البنات، إذا اكتفيت بصحبة "أبَّكر" العربي الذي لا يجيد الرقص؟

لا أعرف كيف أحيد مشاعري المتضاربة تجاه "أبَّكر"، فهو الرجل الذي أكرمني في الطفولة وحماني وحرسني ورفقتي في طريق المدرسة، لكنه لفرط جده وجديته يخيفني، ثم كيف أُقيّم إصراره العنيد على تسميع النشيد الذي علمتنا إياه معلمة المدرسة أثناء عودتنا إلى الخَرْبَقَة، وكأني سأخطئ به وأنا الذي حفظت سور الحكّامة من القرآن الكريم، وحبال الشيخ إسماعيل؟

رغم أني أوزع لـ "أبَّكر" زجاجات الزيت كرجل كبير مؤتمن، إلا أنه يواصل لعب دور الأستاذ، ويصر على معاملتي مثلما شقيقه الصغير الضئيل "سيف"، لا يعفيني من إنشاد الأناشيد التي تحرجني في رفقة البنات، ولأني تعودت أن أكون مهذباً معه، أنشد:

- *يا الهي يا إلهي يا مجيب الدعوات.. اجعل اليوم سعيداً.. وكثير البركات.. وأعِنّي في دروسي وأداء الواجبات.. وأنرْ عقلي وقلبي بالعلوم النافعات.*

(*) لعبة راقصة

كلما انتهيت من مرحلة في حياتي انكشف لي ليني وخوفي، أشبه الصغير "سيف" الذي يتكور رأسه كما لو كان رضيعاً، نسمّيه: "أبو دومة"؛ ولكننا لا نفعل ذلك بحضور شقيقه الأكبر، ومهما تصايحنا وتنابزنا نظل عصبة متآلفة. فالمعلمة "فاطمة" في الضعين، والحكّامة في الخَرْبَقَة، يعملن على إلزامنا بتلك الألفة التي أتوق للتحرر منها، تحكم الحكّامة سطوتها علينا بكلماتها وضربات دلوكتها وأمثالها التي تجد فيها تفسيراً للكون مهما بدا غريباً ومعجزاً، أما "فاطمة" فلها من الحلاوة والطلاوة ما أخجل عن تبيانه؛ إذا انزلق ثوبها الأملس عن كتفها وعدلته وثبتت أطرافه في خصرها، بان خصرها مستدقاً رفيعاً؛ يكاد ينكسر. تمسك كف "سيف" بتحنان وهي تعدل حروفه فوق الورق، لا تفعل مثل ذلك معي؛ فقد جئتها وقد استقامت حروفي، وكان من السهل تعلم جدول الضرب وأنا الضليع في حبال الشيخ، كما تعلمت العربية بيسر لحفظي القرآن، وإن ظل "أبّكر" يعالج ما أسماه ارتخاءً في تلفظي العربية، لم أحرز تقدماً في درس الجغرافيا كما "بابَنوس"؛ صاحبة العقل المسكون بأكوان بعيدة خيالية. أنا تكفيني حدود الخَرْبَقَة والغابة القريبة.

الرقيقة السمحة معلمتنا "فاطمة" متيمة بالشاعر البوهيمي"السر"، هذا أمر لا يخفى عليّ، يبدو في ارتباكها ووهن صوتها وهي ترسل له الكتب معنا، ثم لا يرد ولا يجيء، لا أعرف الأسباب التي تجعل فتاة مثلها تنتظر وهماً مثله، لكن ربما هو الحب المجنون الذي نقرأ عنه في قصائد عنترة، والذي طير عقل "السر" نفسه من أجل "تاجوج" التي تزوجت سواه، تاجوج الحلة معشوقة "السر" قبيحة غير جديرة بالقصائد، لا يلائمها إلا هوى "البخيت" زوجها البدين.

من أين جاءتني تلك القسوة في تقييم العشاق؟ لعلها من أمي التي احتسبت انزلاقها يوماً في علاقة مع رجل خطيئةً مقيتة نتجتُ أنا عنها،

أو من محاولات الحكّامة تعليمنا الصواب والخطأ، أشعر بنظراتها مسلطة نحوي عندما ينطلق الصبية إلى الغابة يلاحقون البنات، فأنكص وأحرص على ملازمتها لتطمئن أني لا أشارك في الألعاب المعيبة.

الحرمان درس بليغ تعلمنا إياه الدنيا، وتدربنا عليه "فاطمة" وهي تضع أمام أعيننا قرعة الماء بين فرعين قويين للشجرة، فإذا ما اشتد الحر، وتصببنا عرقاً وشعرنا بالعطش، مررت القرعة على بعضنا دون الآخرين، سقت نصف العطاشى، لتقوم في اليوم التالي بسقاية النصف الثاني وحرمان من شربوا أمس، تقول "فاطمة":

- *الماء شحيح كما الحياة، وحياتنا صعبة ومستقبلنا على كف عفريت، كي نصير أقوى علينا أن نتعلم التحمُّل، وكي نصير أقدر على مواجهتها علينا أن نتعلم التعاون والصبر على رغباتنا في الوقت الذي يمكننا فيه تحقيقها، عندما نسقي آخر ونحن عطاشى نتكاتف.*

أعجب أسلوبها الحكّامة وهزت رأسها قائلة:

- *البت دي بتفهم.*

أما "أبَّكر" فقد تعجّب وقال:

- *هذه خربطات الشيوعية في رأس "فاطمة".*

أُحِبُّ "فاطمة" بصمت؛ أصبر عطشاناً عنها وعن سواها، لكني لا أوافقها في المخاوف التي تسكنها وهي تعلمنا، كما لو أنها تعدّنا لمواجهة كارثة أكيدة.

ترى "بابَنوس" النار بعد انطفاء جذوتها، تدعي أن الرماد حين يخمد يظل في الأفق شرراً يقدح في الهواء، يلون حيزاً خفياً بإضاءة غامضة هي نفسها التي تبزغ في الصدر أو أعماق القلب. لـ "بابَنوس" أفكار مجنونة تطير في الهواء، الحكّامة تقول ما يشابه هذه الأفكار ولكن بطريقة

عقلانية جداً. وأنا لا هذا ولا ذاك، يمكنني حدس الاستعطاف في عيون الكلاب والقطط، ولكني لا أرى بريق النار إذا انطفأت، ولا تعنيني نظرات الكلب الحزينة بينما يستجمع قواه ويقدر على التكشير عن أنيابه.

أتوق لأصير رجلاً خالياً من الضعف الأنثوي المحيط بي.

لهذا قمت بقص قنبوري وتركت شعري الخشن يتلفف فوق رأسي مثل أسلاك شائكة، وصاحبت "شديد" المصارع، وراحت أعوامي تنقضي بسرعة؛ *تبر تبر، دخول السنة نار في قصباي"* (*).

علّمني "شديد كادوك" اللحاق بجلسات الرجال، قادني إلى الاندداية(**)، نجلس لصغر عمري وضعة شأني في طرفها أو خارج الحلقة قليلاً. نتلقف قرعتنا بشغف، وألحس رغوة المريسة التي فاضت في فوهتها، ثم أشفط السائل المسْكر بالزمبارة، تفور المريسة وتندفع في ماسورة قصبتي المجوفة ملهبة غشاء فمي، صاعدة إلى رأسي.

ليس الكيف والمزاج وحده الذي جمعني بـ "شديد كادوك"، فقد علمني المصارع حيلاً تجعلني أكثر بأساً.

حيل وبراعة وقدرات كنت في أمسّ الحاجة إليها في مواجهة استصغار أهل الحلة لي.

نضجت مع "شديد" حارس السجن المصارع والصياد الذي لا يعرف الخوف، ومنه تعلمت أشياء كثيرة، لم يكن معلمي الوحيد، فالحياة ساطتني كما سَوْط عنج جُدِل من ذيل خرتيت عجوز. مع ذلك؛ لا أثر لسوط الدنيا ولا لسياط الشمس ولا لمحاولات الصبيان السمجة أو إشارات الجوع على جسدي ووجهي وجلدي الداكن، فقامتي تطول بإفراط من دون اعتدال، تشب كنخلة مزهوة، يخلط من يراني في توقعاته،

(*) سريعاً سريعاً تنقضي سنتي كما تستشري النار في القصب

(**) جلسة الشرب لدى الرجال

فجسدي الفارع يوقعه في تصور خاطئ، فيعتقد أن أبـي دينكاوي جنوبي، ثم يفاجئه لون عينيّ. لا تفضي رؤية جسد "حَوّا" القصيرة الذي كان نحيلاً ثم امتلأ؛ إلى استنتاج مباشر في أن لتلك المرأة ابناً مثلي؛ نحيلاً طويلاً بلا اعوجاج. تعْرَضُ ذراعاي وتكتسيان عضلاً قاسياً كما فخذاي، أغادر مرحلة القصر والنحول والخوف من صبيان الحي سريعاً، كما أتوقف عن لعبة طق الدومة الخاصة بالبنات رغم أني أحبها، أغادر طفولة "آدمو" الخجلى؛ أصير رجلاً.

لا تروق رفقتي "شديد كادوك" لـ "حَوّا" ولا "بابَنوس"، فزع "أبَّكر" وهو يراني أتسكع برفقة المصارع في غابة "أب نوام" القريبة فنهاني عنه، ارتاب في وفاقنا، وهو الأمين عَلَيّ الذي أحاطني في طفولتي برعايته ومنع عني الصبية العابثين الذين طمعوا بخضرة عيني، وظنوا فيّ مشروع لوطي صغير، لكنه وقد اطمأن إلى أن تلك خيالات لا أساس لها، بات يتحدث عن فوارق في الفهم والعقل والعلم، فكيف لولد قارئ وحافظ للقرآن مثلي، تلميذ الخلاوي والمدارس النظامية، مصاحبة رجل محدود الفهم غير قادر على فك الخط.

أما "بابَنوس" فتغار قطعاً من علاقتنا الفريدة وهي ترى رفقتي بها تذوي وتتوارى وراء واقعنا كولد وبنت كبرا واحتشما ديناً وعلماً. الحكّامة أيضاً لا تحب جولاتي مع "شديد"؛ يصيبها القلق، وتتحسب كثيراً لأي خطر يحيق بي، لكنها تدافع عني أمام "حَوّا"، تستسلم أمي ولا تتوانى عن جرح مشاعري في سياق قبولها قائلة:

- *أخَيَر ما يقى معفن وملصق ببطن الحمارة ورا القطية.*

لم أعد ألاصق "ترترة" مداعباً متمسحاً باعثاً نهيقها الحبور كما كنت في الطفولة المبكرة، ألمح في عينيها بين القذى والدمع عتباً حزيناً، لكني لا أضعف. لا يحسن بالرجل الانكسار لعتب بهيمة؛ حتى لو

أرضعته وآنست طفولته يوماً. لكل تلك الأسباب، تصير رفقتي لـ "شديد" ذات مغزى، ثمّةَ أسباب أخرى تتعلق به. وحدي أعرف أن في الرجل طفلاً كبيراً أكثر براءة من رُضَّع الحي، رأيته يبتاع الكسرة والملاح من أمي ويعود ليأكل على كرسيه عند باب الحبس، ثم يتوقف متذكراً السجين، تتغرغر عيناه بدمع يظل يترجرج ممتنعاً عن الانهمار حتى يمسح وجهه بذراعه ويدخل الطعام إلى السجين؛ فيتقاسماه. أحتفظ بسر لحظة الضعف القوية تلك ولا أخبر أحداً عما رأيت منه، من الأجدى له ولي أن يظل في أذهان الناس المصارع العملاق القوي الذي لا يرحم. يروق "شديد" لي لكثرة ما يعرف من الحيل، ولأنه يشبه حائطاً من الطوب المتين، حيث لا يظهر على وجهه فرح ولا ترح، عيناه شجاعتان جريئتان، ينساق جسده عادة لتلك الشجاعة بارداً، يقولون إنه لصغر عقله لا يعرف الخطر فيبدو شجاعاً، مغامراته مخيفة لصبية الحلة ولكني أتوق لتعلمها؛ يصيبني الخوف ويرتجف قلبي حين يقول بآلية تامة:

- *امشي نمرق الغابة.*

تمردت على وصاية الآخرين بشأن مصاحبتي لـ "شديد"، أصاحب من أريد، وأُقصي من لا يناسبني، مؤخراً أحاول إقصاء "بابَنوس" والتهرب منها رغم أنها أكثر من استمتع بصحبته، لكني بت أخجل من لعبتها المفضّلة "صكج بكج"، عندما يحول رذاذ المطر في الخريف ساحتنا الترابية إلى معجن طيني، تعوس "بابَنوس" الطين لتصنع بيتاً، تظن أن بيتها الطيني قصر يفضح ضآلة قطيتنا الصغيرة.

كانت "بابَنوس" في صغري مسلية لطيفة، وصارت في ما بعد بنتاً خبيثة؛ تغتنم الفرصة لتسترق النظر إلى ذراعي وفخذي. لا أفعل ذلك معها. أتحاشى التفكير بأنها صارت مثل النساء مكورة النهدين،

عالية الأرداف. إذا كان لا بد من اللعب والتسلي في عجن الطين وتشكيله؛ فإنه مع "شديد" أجدى وأنفع، يليق بالرجال لا بألعاب البنات.

يصحبني "شديد" في مهمات متقطعة، أعتقده نبيهاً منجزاً ولا يروقني اتهامه بالغباء، واستصغار عمله، حولني إلى شاب منتج، نؤجر أنا وهو جهد سواعدنا في صناعة الطوب على أطراف الخَرْبَقَة، حيث تأتي في بعض المواسم عربات كبيرة بدواليب متعددة تحمل الطوب الذي عجنّاه وصببناه في القوالب، ووضعناه فوق الحطب المشتعل لينضج ثم ينشف، جففناه ونقلناه إلى حيث يبني الناس بيوتاً في البلدات البعيدة. نعود أدراجنا إلى بلدتنا، وفي الجيب قروش قليلة تساعد في أن يصير الصغير رجلاً.

تناسبني رفقة "شديد" وتشد بأسي، فبعد انتهاء ساعات خدمته حارساً لحجرة السجن، يغلق الأبواب، ويودع من كان مسجوناً ملوحاً بذراعه، نادراً ما يكون لديه سجناء في الحبس. إذا حدث وسُجن أحدهم لليلة، فإن مجلس الجودية سرعان ما ينعقد ويصل إلى صلح اجتماعي مناسب، أو تتولى الحكّامة أمر السجين بأحكام متفرقة؛ كأن تجعله يخم ما حول شجرة التبلدي فينظفها من مخلفات ما تطرحه النسوة، وقد تحكم عليه بتزويد معظم القطاطي بالماء من التبلدية أو الحفرة، وتلك مهمة تسعد البنات والصبية وتريحهم من مهمات عائلاتهم اليومية. إذا كان صاحب الذنب قد أفرط في شره؛ كأن فشخ رأس أحد، أو سرق ماشية وباعها، يصل الحكم إلى حد تكليفه بحمل جرادل الخراء من الكنيف، ونقل مخلفات الناس إلى أطراف الغابة. خلو السجن في معظم الأحيان من الخطاة والجناة؛ يتيح لحارسه الترزق في أعمال متفرقة هنا وهناك.

لا يعمل "شديد" بالمعنى الحرفي للكلمة حارساً، يكتفي بالجلوس المحايد في الباب، وإذا حدث أني لم أذهب إلى مدرسة الضعين يوماً أو أياماً، رجح الجميع أني برفقة "شديد".

يكبرني "شديد كادوك" بأعوام، ربما خمسة أو يزيد، صار مهاباً على بساطته وعوراته، إذ لم يتمكن مصارع من طرحه أرضاً بتاتاً، طارت شهرته عندما اصطاد ثعبان الأصلة، وعينوه حارساً على حجرة الحبس. راقبته وقد أقعى قرب الباب الحديدي الموصد، تتدلى مفاتيحه من جيب بنطاله الضيق الذي يشي بذكورته الضخمة، يلقي على كتفه سوطه المصنوع من ذيل الخرتيت بعد نقعه بالقطران؛ كأنه لن يعمله في جسد أحد بتاتاً، شعره منفوش في كرة كبيرة فوق رأسه، باهت متسخ بهباب كرماد الكانون، يتعرق فيسح عرقه راسماً خطوطاً على زنديه المفتولين، مبقعاً "فانلته" بصفرة موشحة بالأتربة.

يدرك من يراه سبب اختياره حارساً، ليس لمجرد اصطياده الأصلة العملاقة، لكن أيضاً؛ لا يوجد في أبناء الخَرْبَقَة من يمتلك جسده، طولاً وعرضاً وكتلاً متراصة وعروقاً وأوردة نافرة مخيفة، يقع مشاهدهُ في رعب حقيقي إذا فكر أن يكون خصماً لهذا العملاق.

"شديد" جثة عريضة ضخمة، وقوة عضلية، وعقل ساذج لا يقارَن بعقل أولاد المدارس والخلاوي، لا يميل إلى حفظ القرآن أو الصلاة أو الذهاب إلى المدرسة أو الخلوة وحفظ الأناشيد وجدول الضرب، إلا أنه طيب حد العوارة(*)، عملاق عوير مسالم بريء؛ واحد من قلة لم ينعتوني بـ "جنا الحرام". رجل لا خطر منه، ذكرٌ سويّ الرغبات؛ لا يشتهي الفتيان ويحب ركوب النساء عامة. بينما يمنح مشاعره وعاطفة رقراقة تسهده وتبكيه لواحدة فقط؛ يتلصص على ابنة "باسالم" الصغرى؛

(*) البلاهة

ويشتهيها، وهي عصية المنال حبيسة البيت والتقاليد. ظن أنه لو تحول إلى رجل منتج كأولاد اليماني سيصير أهلاً لمصاهرته، لهذا يعمل بلا انقطاع في أيّ حرفة أو مهنة تتاح له، آلة عملاقة لا تكل.

أسَرّ لي "شديد" بوجد وتنهيدة عميقة بعشقه للبنت اليمانية "أروى".

"البت الحمرا الصغيرة دي!"، قلت في ما يشبه العجب.

قال زافراً نفَساً حاراً:

- *أيوه.. زمان كنت داير أختها الكبيرة "بلقيس"، لكين الله يسامحه عمي باسالم؛ عَرّسها في الفاشر.*

لم أُفشِ سرّ صاحبي المتيم لـ "بابَنوس"، فمن يعلم؛ قد تثرثر به لـ "أبَّكر" فتقوم الدنيا ولا تقعد، النسْاء ثرثارات، ما عدا الحكّامة و"ستْ النفر". في كل الأحوال؛ لم يكن "باسالم" سيزوج أياً من بناته الحمر ناعمات الشعور صغيرات الأنوف في خَرْبَقّتنا، لا أمل لـ "شديد كادوك" المسكين في البنات العربيات اليمانيات الحمر اللواتي يعشقهن تباعاً، وإن جمعته قرابة بعيدة بالأم التومة.

يحبس "باسالم" بناته في بيته حتى البلوغ، ثم يوزعهن عرائس لليمانية أصحاب الدكاكين. اقترنتْ كُبْراهن "سلمى" بشيخ تجار بلدة نيالا، وكان نصيب الوسطى "بلقيس" في الفاشر. غالباً ما يدّعي أبوهن أن البنت مكتوبة منذ ميلادها لابن عمها، رغم أننا لم نعرف له إخوة، لكن كل من يأتي من "يمنهم" هو ابن عم؛ له الأولوية. كنا نعرف أنه بتلك المقولات يزهد العرسان السودانيين في بناته، ويوقفهن على أبناء جلدته. كما يقطع "باسالم" بأبنائه الذكور البلدات والسكك ليزوجهن باليمانيات، فعل ذلك مع "أبَّكر" و"علي"، فجاء الأول بعروسه إلينا، وذهب الثاني ليقيم في أم درمان حيث أهل زوجته.

إذا لمح العملاق "شديد" محبوبته السرية خلسة تحول إلى وحش مسعور ينفجر رغبةً، هرع إلى الغابة حيث في شمالها قطية البنات البطّالات. يمنح إحداهن جنيهات قليلة ويعاشرها ليلة كاملة، وقد يعاشر أكثر من واحدة؛ ينتقم من حرمانه من البنت التي يهوى، البعيدة كما نجوم السماء. تسامحه البطالات أحياناً في أتعابهن، وهن يعرين أعضاءه العملاقة ويتضاحكن، ليس لهذا الذكَر غرضٌ فيّ. لكنه يحب صحبتي لأني أدهش لمغامراته وتتلألأ حدقتا عيني الملونتين على نحو يرضي غروره ويفرحه، كما لا أتعمّد السخرية من عقله القليل في جسده الكبير، وأحفظ أسراره الصغيرة التي يهرف بها.

أجلس بعيداً أراقب القطية التي دخلها وأسمع ضحك المرأة المبتهجة، وخوار الرجل وصيحات اللذة، ينقطع تنفسي وأنتهي في مكاني من دون أن أجرؤ على استحضار "فاطمة"، أدعي أن دخول قطاطي العاهرات ممارسة لا تليق بابن الخلاوي، وللحق؛ أخشى في أعماقي أن تقوم البنات البطالات الملعونات بمقارنة مجحفة مخجلة بين جسدي الفتي وجسده العملاق، أو يسخرن من لون عينيّ، لم أكن جاهزاً بتاتاً لمعاشرة امرأة، أتدبر شؤوني بنفسي.

يُخجلني جسدي فأكفّ يدي، وأهرع إلى كلام الله، أقرأ بقلبي ما حفظت من آيات القرآن حتى تنتظم أنفاسي.

يخرج "شديد" فرحاناً، ونسير معاً من دون أن أنظر إليه، نحتاج إلى زمن لتناسي واقعة دخوله قطية البنات، تُشتت الغابة أفكارنا وتشغلنا في كونها الغريب المكتظ بالأعاجيب، نمرُّ بين الأغصان المتعالقة التي جفت وكأنها سيوف مشرعة، بارزة وحادة، تجرحني حين تشحط كتفي أو خاصرتي، بينما تنكسر فوق جلده السميك، نمرُّ صامتين، منشغلين بإبعاد ما يسد طريقنا من فروع وأخشاب نسمع تكسرها وتهشمها بين

أيدينا وتحت أقدامنا، ندور حول شجرة الهدليج الضخمة التي لا يقطعها منشار، نلوك بمتعة حبات القنقليز الحامضة وثمرة المديكة الصفراء الكبيرة المحتارة بين الطعم الحامض وحلاوة مزززة، نلعب؛ نطلق أصواتاً نُفزع بها أسراب طيور السِنبر والقطا، نهشها من أعشاشها؛ تصفق أجنحتها بقوة فوق رؤوسنا. نراقب بصبر عجيب الحرباء تتلون خضراء فوق الورق الأخضر، بنية فوق الجذع، صفراء في التراب. إذا ران الصمت علينا سمعت هسيس الغابة واضحاً حين يموج الهواء حول أوراق الشجر أو يصنع له معبراً بين الأغصان، الكون يتنهد ويتأتئ ويتنفس، هسسس.. يمكنني سماع رجع ارتطام الورقة بالورقة، والنسمة بالجذع.. هسس.. يمكنني الشعور بعيون الشجر، العيون تلاحقني وتتلصص عليّ وتواجه "شديد"، قالت الحكّامة:

- *لكل شيء عين ترى.*

يمل "شديد" من الصمت إذ يطول، يطلب مني إنشاد ما تعلمته في المدرسة، لا تناسب أناشيدي المكان، أتخيل الشاعر التونسي "أبو القاسم الشابي" جالساً فحراً عند سيل ماء رقراق حوله أزهار ملونات، في مكان ساحر كتلك الأماكن التي تحلم "بابَنوس" بها، يرعى أغناماً ويداعب ناياً في سهل أخضر:

- *أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهاه... فتمطى الزهر والطير وأمواج المياه... قد أفاق العالم الحي وغنى للحياة... فأفيقي يا خرافي وهلمي يا شياه.*

أصدح بكلمات التونسي عصراً في غابة إفريقية حية معتمة ملتفة الأشجار غامضة، ترقبنا فيها عيون حيوانات خائفة ومخيفة، ظاهرة وباطنة، لكنها أبعد ما تكون عن الخراف والشياه الطيعة، وخرير سيل الماء، والأزهار الملونات.

يصفق "شديد"، ويضحك مثل طفل ألقمته أمه ثمرة ناضجة، يحب حكايات المدرسة وأناشيدها التي لا يتمكن من حفظها. أنشد قصائد مفرحة ونحن نجمع الصمغ عن جذوع أشجار السنط أيضاً، هذه المهمة الموسمية تنفحنا بقروش قليلة، تكف لسان "حَوّا" عني وهي تراني أتحول تدريجياً من فتاها المرعوب إلى رجل منتج. أتعلم مع "شديد" أن لعرقي وفعل كفي ثمناً، قلة من رجال الحَرْبَقَة يميلون إلى العمل بأيديهم، يتركون النساء يتولّين الكسب ويأنسون لجلسات الانداية الطويلة، لكن ابن "حَوّا"، ربيب الحكّامة، رضيع البهيمة، يبحث عن مكان له تحت الشمس، عن مهنة تدمي كفيه.

سأمتهن مهنة "شديد" مستقبلاً، لا أقصد حراسة حجرة السجن، ولا المصارعة، ولا عجن وصب الطوب التي علمني إياها وأكسبني بها بعض القروش، ولكني أرغب بمهنة اختبرت فيها لذة الرعب والشجاعة، والزهو بالانتصار، تلك مهنة صيد الأفاعي، الأفاعي الحقيقية؛ ثعابين"الأصلة" و"أم نوام"، لا ذلك الدبيب الصغير الذي ينسل إلى القطاطي.

ظنت الحكّامة لزمن أني سأمتهن مهنة عالية المقام فأصير فكي الحلة. سخرت أمي الخرقاء من الأمر قائلة:

- *من وين فكي؟ ناس الحَرْبَقَة الشياطين ديل أصلو ما بخلّوا جنا حرام يبقى فكي عليهم.*

لا ألومها على صراحتها القاسية، كأنها صقر الجقر(*) الجارح ينشب أظفاره فيّ بشراسة، لقد تعودت "حَوّا" بسط الحقائق من دون رهافة أو مراعاة لأحاسيسي، وأنا في الحقيقة لا أعرف إذا كانت لدي أيّ أحاسيس مرهفة. هذا ما تحاول الحكّامة بعثه داخلي وإقناعي به أو

(*) نوع ضخم من الصقور

تدريبي عليه، فأستجيب قليلاً؛ لعلّي مهذَّب فقط ولا أجاهر بخذلانها، لا أخبرها بموت أحاسيسي تجاه نعتي بتلك الصفة المعيبة، ماتت حساسيتي تماماً مثلما يموت البشر، وعبرت شجرة النداهة منذ ولادتي مثلما عبرها الموتى. هذا لا يعني أني أعيب على "بابَنوس" حساسيتها. على العكس، أحب لطفها وبريق عينيها وهي تحدث القمرة أو تطارد الفراشات الملونة أو تغني. نصحت "شديد" أن يتزوجها، فحك أسنانه العريضة البيضاء بمسواكه صامتاً، هكذا فهمت أن لا غاية له بأختي "بابَنوس"، سخرنا منها معاً حين استنكرت إطلاقنا اسم "أب نوام" على الغابة، كانت تفضّل تسميتها اسماً رومانسياً أبله، واخترنا تدليل الغابة بما يشي باكتظاظها بأفاعي "أم نوام" الشهيرة التي نخرج لاصطيادها، تلك هي المهنة التي أرغب بها.

صاد "شديد" منذ أعوام أصلة ضخمة من نوع البوا، كان يافعاً بلغ للتو مبلغ الرجال، لف يمينه بجلد صغير الغنم "العتوت" الذي سُلخ منذ أيام وما زال يفوح برائحة الدم واللحم وقد نتنت. سار "شديد" في الغابة حتى جحر الأصلة العملاقة التي شوهدت في موسم سابق تمد عشرة أمتار من جسدها الغليظ، وتبتلع غنمة هرست عظامها بالتفافة رشيقة محكمة حولها، كان موسم بياتها، مع ذلك لا يجرؤ أحد على انتهاك خصوصيتها وهي نائمة، أنثى الثعبان ولود، وفي الجحر بيض تخشى عليه وتحميه، أيّ اختراق لجحرها سيوقظها من سباتها فتلتف حول المعتدي على خصوصيتها برشاقة لتعصره حد الموت. الشجاع فقط من يقدم على المغامرة؛ الشجاع أو المجنون، وكلتا الصفتين تليق به.

تجاهل "شديد" خوفه أو أنه لم يَخَفْ أساساً. انزلق أمام أعين الواقفين في فوهة الجحر كما يفعل كبار الصيادين المحترفين؛ ماداً ذراعيه أولاً، حاملاً في يساره شعلة نار ظلت تنوس وهو يوغل في انزلاقه حتى

اختفى عن أعين المراقبين الخائفة، ما عدا أصابع قدميه العاريتين ومشط رجله وقد شدت أعصابه، ووقف الصحب راجفين؛ مستعدين لسحبه إذا ما خابط بقدميه أو استشعروا خطراً.

كشفت له الإضاءة الشحيحة في نفق الجحر جسد الأفعى مكورة أسفل الأرض وكأنها جبل مفرطح، حركت رأسها تستشعر تسلل دخيل إلى بيتها، فتحت عينيها تبرقان في العتمة وقد التقطتا وهج الشعلة، ودب فيها الذعر كما فيه، مدت رأسها مستفزة مستنفرة، مد ذراعه المحاطة بجلد العتوت المدبوغ فخاً مغرياً، فتحت فاها على آخره أبيضَ لزجاً ونفثت فحيحاً دافئاً كالنار، ثم انقض الفم المفتوح ملتقطاً الذراع في دهشة بارعة. سقطت الشعلة النائسة من كفه اليسرى وببراعة أذكى وحسم، أطبقت يسراه بقوة أسفل الرأس الذي حاول التشبث بلقمته الحية، انتفض الجزء الأعلى من الحية يحاول إفلاتاً لكن يد الرجل أحكمت إطباقها على الجيد والرأس، وفقدت الأصلة قدرتها على المعافرة والالتفاف في الحيز الضيق. في الخارج حيث الرجال الخائفون، خبطت قدماه التراب معلنة أوان سحبه، شَدّوه مهتاجين يصيحون متعجلين خروجه:

- *تبر تبر تبر تبر*(*)..

برزت قدماه ثم جذعه ثم كتفاه ثم رأسه، ثم ساعداه وقد أفلتت اليمنى من العضة سليمة، وأمسكت اليسرى برأس الثعبان الكبير الذي سحب جسده الضخم وراءه متخبطاً لا حيلة له، وسط هتاف وتصفيق وصراخ انتصار، تمكن عشرة رجال من السيطرة على الجسد الثعباني المرقط، ربطوا الرأس والفكين ثم ذبحوا الأفعى وحولوا لحمها إلى وليمة شهية للنساء والأطفال.

(*) بسرعة بسرعة

سلخ "شديد" اثني عشر متراً من جلدها الجميل، جففه بالملح والماء وأشبعه بالدهن؛ مانعاً اهترائه، ومن ثم باعه بثمن مرتفع لتاجر في سوق أم درمان.

لم يقيض لنا في رفقتنا ملاقاة جحر أصلة كما حدث معه تلك المرة اليتيمة، صبرت آمل وأنتظر، صدّقت الذين قالوا إن حجاب "ضامن عشرة" الذي ربط في أعلى زنده بحبل من الجلد معلقة به ثمرة بنية انسيابية ومعكوفة في طرفيها، مخططة بخيوط بيضاء محلّاة بالخرز، ضُمّت مع سكّين صغيرة، هو حجاب يقيه خطر سم الأفاعي كما يعم سحرُه ليقي عشرة آخرين يجاورونه أو يرافقونه. صدّقت في أعماقي أني مضمون بسحر الثمرة المجتثة من قلب الأرض، وإذا كان الرجال يخافون تجريب إيمانهم، فإني أخوض التجربة.

تعلمت منه كيفية اصطياد أم نوام، تلك الأفعى السامة الخبيثة التي منعت كثيرين من الدخول إلى الغابة، ولأننا نصطادها في غير موسم بياتها، فإن الأمر يحتاج إلى شجاعة منقطعة النظير، لا أزعم أنها بعض صفاتي، ولكني أسير في دربها وأطلبها، وفي الخفاء أستمتع بكل ذلك الخوف الذي ينشب في صدري ونحن نعرض حياتنا للخطر، متعة تضاهي غياب عقلي واهتزاز جسدي ونشوتي وأنا أُقعي في الغابة بحثاً عن لذة الجسد.

ليست القروش الكثيرة التي نجنيها سبباً مباشراً لإقبالي على تلك المغامرة المجنونة، ولا حتى ما صار يروج بشأن شجاعتي مما يغسل عني عار التصورات السابقة التي رافقت طفولتي، كذلك ليس لشعوري بمتعة تحدي "حَوّا" والحكّامة في كل مرة نخرج فيها إلى الغابة نصطاد، ولكن للذة الخوف ينشب أظفاره في صدري حتى أُوقن أني متُّ، لا نفَس ولا قلب يدقّ. ثوانٍ ثم يعلو ضجيج قلبي كأنه أفلت من الشيطان.

شجعني "شديد" مؤكداً أننا سنجني مائة دولار كاملة إذا تسنى لنا اصطياد أم نوام، وسنتمكن من جني أكثر من هذا المبلغ الخرافي إذا بعنا صيدنا لتاجر من أم درمان أو خواجا أجنبي، حيث ستتحول فريستنا إلى أكثر من ثلاثين زوجاً من الأحذية الفاخرة التي يرتديها أبناء المدينة والخواجات. كل تلك الحكايات عن النقود لم تَغْنِنِي، لا يخيفني ما يقال عن الثعبان الذي يبتلع فريسته من دون أن يعضها لأطول مدة ممكنة لتتحلل في جسده بينما ينام في سبات طويل، لا يمكن لثعبان ابتلاعي، آمنت بعرق "ضامن عشرة" السحري المربوط في زند صاحبي يحميني، كان يكفيني تعلم تقنية الصيد، والحذر والسرعة لأصير بارعاً، وقد صدت ثعباني بعد مراقبة دقيقة لاصطياد "شديد" ثعبانه.

قضينا يومين في الخلاء، شرق الخَرْبَقَة، حيث أشجار شوكية صحراوية متفرقة. رأيت جحر أم نوام مدبباً على الرمل، فوهته مخبأة بعناية في تجويف رملي. كانت فتحة الجحر ضيقة وممره أضيق مما لا يترك مجالاً للدخول إلى الثعبان، ولا بد من إخراجه إلينا، وليست أم نوام أفعى حمقاء، فهي تلبد لنا كما نلبد لها ولن تخرج لأي جسد يتحرك.

لففت قدميّ بدمور لفات عديدة، أثقلتها عند ركبتيّ، ثم تمددت على طول جسدي مقابل جحرها كجثة هامدة، فشخت قدميّ متباعدتين، وهيأت في كفي سكيني برأسها الحادة ونصلها المسنن. تنفست بعمق، وحبست أنفاسي، وسكن جسدي كشوال ألقي هناك؛ أسمع قلبي يقرع كطبل، وتهتز أجفاني فرقاً، وتوشك روحي على مغادرة جسدي. لكني دخلت التجربة غير عازم على التراجع.

سمعت وشيش جسدها يتسحب فوق الرمل متقدماً بحذر، فغمرت الدموعُ جفنيّ، أحسست كتل الرمل تنزاح أمام انزلاق جسدها الأملس وهي تتقدم مني. توقفت أم نوام في الوسط تماماً؛ ستختار قدمي اليمنى،

بل اليسرى. انحرفت يساراً، وبرد جسدي كما ميت، وسمعت فحيحاً يخرج من فم لزج ينفتح على آخره، ثم يقترب دافئاً لاقماً أصابع قدمي، متقدماً ببطء يتسلى بابتلاع جسدي، دخلت قدمي اليسرى فيها كأنها تلتف بثوب دافئ مبتل. تذكرت الله وتشهدت في ضميري، وثقلت ذراعي حتى ظننت أني مت حقاً، واصلتْ أم نوام ابتلاع قدمي، حين بلل لعابها اللزج حدود ركبتي، قريباً من مهوى كفي؛ تحررت مخاوفي، ورفعت يدي وسكيني، وأهويت ببراعة على الرأس المستمتعة بوجبتها فحززتها بعنف لا يترك مجالاً للخطأ، لم أمهلها لتغرس ناب سمها في لفافة ركبتي القماشية، شل فمها واضطرب جسدها وعافر قبل أن يحز رأسها بالكامل وأنا أرجع جسدي إلى الوراء بعزم وقوة ساحباً قدمي من جسدها المضطرب، معفراً ثيابي والرمل بدمائها.

سمعت صيحات "شديد" الذي كان مقعياً مراقباً متحفزاً تحت شتلة شوكية قريبة؛ صيحات فرح وابتهاج، لم أتمكن من مواكبتها، وقفت على قدمي أرتعش وأتصبب عرقاً، وفريستي تتلوى وتتخبط أرضاً منزوعة الرأس، احتجت إلى لحظات بدت لي عمراً طويلاً، لأتيقن مما حدث، ومن أنني فزت بصيدي.

عدنا إلى الخَرَبَقَة منتصرين، وظل "شديد" يصف فعلي ويهول ويدمدم مصفقاً ممثلاً بجسده الكبير ما فعلته، احتفلت "حَوّا" بي كأنها لم تنهني وتلومني قبل ذاك. نفحني "البخيت" مائة دولار أمريكي عداً ونقداً لقاء جلد الثعبان، حيرتني النقود الكثيرة التي لا أعرفها، فبدلتها بجنيهات سودانية من "أبَّكر"، هكذا أوفينا النذر الذي قطعته أمي مكفراً عن فعلتي عندما قدتها مرغمة إلى شيخ الزيانة ليقص قنبوري من دون إيفاء نذرها، ذبحنا عنزةً عتوتاً صغيرة؛ أكلنا نحن والصحاب من لحمها في احتفال صاخب، كما منحتُ "شديد" حصةً نقدية كريمة، فلولاه لم تكن مغامرتي التي توجتني رجلاً.

رقصت أمي مزهوة بفعلي، تقافز فتيان الخَرْبَقَة الذين سخروا مني في الماضـي في رقصـة الطعـان مبتهجـين بـي، وتضـاربوا بالسـوط ضـاحكين مستعرضـين صـبرهم الـذي لـن يقـارب أو يشـابه صـبري علـى الـذعر مـن فحيح أم نوام وهي تبتلع قدمي.

أثـارت رفقـة "شـديد كـادوك" الشـكوك بـي في بـدايتها، ثم أثـارت شكوكي به في ما بعد. ظننت أننا قطعنا شوطاً طويلاً وبتنا أقرب مخلوقين بعضنا إلى بعض، تصورته حافظ أسراري التي لم تنشأ بعد، كما أنا حافظ أسراره، نستمتع معاً بلحس رغوة المريسة في القرعات الطافحة، نحتاج عند ملاحقة الدبايب وصيدها، ونحصل قروشاً قليلة في جمع الصمغ، ونتسلق شـجرة التبلـدي أحيانـاً لـنجلس علـى فرعهـا القـوي نرقـب الغاديـات إلى حفـير المـاء، أغـني لـه أناشـيد المدرسـة، ويبكـي شـوقاً لـ "أروى"، ولكـن "كـادوك" انقلـب علَـيّ؛ أعـود مـن الضـعين ولا أجـده في بـاب الحـبس، يغيب أياماً ثم يظهر؛ رافضاً الإفصاح عن مغامرة غيابه.

لم تكن زيارة البطالات تستدعي هذا الغياب! ولأنه عاندني ورفض إخبـاري بمـا وراء هـذا الغيـاب، رجحـت تورطـه في حكايـة عشـق يخشـى الإفصـاح عنهـا، هـل هـي ابنـة اليمـاني؟ لـو كـان يقابلهـا سـراً؛ لماذا يغيـب أيامـاً؟ رصـدت بيتهـا في غيابـه ورأيتهـا تلاحـق دجـاج الـوادي في حـوش بيتهم، وتريق ماء غسيل المواعين على تراب الحي، وتصيح منادية شقيقها المشـاغب "سـيف"، إذاً لم تهـرب برفقـة حـارس السـجن صـياد الأفـاعي. أين هو؟

تظـاهر "شـديد" أنـه لم يسـمع سؤالي مـرات، بـت ملحـاحاً مزعجـاً وظل يؤكد لي أني أول من سيطّلع على السر، إذاً هناك سر!

استـدعى رجـالُ الجوديـة "شـديد" وأنّبـوه لغيابـه عـن بوابـة الحـبس الموصـدة، نظر بغباء ودافع عـن نفسـه بـأن أحـداً لم يهـرب مـن سـجنه في

غيابه. هددوه بقطع المبلغ الذي يتقاضاه، فلم يُبْدِ اهتماماً، قال لي في ما بعد إن احتياجاته بسيطة وإنه ليس عبداً للحودية، ولن يضيره فقدان مبلغ تافه كهذا، فرزقه على رب العباد، ولكن أين تختفي يا "كادوك"؟

لم أفهم من التلميحات العابرة حين يبدى صديقي حرصاً علَيّ أو يقول إني ما زلت صغيراً. تصطحبني إلى جحور الأفاعي السامة الخطرة، وعمل الرجال الشاق في جمع الصمغ وتشكيل الطوب، وإلى كوخ النساء العاهرات الذي يرتاده الرجال البالغون، ثم تقول إني صغير على معرفة سرك الجديد!

لم يمض وقت طويل حتى انكشف السر، كشفه "شديد" بنفسه حين عاد يمتشق علناً بندقية كلاشينكوف، حارس السجن الذي لم يحمل في مهمته غير سوط جلد الخرتيت، وسكين مشرشرة يستبقيها لسلخ الأفاعي وتعميق فجوات الأشجار التي تنز بالصمغ، عاد بسلاح مميت. لم يكن سهلاً إخفاء بارودة كلاشينكوف. وللحق لم يكن يريد إخفاءها عن عيوننا، فهو يمشي متباهياً بها، ويزجر الصغار الذين تبعوه يحاولون تلمسها مندهشين.

عم الخَرْبَقَة خبر ظهور البندقية، طار صواب الحكّامة وأرسلت "بابَنوس" تستدعيه إليها في قطيتها، كنت مقرفصاً قربه وهو يشرح لي بفخر مزايا سلاحه الجديد، يسمح لي بتحسس المعدن البارد اللامع للطلقات التي يعبئها في مخزن البندقية، ثلاثون طلقة يمكن تعبئتها، كما يمكن إعادة ملء المخزن الفارغ في أقل من ثوان ثلاث، وعدَ بتعليمي كيفية فك سلاحه وتركيبه، مؤكداً أن المبدأ الأول هو أن آخر قطعة تفكها هي أول قطعة تركبها. أدهشني وهو يتحسس ماسورة البندقية الطويلة، وذراعها الخشبية، بدا عاشقاً مزهواً بنفسه، تباهى بسرعة بندقيته

التي لا ترى طلقتها في الهواء، عدا إمكانية إطلاق ستمائة طلقة في الدقيقة. فغرت فمي دهشة، وحبست السؤال الأبله: هل تريد أن تقتل ستمائة رجل في الدقيقة؟

إذا لم تكن بندقيتك للأفاعي ولا للطيور، فمن ستقتل يا "شديد"؟

وقفت "بابَنوس" تراقب بفضول ولكنها استعجلت الرجل لموافاة الحكّامة، لم يتورع "شديد" عن اصطحاب بندقيته، قال إنها ستصير مثل ظله لا تفارقه.

افترش "شديد" الأرض والحكّامة جالسة على البمبر السعفي المجدل، يحيط بها "باسالم" وابنه، لا بد أنها استدعتهما حكمين قد يعرفان شيئاً عن السلاح، استنكرت الحكّامة على "شديد" استجلاب المصائب عبر سلاحه، ولم ينكر بدوره انضمامه لجماعة جيش تحرير السودان الذين دربوه واصطحبوه إلى معاركهم، وأمدوه ببندقيته. ولأني كنت مندهشاً وفضولياً حين قلّب "باسالم" البندقية بحثاً عن مكان صنعها وهو يرجو ربه ألاّ تكون مصنوعة في "إسرائيل"، بدا مطمئناً لحظة عثوره على رسم النجمة الخماسية على بدن المقبض الخشبي، وعرضه قائلاً:

- *هذه صناعة روسية.*

نظرتني الحكّامة بحسم وطلبت مني مغادرة الجلسة والالتحاق بالنسوة في المطبخ، ولكني سمعت لومها الحارس لتعريضه أمن الحلة للخطر، وكلاماً عن أن السلاح لا يُحمل للمباهاة، بعدها تعذر سماع ما يقولون.

وقف "شديد" وقَبّلَ رأسها، ولكنه ثبت سلاحه على كتفه مجدداً ومضى يتبختر من جلسته إلى باب الحوش عابراً القطاطي كأنه طيف، طيف ضخم منتصب القامة، ليس "شديد" الذي أعرفه، لقد سار في

درب جديـدة، وهـا هـو يمضـي في حركـة أسـطورية وفوهـة البندقيـة إلى الأعلى، وأنا أفكر، هل الأصحّ قلب فوهتها إلى الأسفل، أم إن هذه هي الطريقة الصحيحة لحمل السلاح؟ وهل سيصحبني معه في ما بعد إلى تلك المعسكرات التي علمته كيف يسير بخطواته على هذا النحو؟

"ست النفر"

دبغتْ سياطُ الشمس وجنتيّ وجبيني الخشن بلطخ سود، وتقشّرَت ذراعاي فصرتُ مثل بقرة مبقّعة. أشد ثوبي حول رأسي، أصنع ملاذاً يقيني حدة الضوء الحار المنسكب من السماء المنتشر على الأرض، يبرّد لون قماش الثوب الكركمي الفضاءَ حولي، لهذا أفضّل أثوابي المصْفَرّة الكابية بلون الكركم الفاقع. على الرغم من قوة كفيّ وذراعيّ، وتحمل ظهري للثقل، فإني هشة أكثر من أيّ من أبناء الخَرْبَقَة وبناتها، تعتريني نوبات غياب عما حولي، أفقد فيها السيطرة على جسدي.

عندما يدور رأسي قليلاً وقبل الإغماءة التامة؛ يتملكني خوف من أمراض قد أكون ورثتها عن جدتي، أتذكر حكايات أمي عن مرض جدتي.

تكمن نقطة ضعفي الحقيقية وهشاشتي في بشرة جلدي، في لوني تحديداً. طبيعي كلما بهت لون الآدمي ضعفت قدراته ونهشته الأمراض. هذا ما أشهد عليه وما علمني إياه جسدي الذي يتقشر ويتبقع تحت سياط السماء الحارقة دون أجساد رجال الخَرْبَقَة ونسائها، حتى "باسالم" العربي اليماني يبدو داكناً قياساً بي، لقد تعود على شمسنا؛ وغلظ جلده، وقارب لونه مع الأيام ألوان الأغلبية المخلطة.

أعاني ألماً مبرحاً من التقشر المستمر، تساعدني حالتي على التهرب من جولات "حَوّا" في الأسواق، وإن كنت أشفق عليها وأمتثل لتعليمات

الحكّامة أحياناً فأرافقها في أوقات التحطيب، أسليّها صامتة بسماع ثرثرتها وحكايات النميمة حول نسوة الحلة، متحملة وجع قدميّ جراء المشي الطويل. أعود بحمل الحطب أثقل وأكبر من حملها، نكمل بعضنا بعضاً، وتتكل كل واحدة منا على صنيع الأخرى؛ هي بارعة في البيع والشراء وعواسة الدقيق للكسرة والرقاق، وأنا بارعة في أصعب المهمات التي يزخر بها مطبخنا الصغير.

أقضي معظم نهاري هناك، ناهيك من الليل، ألوذ بمطبخي وأقدس وحدتي. أفضّل إنجاز أعمالي عند العصر، أسمح لـ "بابَنوس" بإعداد شراب الكركديه أو الشاي عند العصر، ثم أصرفها، أحب إنجاز وصفاتي بنفسي. أنهي معظم مهماتي مع انكسار الشمس وقبل هبوط الظلام.

تقول "حَوّا" اللئيمة إني لست بذكاء الحكّامة. لا أنكر. من في ذكاء الحكّامة؟ عزلتني أمي في حياتها ومماتها عن الآخرين. إذا عانقتني، وقد كانت كثيرة العناق، سرى خوفها من جلد ذراعيها إلى خاصرتي، حتى بعد رحيلها المبكر لم أفلح في الخروج من حصار صوتها وذراعيها، زرعتْ عقلي بحكايات خرافية غريبة، كان عسيراً على الحكّامة إنقاذ روحي بالكامل. حاولت حكامتي جاهدة تحفيظي القرآن، تركتني أجالس القوم في جلسات النزاع والصلح، ثم أدركتْ بذكائها المفرط غيابي في عالم لا يمكن اقتحامه، فخففت قبضتها عني، ولكنها لم تتوقف عن رعايتي، فأنا ابنتها بشكل من الأشكال، أنال بعضاً من مهابتها بين الجميع، وأعرف أن إغماءاتي المتكررة في الطفولة؛ ولوني ونسبي المجهول، أسباب كافية لنبذي وتحويل حياتي إلى جحيم، لكن حماية الحكّامة جعلت الحياة تستقيم لي.

لغرابتي واغترابي أتوارى معظم الوقت في المطبخ، أُغرق خيالاتي وحكايات أمي في حلل العصيدة، أُذيبها في مشروب الحلو مر الحامض الذي صنعت.

تصيح الحكّامة مرات خلال النهار منادية:

- *ست النفر.*

أجيبها:

- *في المدبخ.*

تعرف أني في المطبخ، ولا تكون بحاجة لي؛ لكنها تتأكد أن غيبتي عن الدنيا لم تطل، وأني ما زلت قادرة على الحضور حين تنادي.

استسلمت الحكّامة في وقت مبكر إلى استحالة تدريب عقلي على مهماتها، وتقبلت غياب ذهني في معظم الوقت، ودهشتْ في الوقت نفسه لمهارات يدي، وقدرتي الفائقة على الأشغال المرهقة؛ إشعال الموقدة والتحطيب، رفع حلة الذرة المسحوقة واللبن فوق النار وتحريكها بالمفراكة حتى تتعصد، فرك الملاح واللوبيا في قعر المحراكة المقعرة بالحجر حتى يصير لزجاً، إعداد ثمار القرع للبيع، بلها، وتقحيفها، وكحتها جيداً، وتنشيفها حتى تزول المرارة، ويبقى ذلك المذاق الخاص المزز للشراب حين يصب في القرعة، نبيع كثيراً من القرعات المعبأة بالحلو مر أو الأبريه أو المريسة التي أصنعها بمواصفات عالية، يحب المجتمعون على الدكة طعمية اللوبيا والفول التي أعدها بخليط زيت السمسم والكمون والبصل والطماطم؛ إذا تيسرت لنا.

أتصرف بكرم في زمان البحبوحة، أغرف بسخاء في الصحون المباعة، وتفيض قرعاتي بالأشربة. أقلل الكميات مرغمة إذا مالت الدنيا إلى محل، أستثني زمان المجاعة؛ وقد عشته مرتين، كنت فيهما أكتفي بطبخ المديدة من دخن قديم خزنته الحكّامة، أو أعتزل مهنتي وأشد بطني بالأربطة جيداً كي لا تصيح.

ترفع الحكّامة حصة من بقايا الدُّخن ترشها وراء القطية طعاماً لطيور الزارير والقمري التي تكثر في الحي بعد المجاعة. في المجاعة الأخيرة كانت

ابنتي "بابَنوس" في الخامسة، انحبس المطر واستعصى إنبات النبت، ونفقت الماشية، مات كثيرون، فشددت "بابَنوس" النحيلة إلى خاصرتي؛ ألقمتها ثديي المتهدل تتلهى وتلوك حلمته الضامرة لتنسى جوعها. أيام أشطبها من ذاكرتي، وأعود بحماسة كبيرة إلى سخائي عند إعداد الطعام. تقول الحكّامة إني لا أتعلم من التجارب، لكني كنت أتعلم مفهوماً مغايراً عما يتعلمه الناس، وأراهن على اللحظة التي تصل فيها أيدينا إلى الطعام كأنها اللحظة الوحيدة، لا أميل إلى مفهوم التخزين كتاجرة شاطرة، فتقوم الحكّامة بالدور وتنقذنا في كل المواسم.

يُحمل معظم ما أعده للبيع، أنقله إلى السوق أنا و"حَوّا"، ثم أتركها هناك تبيع وتفاصل تحت وهج الشمس القاسية التي لا أحتملها، ترافقها "بابَنوس" أحياناً، فتتحجج الحكّامة بأسباب مختلفة لتمنع البنت من الذهاب؛ بخاصة بعد أن نهدت، تعتقد الحكّامة أن مهنتي لا تليق بابنتي، تفضّل إرسالها إلى مدرسة بلدة الضعين البعيدة برفقة "آدمو" وأطفال آخرين، يقودهم دائماً "أبّكر ود سالم". حين لا يتسنى له مرافقتهما في الطريق الموحشة المخيفة، أرفض بحزم إرسال ابنتي و"آدمو"، فتحترم الحكّامة مخاوفي وتكتفي بتحفيظهما القرآن في قطيتها.

يجتمع الأصحاب على الدكة الطينية الصلبة، وأجيء بصحن الفول اللذيذ وأوزع بينهم الكسرة التي خبزتها من الذرة، أراقبهم صامتة يغمسون أصابعهم في الصحن ويتحدثون، طقطقة مضغهم ولتات ألسنتهم في أفواههم يقطعان تأملي وغيابي. كثيراً ما يكون صمتي سبباً لسخريتهم، لا يصيبني الحرج مما يهرفون، فهم يداعبونني على طريقتهم، وأنا لم أعد كما كنت طفلة؛ مدعاة للشفقة كثيرة الإغماء. أتجاهل تعليقاتهم وأنصرف إلى خيالاتي وحبات اللالوب العاجية المستديرة والإبرة والخيط في يدي، رغم العتمة التي هبطت فشوشت بصري، أتحسس الحبات

بأصابعي، وألضمها بحرص في خيوط لتصير مسابح تبيعها "حَوّا" لصالحي في ما بعد، اشترى "باسالم" مني مسابح اللالوب أيضاً، وباعها في قرى بعيدة كي لا يؤثّر في رزقنا في المكان.

يعتاش بيتنا المكون من قطية الحكّامة وقطيتينا أنا و"حَوّا"، على أرض تزرعها الحكّامة، نتقاسم ريعها كما نتقاسم ريع ما أطبخ من أطعمة أبيعها، وسلال وأسبتة أجدلها ببراعة. تقوم "حَوّا" بدور البائعة النشطة في الأسواق، أشاركها قبل شهر رمضان، فالعمل يتزايد في يوم خم الرماد؛ يوم البيع الأعظم قبل رمضان، ينشط البيع وتتعدد المطالب، عندها أقبل بتوصيل الطلبات إلى البيوت والقطاطي المحيطة.

"حَوّا" أكثر جسارة مني، جريئة إلى حد مغادرة الخَرْبَقَة أحياناً من دون إعلام الحكّامة، تبيع بضاعتها لسكان الغابة القريبة أو تجمعات الجلابة وبيوتهم المتناثرة في الأرجاء. بينما أميل إلى وحدتي، يسكنني خوف هجوم النوبات الغامضة علَيّ وأنا بعيدة عن الدار، أفضّل لقاء "تاجوج" التي تسمح لي بالوحدة في رفقتها، فهي دائمة الكلام، بخاصة بعد عرسها، ولا تكتشف صمتي في رفقتها وغيابي في عالمي الخاص، لا أسمع ولا أتكلم.

عادة لا أتكلم كثيراً، أتمتم ما ينقل أقل القليل عن مهماتي، ولا أسمع بدقة حين يكثر لغو الآخرين، أعجز عن التركيز إذا تعلق الأمر بحفظ الكلام، رأسي يطن كأن منحلة دبابير حُشرت تحت شعري الرمادي الأغبر، كان الطنين يلقيني أرضاً في الماضي، تبدو المنحلة اليوم أكثر رأفة بي.

رماد شعري ليس كهولة مبكرة، ولا لوناً كاشفاً مقيم أكلون شعر أمي، لكن رماد الموقدة يترك أغبرته فيه كما عجاج تراب الحوش، يمكنني استعادة لونه ببلّ مسائري المضفّرة بالماء أو مسحها بزيت السمسم. تحت

رماد الشعر وفي قلب جمجمتي الصغيرة، وراء الصمت، يهذر خلط مخيف من الكلام، تختلط حكايات أمي بصور مرعبة، كما أسمع مَطْقَ شفتَيّ "ماديو" الغليظتين وهما تعجنان لحم زندي، ولهاثه وهو يغازلني برطانة لا أفهمها.

أمي و"ماديو"، خرج كلاهما من حياتي على أرض الواقع، واحتل صوتاهما رأسي بنسب متفاوتة تميل إلى صالح أمي، أما في حالة التركيز على ما تصنعه يداي؛ فلي شأن مختلف، يغيب الصوتان وأتحول إلى آلة دقيقة، أرفع خليط الطحين والسكّر والسمسم ومسحوق الفول والبهارات على النار، وأتركه يغلي طويلاً ليصير مديدة نستحلبها فتطفئ الظمأ وتنشط البدن؛ بينما أقوم في اللحظة نفسها بفصل حُزَم سعف الحنقوق إلى نوعين، أشد النوع الضكر(*) منه في أحزمة ليصير مقشة، وأبلّ الإنتاية(**) وأدقها ثم أفتلها فأصنع للقفّة عروة ويداً، تباع القفف بسعر أعلى من المقشات، لا أحبذ تزيين القفف والأسبات والأطباق السعفية بالخرز والسكك الملون كما تفعل "حَوّا"، زيادات لا معنى لها، ولكني أحب تلوينها؛ أستخرج سائل الكوبيا الكثيف من قلم الكوبيا، أغليه على النار، وأغطس فيه السعف لأحصل على اللون البنفسجي الزاهي، أجدل السعف صانعة البرش الملون، لا مثيل للبروش التي أصنعها والتي يمكن بيعها في أي مكان خارج الخَرّبَقَة؛ تبدو بهية متقنة كما لو أنها استُوردت من الخرطوم.

علّمتني الحكّامة الدقة والكمال في العمل، ليس لأنها لا ترضى بغير الكمال، فهي تتعاطف مع النقص دائماً؛ ولكنها تقوم بالإنجاز كاملاً.

(*) الذكر

(**) الانثى

تعيب علَيّ "تاجوج" انغماسي الطويل بين أطباق القراصة وحلل العصيدة والملاح؛ تسخر من قذارتي؛ إذ أرتدي الثوب ملطخاً على الدوام، تفوح مني رائحة الويكة العفنة وعطن الباميا المجففة المسحونة. لـ "تاجوج" أن تسخر ما شاءت لها السخرية، فهي على خلاف بنات الحلة تظن أنها شديدة السماحة والملاحة والنظافة، منشغلة على الدوام بربط مسائرها بالخرز والترتر الملون، منصرفة لتدليك جسدها، وتبخير فرجها، ورسم نقوش الحنة على كفيها ورؤوس أناملها وقدميها حتى منتصف سمانة القدم. بدأ وهمها حول ذاتها مبكراً للغاية، كنت شابة يافعة وهي طفلة، ولكني راقبت حماستها المندفعة وإصرارها على الحكّامة مرات ومرات لإسماعنا الحكاية الشعبية، حكاية تاجوج الجميلة وعاشقها المحلّق. لعبت الحكاية برأس تاجوج حلتنا التي لم تكن جميلة حقاً، فأسنانها معوجة متراكبة، وعيناها صغيرتان حتى لا ترى بياضهما، ولكنها بوحي من الحكاية الأسطورية؛ أوهمت نفسها أن كل تاجوج لا بد أن تكون جميلة، يهيم بها العشاق كما المحلّق يحب فاتنته التي تحمل اسمها، لم تكن وحدها واقعة تحت سحر الحكاية، تطامن الرجال معها أيضاً، عشقها "السر" الشاعر البوهيمي النحيل بعد أن تقابلا راقصين في رقصة الهجوري، قفزت أعلى من كل البنات لخفتها فسرقت قلبه، راحا يلتقيان عند حفيرة الماء، ويقول فيها شعراً يفضحها، ويلاحقها متيماً مجنوناً، صدّقته موهومة حين وصفها بـ "فصُّ الماظ مركّب فوق مجمّرْ".

وعشقها "البخيت" أكثر الرجال سمنة وغياباً للمنطق، فإذا بها تختاره حليلاً لها، عندما أبديتُ تعجبي من اختيارها العاشق الثقيل العوير(*)، واستبعاد "السر" الشاعر الشاب النحيل ولد المدارس. قالت إنها تاجوج "فص ألماظ" لا ترضى بالقليل، لا يكفيها بعض الذرة والملح؛ مهر

(*) الغبي

العروس في زمان ماضٍ، فللعروس مطالبها اليوم، من أين سيأتي "السر" بلوازم العرس؟ الخُمرَة والدلكة والذهب والبخور والثياب التي تتراقص فيها خيوط فضية! عرضتْ أمامي مزهوة قرطين فضيين أعطاهما لها "البخيت" هدية، يتدليان من شحمتي أذنيها علانية كأنه حليلها، ولم يسألها أحد من أين أتت بهما، كما لم يعارضها أحد وهي تتباهى بهيام "البخيت" بها، وتسخر من وله الشاعر المتيم الفقير الذي لن يتمكن من توفير مستلزمات تكريسها حسناء الحلة! تاجوجها بلا منازع.

في الواقع، لا يعنيني ما اختارت "تاجوج"، "البخيت" وماشيته التي ترعى في السهل وحاكورته المزروعة بطيخاً وخضاراً، غويشات(*) الذهب والفضة والقلائد والأثواب الحريرية، اختارت ثراءه وصرفت النظر عن عوارته وبلاهته وسماجته. ولأني صديقتها المخلصة، وفي كل زواج في الحلة باب رزق لي، فقد أعددت لبس العروس بحيادية، زنرتها بسيور حبل الرهط الجلدية الرفيعة حول خصرها النحيل، وكان العريس كريماً، أحضر لها جهازها في شيلة فارهة من الفاشر، جلب لها شالات الفركة وثياب القرمصيص بألوان زاهية، وكثيراً من العطور، ودفع لي بسخاء لأعد لها "الضريرة"، فجلبت أفضل العطور الجافة وسحقتها لتنثر على رأسيهما يوم الجرتق(**). ضحك "البخيت" العوير بحماقة وهي تبخ اللبن وتنفث بياض الحليب من فيها فيلطخ وجهه طلباً لحياة طيبة بيضاء خالية من كل سوء وشر، بينما كان نواح "السر" العاشق المكلوم يصل المجتمعين في العرس.

لا يعنيني في شيء خيارُ "تاجوج"، ولا نواحُ "السر" وبكاؤه الذي يجاهر به، ولا الناس الذين تعاطفوا معه قليلاً لكنهم شاركوا في العرس فرحين. لم أتعاطف وأخفيت اشمئزازي من الإفراط في إظهار العواطف

(*) أساور

(**) طقوس للزفاف

حد المذلة حين جاء يطلب مساعدتي في استعطاف "تاجوج"، زجرته بعنف على غير عادتي:

- *الناس في شنو، والحسانية في شنو! خلاص؛ البت اليوم عرسا، أقنع.*

أشمئز من رجل ينوح لفقد حبيبة، أو يصيح اشتياقاً، يجن لأجل امرأة مثل "تاجوج" أو سواها. لم أحترم انهيار العاشق، ولا خيار "تاجوج" الأناني، ولا حتى فرحة "البخيت" التي تفتقر إلى الذكاء. لست مولعة بالقصة التي شغلت الحلة وسلّت نسوتها زمناً غير يسير، وإن لم أبح بأفكاري.

لا أحد يعرف ما يعتمل في صدري، فقد دربت النفس على حيادية غريبة؛ خوفاً من تبعات حالتي المَرَضية التي خَفّت حدتها مع الزمن. اعتبرت الانفعالات ضرباً من الجنون لا يليق بربيبة الحكّامة وابنة "تركية" المعذبة، لم تلهب مخيلتي قصص الغرام، حتى حين وقعتُ أنا نفسي في مثلها.

قصتي ليست كما قصة "تاجوج" و"السر" في حلتنا، أو "تاجوج" و"المحلّق" في الحكايات، وليست كما "قيس" و"ليلى" العتيقة. الحكايات التي سردتها علينا الحكّامة في الطفولة تبدو مضحكة؛ سخيفة بالنسبة لي، فأنا وإن كنت ساذجة في أمور العقل، لكني في أمور العواطف والعلاقات حاسمة وعملية، لا أعرف النحيب ولا أعترف به.

أنا ابنة الصبر والصمت والاستعلاء على خفق الفؤاد، راقبت أمي "تركية" تعيش وتموت مذعورة، كرهت الخوف الذي حبس روحها، كما حبس خطواتي في الطفولة المبكرة وأنا أسيرة حضنها، ثم عايشت الحكّامة وهي تمسك بتلابيب قلبها وتقصيه، المرة الوحيدة والخاطفة التي لم أنكر فيها قلبي كانت حين التقيت بالرجل الذي صار أباً لابنتي.

عرفت أن الزعيم الأزرق "ماديو" الذي مر في القرية بأبقاره تاركاً قطيعه يأكل الأعشاب في مخلفات الأرض المزروعة التي رُفع نتاجها؛ لم يكن قادماً ليستقر. شاهدته وقد التصقتْ عراقة الدمور القصيرة الصفراء المشبعة تراباً والمبتلة بعرق صدره العريض كثيف الشعر، وانزلقت عمامته القصيرة الحمراء فوق جبينه، بينما برزت أصابع قدميه عريضة متسخة من النعال المصنوع من جلد الأبقار. لم تعجبني هيئته؛ ومع ذلك وقعت أسيرة عينيه المتوحشتين، وأحسست الرغبة تجتاحني كدبيب النمل. التهمني بناظريه بجرأة، وسألني بلا حياء: لماذا بشرتي حمراء بيضاء على غير ما هم أهلي؟ فتنمرت ولم أجب، نفرت، فأعْجَبْتُه، وهكذا؛ استحمّ البقاري "ماديو"، وارتدى جبة تشي بثرائه، ومركوباً جديداً في قدميه.

ساق أربع أبقار حلوبة مرابطاً بها عند حوش الحكّامة يحاول إقناعها بمباركة زواجه من البنت الحمرا، كانت الحكّامة تطمح إلى تزويجي من رجل مستقر.

قالت:

- *البت مسكينة، لا أهل ولا قبيلة.*

أخفتْ عنه مرضي! بينما ادعى الرجل أنه من عرب المسيرية القاطنين في بابَنوسة. الزنوجة في لونه وملامح وجهه الضخمة المنفلشة على وجنتين مسطحتين، يرجحان اختلاط دمه بزنوجة عالية، لعله من قبائل الدينكا الإفريقية.

انزعجت الحكّامة والعمدة "الشفيع" يشير عليها بفجاجة:

- *لا تعرسيها ليهو، بتك الحمرا دي لو عرسته؛ حتولد جنا جركوك*(*) *بلون الليل.*

(*) زنجي

لا تهتم الحكّامة بالألوان، فعادة ما تصنف تلك التلميحات في خانة الجهل وقلة الإيمان، واحتقار خلق الله الذي لا يليق بالإنسان الذي يستخدم عقله وقلبه ميزاناً عادلاً في الحياة. لم يكن لون الرجل الأزرق ما أزعجها، فأنا نفسي مبتلاة أيضاً بلون مغاير، أهل الحلة ملاح بسُمرة خضراء، لم تغلب عليهم زرقةُ الزنوجة وسيماء وجوههم الغليظة، ولا ابتُلوا بملامح الغجر الفلاّتة الحمر المسمسمة ولونهم الفاتح، أهل الخَرْبَقَة عربُ التقاطيع، سودانيون خضر، فيهم ملاحة ووسامة، وأنا بيضاء؛ كأني مصرية أو من الفلاتة. قطعاً ليست مفارقات اللون ما أزعج الحكّامة.

أقلقها ألاّ أكون أهلاً للزواج إذا اشتد مرضي، وكتمتْ قلقها لصالح شعور خفي أني فوّت سن الزواج، ولن يعوضني الله برجل يرضى بي في الحلة، كما تعجبت من أن "ماديو" يطلبني للزواج من دون نية لاصطحابي معه، تساءلت: ماذا يريد هذا العاشق الطارئ! قد يكون مغامراً يريد تجريب ركوب امرأة بيضاء ليس إلا، رجل يبحث عن أسرار جنسية يفجرها لقاء أسود ببيضاء، ماذا تستفيد البنت من مغامرة عابرة كهذه؟ شعرت الحكّامة بالمسؤولية فهي التي تبنتني صغيرة وقبلي أمي "تركية" في حوشها وحياتها، تحملتْ إغماءاتي وشرودي وبهتان بشرتي، كما لو أن رحمها قذف بي إلى الحياة.

خاضت الحكّامة نقاشاً طويلاً مع "ماديو" وهو مقرفص عند مدخل الحوش يقلب التراب بعصاه، حاولت استفزازه ليرحل، استخفت به وسخرت من اسمه الذي يبدو جنوبياً لا علاقة له بالعروبة، فدافع عن هويته، مؤكداً أنه من نسل جماعة عربية يقال لها: "جهينة"، يحمل اسم مناضل عربي حرر الأرض من استعمار الإنجليز أيام الثورة المهدية. لم تجد الحكّامة في ما يقول أمراً مغرياً؛ لـمّحت إلى لونه وغلظة ملامحه،

كما قللت من شأن قبيله. رفع كمشة تراب في كفه ثم نثرها وصوته يجلجل:

- *هووووه.. عيال زريق هين التراب.*(*)

لم تتخلص الحكّامة من قلقها بسهولة وإن كانت قبيلته بعدد حبات التراب وقومه ذوي منعة وسطوة. اعترضت على ترك الزوجة في ديرتها وعدم اصطحابها. في أعماقها كانت تفضّل إقامتي معها على الرحيل مع زوج غريب، وَصَفَ لها مشقة حياته التي تقتضي منه قطع الفيافي بقطعان الأبقار لمسافات لا تصمد امرأة رقيقة من جماعة ريفية أو مدنية أمام مشقتها، وعد بأنه إذا تزوجني لن ينقطع عن زيارتي، زَيّنَ لها بقائي قربها وفي رعايتها.

كنت أروح وأجيء بوجه محايد أمامهما، لمحت نظراته الوقحة التي يرشقني بها فتخترق ظهري، وتنزل إلى عجيزتي، وتدغدغ صدري، أدركت أني أريده، كل مسامات جلدي تفتحت تريد دخوله فيّ. أرجفت نظراته النارية مؤخرتي، ونبهتني إلى جوع وظمأ تحايل عليه الناس في طفولتي عندما قَصّوا مواقع اللذة فيّ؛ فلم تنبح في جسدي ولو لمرة.

مرضي كان سبباً كافياً لعزوف الرجال عني، ظنوا أن جنياً يوافيني، ورجحت الحكّامة أن بياض بشرتي المغبر برماد بني ينفرهم مني، وكانت تضطر لشرح ملابسات ذلك اللون الدخيل، وتلمح إلى أنها تعدّني ابنتها التي لم تلدها؛ وقد أكون وريثتها. تلك الرشوة المبطنة لم تأت بالعرسان إلى بابي حتى شخت؛ وجاوزت الثلاثين بخمس سنين وما ارتعش جسدي اشتياقاً، فقد كنت بطيئة الفهم، غائبة الأحاسيس، مختونة.

لكن "ماديو" البقاري جاء؛ كأنه هبط من الغيب، فاشتعلت نار تحت رمادي.

(*) بكثرة حبات التراب

يرتدي "ماديو" في زنده الأيمن حجاباً محكم الربط، لا شك أنه حجاب الريدة الذي فجر رغبتي، لولاه لما لانت الحكّامة وزوجتنا، عميتُ تماماً عن كل شيء، بل استقويتُ بنظرات العاشق على مجادلة المرأة التي ربتني ورعتني. تمسكت بعابر السبيل، وارتضيته، كنت أفور بانتظار لحظة انتفاض جسده في جسدي، وهددت إن لم يُكتب قراني عليه، فإني سأفارق القرية وأهرب معه، لم يكن هناك خيار آخر، فقد كبرت حتى صارت مجايلاتي حبوبات، وكبرت المرأة التي ترعاني، بدا مستقبلي مخيفاً. نرتق مخاوفنا عادة بالإيمان، ولكننا نذهب إلى معالجتها وإيجاد الحلول في أحيان أخرى، وهذا ما فعلته الحكّامة حين استسلمت للبقاري؛ وزوجتنا.

الزواج بعابر الطريق هذا لن يكلفني مغادرة الخَرْبَقَة، وكنت معنية بالاستقرار في المكان، مسكونة بفكرة غامضة، آمنت أني سأرى أمي مجدداً، وأنها ستأتي من العدم لزيارتي، لم أرغب في تغيير مكاني حتى لا تفقد طريقها إليّ، كانت الفكرة مجنونة قطعاً؛ فقد ماتت أمي وشبعت موتاً ودُفنت في جبانة الحلة، لكني لم أرها عند شجرة الموتى، لعل روحها تحوم حولنا، ولعلّي كنت أعني جدتي التي لم أرها إلا في كوابيسي بصورة غامضة. من يدري! فحكايتي مثقلة بالأسرار.

تزوجت "ماديو"، لم تكن هناك مراسيم؛ فالرجل على عجل، وقد تركت الحكّامة بيتها لليلتين حياءً، وذهبت إلى قرية قريبة بحجة أنهم طلبوها في تسوية طارئة.

أشهد أن جماع ذلك الرجل كان شهوانياً، أستحيي أن أفكر فيه اليوم، كما لا أصدّقه لو طرأ في البال، أو حكى بعضهم تفاصيله الفاضحة.

ذهب "ماديو" وعاد، ثم ذهب وعاد، وتوالى ذلك. قبل أن تذوي أنوثتي تماماً جرى إنقاذها على يد "ماديو"، وأنا مطمئنة لذلك الزواج

الموسمي الغريب، فقد فارقتني حالات الإغماء، وروج "الشفيع" أني كنت محبوسة بعمل شرير حله النكاح، ولولا تعوذ الحكّامة من الفكرة ورفضها لها؛ لاقتنعت بقوله.

تلاحقت زيارات "ماديو" متقاربة في البداية، في الزيارة الأولى طالبني بدق شلوفة فمي السفلى بوشم أزرق حالك؛ ففعلت. جاء خفيفاً متعجلاً بلا أبقاره أكثر من مرة، وجلب لي فستاناً وثوب الكنفوس الداخلي، وطرحة، وجدادة فضية تُربط في الرأس حلية، عاود استعارتها من دون إرجاعها في زيارة لاحقة، كما استعاد مهري؛ البقرات الأربع، بحجة رعايتها مع القطيع. مع ذلك كنت سعيدة، أنتظره بشغف حقيقي، وأتغاوى بين أترابي كعروس، عشت شوقاً وانتظاراً متواصلاً ممتعاً لعامين أو يزيد قليلاً، لم يخطر ببالي أني قد أصير أماً، ولم أتلق أيّ أسئلة فضولية من ذلك النوع الذي تحاصرَ به العرائس، كأنما هناك اعتقاداً كامناً لدى الجميع؛ ولديّ، بأني جاوزت سن الإنجاب فعقرت. لم يزعجني تأخر حملي، على العكس أصابتني الدهشة حين شعرت بحركة الجنين في أحشائي، خفت حتى فارقني النوم وبت أحملق بالعتمة كل مساء؛ أترقب حدثاً يعصف بحياتي.

أخبرتني الحكّامة أنها لم تشهد ولادة أسهل من ولادة أمي "تركية" حين أنجبتني؛ رغم أنها كانت طفلة عليلة. ليس صعباً تخمين سبب تلك السهولة، فأمي غلفا غير مختونة؛ أبواب فرجها مشرعة للحياة، بينما أنا على أبواب الكهولة جف عودي، مختونة؛ محكمة الإغلاق.

أصابتني نوبة قاصمة ارتجفت فيها وهربت دمائي مني حين ولدت "بابَنوس"، نجوت بأعجوبة؛ وولدت ابنتي شديدة الزرقة مثل والدها.

جاءت "بابَنوس" في خريف، أغبرة الكتاحة وهبوب العواصف الرملية تعمي الأبصار، ولدهشتي طار الخبر إلى "ماديو" فوصل برفقة عمة

من عماته، وهداي(*) يغني الشعر، احتفلوا بولادتي رغم أني وضعت أنثى. ضربوا طبل النقارة المصنوعة من جذع شجرة مجوف شد فوقها جلد بقرة، وغنوا، وذبحوا عجلاً، وأطعموا فقراء الديرة. وأهدى "ماديو" ابنته فدواً صغيراً، قطعة هلالية ذهبية علقتها في أذني، ثم خبأتها، كما جاء لـ "بابَنوس" بحجل فضّي احتفظتُ به في خرقة دمور، وأعطيتها إياه في ختانها.

الرجل الذي صار زوجاً موسمياً، وأباً عابراً، جاءني في زيارته الأخيرة بصبية يتيمة اشتراها ببقرة من رجل في كنيسة الإرسالية في الفاشر، تلك كانت "حَوّا"؛ فتاة حبلى مذعورة. ظن الكثيرون خاطئين أنها حبلى بولد "ماديو"، فلم أعر الأمر التفاتاً، فمشاعري قد ذوت، ولم يعد مهماً إن كان للرجل نساء غيري. تلاشى النغز اللذيذ في مسامي ولم تعد مؤخرتي ترتجف لرؤية "ماديو". قدم "ماديو" الصبية البائسة "حَوّا" هدية للحكّامة، قال إنها قادرة على العناية بابنته، ولما لم تعد "بابَنوس" بحاجة إلى مثل تلك العناية وقد تجاوزت الثانية من عمرها، وباتت تمشي على قدمين، رفضت الحكّامة البنت كخادم أو عبدة، قالت:

- *ما دايرين خادم، كلنا عبيد الله.*

هكذا صارت "حَوّا" واحدة من العائلة التي تخطت علاقات الدم إلى شبكة مصالح وتعاطف تمسك الحكّامة بخيوطها، صارت "حَوّا" وجنينها منا، لم تعد خائفة، رغم مفاجأة لون عيني ولدها للناس، على انعكس؛ كانت أكثر حضوراً وجرأة وأسرع بديهة مني، لم تعزها الشراسة في إثبات موقعها في البيت والحلة، وكثيراً ما عايرتنا باستعلاء قائلة:

- *بتعرفوا شنو انتوا؟ ما شفتوا حاجة، البرتكانة بالفاشر قدر بتيختكم.*

(*) مغني

تجيد "حَوّا" الاستعلاء دفعاً لأيّ ضعة يظنها أحدهم بها، تنشب مخالبها بكبر وشراسة بمن تسول له نفسه النظر إليها شزراً، حتى بعد أن ولدت "آدمو" بعيون خضر، أثر يدل على أبيه الخواجة.

أما "ماديو" فلم يعد منذ تلك الحادثة البعيدة، هل افتقدته؟

كأنه حلم واهن تتفكك تفاصيله، لم أعد أتذكر ملامحه، ربما أستطيع وصفه كما تصفه الحكّامة حين تسألني "بابَنوس" عنه، ولكني في الواقع لا أحمل في ذاكرتي صورة واضحة عنه، يلتبس علَيّ أحياناً حين أرى بعض البقارة الزرق يعبرون الخَرْبَقَة على أحصنتهم مع جند الجنجويد، الجن الذين يركبون الأحصنة، وقد ارتدوا ثياباً عسكرية وامتشقوا بنادق الموت الطويلة على أكتافهم، يلاحقون رجال ونساء المساليت في الغابات والسهول القريبة، ثم يتبخرون كما لو أنهم لم يكونوا، بدا لأكثرهم وجه "ماديو" الذي نسيت.

نسيت زوجي تماماً، ولم يفتقده جسدي، لا أصدّق ما يذكرني به عقلي من أني عاشرته واستمتعت بفظاظته الذكورية، ولولا أني لم أر طيفه يقطع البرزخ الدنيوي عند شجرة الأموات صوب الغياب التام، لقلت إنه مات أيضاً كما أمي. الغريب في تلك المقارنة، أني لم أر طيف أمي أيضاً عند شجرة الأموات، وأعرف أنها ماتت، لكن وهمي يوسوس لي بعودتها، وطمأنينة يقينية تخبرني بموت "ماديو"، وإن لم يصلني نبأه، ولا وارينا جثته التراب، لكنه لن يعود أبداً.

يجيء طيف أمي "تركية" فيختلط الزمان تماماً، تنزاح المرئيات الراهنة، وتتشابك الأصوات، يخثر دمي، ويثقل جسدي، ويزوغ سواد عيني في بياضهما؛ ثم أراها بجلاء كأنها أمامي، بنتاً بيضاء نحيلة واهنة، يردفها صياد النمور "ديقو" وراءه فوق الناقة، مغبرة، صامتة، كثيرون ظنوا أنها خرساء في عامها الأول في الخَرْبَقَة، قال صائد النمور الغريب إن

اسمها "تركية"، كانت البنت بيضاء كأنها من الخواجات الذين نراهم يرافقون الصيادين وتجار الأبنوس والعاج وريش النعام، أو يوزعون الطعام ويصلّون للإله المصلوب في باحات الكنائس في الفاشر ونيالا.

أمي "تركية"، حبوبة "بابَنوس" وجدتها التي لم ترها، ظلت دائماً أصغر مني ومن ابنتي، فهي لم تكبر أبداً، تحمل فوق رأسها كرة منفوشة من الشعر الأكرت الأصفر، اصفرار ملتبس عجيب؛ كأن التراب يغطيه، بشرتها باهتة كما الموتى، أنفها عريض وشفتاها مكتنزتان، سمات تعكس ما تبقى من انتمائها الإفريقي، أخبرتني الحكّامة أن قلبها انفطر لدى رؤية البنت، ولم تصدّق رجلاً مثل "ديقو" يحمل على ناقته بنتاً في العاشرة أو يزيد قليلاً لشهور عديدة، يأتي بها قاطعاً نصف الدنيا من أوروبا البعيدة، ومتنقلاً بين المراكب على ساحل الأبيض المتوسط وصولاً إلى مصر ثم منحدراً مع قطعان الإبل جنوباً، ومفارقاً لهم في أرض السودان، متنقلاً من الخرطوم إلى كردفان، محاولاً الوصول بها إلى نيالا؛ كل هذا الدرب الشاق لمجرد إعادتها إلى أهلها الذين لا يعرفهم! رجحت أنه اختطف البنت، لكن "ديقو" المريب ترك أمي في عهدة الحكّامة وأسرع بالمغادرة قبل ولادتي.

حملتني "تركية" جنيناً في سفرها المضني، وولدتني في صيف قائظ.

لا أعرف إن كنت نطفة "ديقو" صياد النمور وتاجر العاج وريش النعام. الناس يظنون؛ وهكذا ترجح الحكّامة، ولكن من يدري؟ فالدرب طويل، والبنت "تركية" مشاع، ولأنها لم تستعِدْ قدرتها على الحديث إلا بعد سنوات من إقامتها في الخَرّبَقَة وإنجابي، فإن قصتها الغريبة حكيت لي بالعربية وأنا واعية ربما في التاسعة من عمري، قبل موتها بأشهر، قصة تخلو من اسم أبي تماماً. في طفولتي المبكرة أسمعتني القصة نفسها بلغة "البورشوجال" التي لا أفهمها، ولم تحاول أمي شرح مفرداتها لي وللمحيطين. لكن "باسالم" قال إن أمي تقصد لغة البرغل، لم تكن

تصحح مثل هذه التعليقات أو تنفيها، تشدني إليها وتمضي بعيداً إلى زاوية وحيدة، كانت أكثر صمتاً مني، فقد رأت عذابات لا توصف، ومرت بجحيم مذهل حَوّلها إلى قطة برية خائفة على الدوام، لا تتقن إلا احتضاني. تحيطني متنمّرة مانعة كل يد من الوصول إلي، لطول ما حملتني ملاصَقةً صدرها مربوطة بخرقة عريضة، ضعفت قدماي وبات المشي عناءً في طفولتي، لم يتمَطَّ جسدي على النحو المعقول كما الآخرون إلا بعد وفاة أمي.

أتذكرها تشدني إلى صدرها مذعورة إذا اقترب منا زُول، يقرع قلبها كما الطبل، وترتجف ذراعاها حول خاصرتي، ويهرف لسانها بكلمات غامضة، تلك الكلمات بعض من حديث هامس مخبول قلق تسرده على مسامعي إذا كنا على انفراد؛ بصوت متسارع متهدج مفكك، كما لو أنها تلقي بالتعاويذ والطلاسم على الكون، كلمات لا رابط بينها ولا معنى لها، هل كنت أفهم؟

كبرت واهنة على ذراعيها الواهنتين، وهي تتحدث في حكاية طويلة عن افتقادها حضن أمها! الآن؛ بعد تعلمي العربية ورطانة المساليت من الحكّامة وأهالي الخَرْبَقَة، لا أستطيع تفسير فهمي لمعنى كلماتها الغريبة، لم أنطق بها، ولكني أفهمها، ليست كلاماً مجنوناً كما يظنون.

طورنا أنا وأمي تواصلاً غامضاً يخصّنا الاثنتين، لا أبوح بكل ما بيننا كما يجب، فلست على تلك الدرجة من البلاهة حتى أقود الجمع إلى اتهامي بالجنون، لم أعترف بفهم تفاصيل حكاياتها الغريبة التي ظلت تحكيها لي بلغة غامضة، وما بحت بالاسم الغريب الذي كانت تسمّي نفسها به: "لوسيا".

حتى بعد رحيلها؛ ظلت لنا طريقتنا في التواصل، يحضر طيفها على أوجه متباينة، كأن تخترق صخباً أنثوياً في عرس أو حين أعد

طبق الكمونية من جقاجق أمعاء الضأن، وفشفاش رئة الذبيحة صبيحة عيد. تقرمز أمي قبالتي كما كانت تفعل حية، تنظر في عيني مباشرة فتشلعها من المكان، وتصحبها في رحلة مفزعة في حكاياتها الغريبة العجيبة.

زارتني حين أصبت بحمى الملاريا اللئيمة، ورحت أتفرعط فوق ملاية العنقريب، وأنضح عرقاً وأئن بوهن ثم أبترد.. جاءتني ومسحت جبيني، وذكرتني بجدتي ورطنت معي بلغتها الغريبة ففهمتها، بكت معي فأبكتني؛ أنا التي لا تعرف الدمع، ظننت أني سأموت بالداء الذي قضت به أمي، لكنها أفسحت للحكّامة معالجتي بمسحوق الكينا المر، فتعافيت، لم تسمح لي أمي باللحاق بها، وإن ظلت تحضر لتنتزعني من مكاني وزماني وتشتت أفكاري؛ تمسك بأصابعها الخشنة ذقني، وتدير وجهي بعيداً عن الحاضرين. عندها تصير الأصوات وشيشاً وتغبش المرئيات حولي، يمتنع الهواء المحيط من النفاذ إلى صدري، أستنشق بدلاً منه هواءً عتيقاً عطناً، تتقطع أنفاسي ويتهدج صدري هبوطاً وارتفاعاً.

تقول الحكّامة إني كنت أدخل في ما يشبه النوبات، ينفتح جفناي ويتحرك البؤبؤان الأسودان إلى الأعلى حتى يغيبا في رأسي تماماً، ويتسيد البياض والفراغ حدقتي عينيّ. تراجعت حدة الحالة مع الزمن، فقد حرقت الحكّامة بخور التيمان المبارك الذي يعالج العين والسحر والشر، رفعته فوق جمر المجمرة المتقدة، ففاحت رائحته وانتشر دخانه، دارت به حولي وحبة العين الحمراء التي تتوسطها نقطة سوداء تشوى مع خليط البخور، ثم تطقطق وتفط منفجرة، والحكّامة تردد:

- *عين الحسود تقد العود، عين العزبا تقد الوطاه.*

تحوطني بعدها بقراءة آيات الشفاء القرآنية، وتسهر تتمتم آية الكرسي فوق رأسي مائة مرة.

تجاوزت الصبا مريضة بنوباتي مقشرة البدن، وتخلل الشيب شعري في غفلة، وفارقتني رغبات البنات المستترة، وقنعت أني سأكون مثل الحكّامة؛ امرأة وحيدة لا رجل لها.

لكني على ضعفي وسذاجتي أعي كيف أحمي نفسي من المزيد من البلايا؛ رأفة بالحكّامة التي يعنيها كل ما يحدث لي، أكتفي بالنظر شزراً لمن تسول له نفسه اللمز والغمز من صحتي العليلة، أو قصة أمي، أو حتى لقصتي مع "ماديو".

تتعلم المرأة النظر شزراً بدلاً من ارتكاب حماقة الكلام وبلاهة المحاججة، لانت نظراتي الحادة الجانبية مع تقدمي في العمر، وتعاطفت مع بلاهة الناس وثرثرتهم التي يتسلون بها، اقترابي من الخمسين يعني أني صرت نصف حكّامة، ولكني استبدلت حكمتها التي توزعها بدراية وقصدية بحكمة الصمت والتأمل والغياب، واستبدلت بمعارفها الكثيرة التي تثقل الرأس وتطلق اللسان، وتبعث القلق، بمهارات كفيّ وتسويف الوقت قرب أبخرة حلل الطعام.

من السهل تجاهل النور والاستغناء عن قلقه، فليست كل المعرفة ضرورة، كثير منها شقاء أزيحه عن كاهلي بشقاء العمل، هكذا أرى الأشياء على حقيقتها.

إذا تناسيت صمتي أحياناً وتكلمت، خبرت بعضاً مما قالته أمي لي، تتقاطع حكاياتي كثيراً مع حكايات الحكّامة التي تسردها على "بابَنوس" وصغار الحلة، وتظل لي أسراري الخفية المخبوءة في زوايا غامضة من النفس، كأن أظن أني أفهم لسان أهل البرتغال، أو يصيبني حدس يقيني في تذكر تفاصيل لم تخبرني بها أمي عن رحلتها مع جدتي "رحمة" العربية السمراء الخضراء التي خُطفت من نيالا.

حكاية أمي مثل حقل الشوك، لا يمشي به أحد حافياً؛ إلا أنا. أراني أدوس أشواكه المدببة وتدمي أقدامي وروحي، وأسمع الأصوات تأتي

على لسانها، أو في مخيلتي من مكان قصيّ؛ لكنه أكثر حضوراً من الحضور.

رحلتْ أمي بعد خريف جاء بالبعوض؛ تبعته الملاريا التي حصدت أرواح الكثيرين في الخَرْبَقَة، بكت الحكّامة بحرقة عند دفن أمي، أما أنا فلم أبْكِ، وإن كنت في التاسعة. فقط؛ انقطعت أنفاسي، ومنذ ذلك الزمان حل في خافقي فراغ بحجم جذع شجرة التبلدي المجوف. فراغ لم يملأه رجل ولا أنقذتني أمومتي من عذاباته المستترة.

أيقنت أني أموت يوماً؛ وحيدة.

"حَوّا"

سفحت الشاي الساخن بعزم وتقصُّد في وجه البلهاء "أم تاجوج"، زعقت المرأة في وسط السوق وتقافزت تهفهف بطرف ثوبها الشفاف فوق وجنتيها خوفاً من احتراق وجهها، وجه سميك مثل جلد الخرتيت لم يحرقه شايي.

نعم؛ ليعرف كل أهل الخَرَبَقَة أن لحمي مر، لست المرأة الضعيفة التي يمكن تحقيرها، كما لا يمكن خداعها. تدعي العطش وتتجلع وتتدلع بكل وقاحة مارّةً محاذاة رواكيب السوق كأنها في عمر ابنتها البلهاء "تاجوج"، لمزتها قائلة إني أبيع الشاي هذا النهار وليس الشربوت المسكر أو المريسة؛ فعلى ماذا تتثنى على هذا النحو؟ ردت بهبل:

- *تلصق طين في كرعين ما يبقى نعلين.*

عيرتني بشطرَيّ(*)؛ مدّعية أنهما تندلقان للعيان وأنا أفحج أمام المارة في السوق.

أها! ماذا تعني هذه الفاسقة أم البنت المغناج القبيحة التي تظن نفسها جميلة الجميلات؟ هل تتهمني بعَرْض جسدي عامدة؟ وهل تسخر من كرامتي المحفوظة بطيف الحكّامة؟ هذا لا يمر بسهولة، لويت شفتيّ ومددت لساني:

(*) ثديي

- *الجمل ما بعرفي عوجة رقبتو، اتلمي يا حشكبوشة*(*).

رفعتْ صوتها تُسمع المارين:

- *شنو؟ بتقولي شنو يا بت الحرام؟ أنحنا ما عارفين بنت منو إنتي؛ فوقا! أنا، بتقولي لي اتلمّي؟ أنا؟*

لا فائدة من الكلام، لن تذهب الكلمات بغيظي. بكل عزمِ ذراعي رششتُ الشاي الساخن على وجهها الصفيق، مزقتْ ثوبها صائحة:

- *ووووب عليّ.. كور عليّ*(*).

هرع أبناء السوق على صراخنا، لولا الرجال الذين شدوا جسدينا يباعدون بيننا لقطّعتها بأصابعي وأسناني. تركت بضاعتي يومها في السوق وقادوني إلى الحكّامة. كانت تصلّي فلم يقطعوا صلاتها، انتظروها وراقت الدماء في عروقي مع الانتظار، صار الأمر هيناً، لا يعنيني كيف يأتي العقاب، فالمرأة تجرأت علَيّ، وكرامتي فوق كل شيء.

جلست "ست النفر" كعادتها محايدة باردة لا تسأل عما حدث، دخلت "أم تاجوج" وابنتها والخرتيت الآخر "بخيت" إلى الحوش مفتعلين صراخاً يشبه النعيق. أنهت الحكّامة صلاتها وراحت تلم برْشَ الصلاة بهدوء وتسمع، قدم الأغبياء الثلاثة شهاداتهم، فالتفتت إلي تستفسر بعينيها، صحت أجرب أسلوب المباغتة واستصغار الخصم:

- *ديل عواليق ساكت*(*).

زجرتني بنظرتها، ثم تنفست تنتظر تبريراً منطقياً لما حدث، لم أسعفها بالكثير، فقط؛ أشرت إلى أن "أم تاجوج" عيرتني بلقب "بنت الحرام".

(*) يقابل تعبير "الحيزبون"

(*) تعبير يفيد الهلع

(*) تافهين بلا فائدة

لم أدافع عن فعلتي في حرق وجهها بالشاي ونعتها بلفظ يجعلها عجوزاً قميئة. تنفست الحكّامة ثم جلستْ منزعجة، وقالت كلاماً كثيراً حول العيب والغلط، مشعرةً الخصوم أنها أهينت لإهانتي. هكذا استسمحوا مني واستسمحت منهم، وانتهى الأمر بتبادل القبلات الباردة، ووضعنا أذرعنا على أكتاف خصومنا متصالحين، مع ذلك لم تأتِ "تاجوج" وزوجها "بخيت" إلى الحوش ليلتها كالعادة، وإن تناسيا الأمر بعد ليلة واحدة. فمن يقدر على مقاطعة الحكّامة أو مجافاتها؟

يحيي هذا الحادث ذاكرتي المسكوت عنها، يزلزل عقلي وقلبي معاً، لا يرى الناس من الظاهر إلا امرأة سليطة غاضبة، يلمزون حول أصلي وفصلي، وكأنهم يقيمون وزناً حقيقياً للحلال أو الحرام، وهم الذين حاولوا إرغامي على الحرام يوم جئتهم، لكني لست ابنة سِفَاح، حتى لو لم تجد أمي الوقت والقدرة على تشليخ وجهي لتؤكد نسبي إلى قبيلة بعينها. قد يكون ولدي "آدمو" "جنا حرام" وفق تعريف الناس للحرام، الناس الذين لن يعبأوا لو كنت حبلت بولدي في بيوت الضيافة، أو في لعبة دنقري، ولكنهم يستهجنون مضاجعة أبيض بعيون زرق، وقد فضحني ولدي.

أنا ابنة شرعية لرجل من أعالي النيل. أرجح موته جوعاً أو قهراً بسبب ما اقترفته يداه هو وأمي. كنا عائلة فيها أربع من الإناث العليلات، أنا كبراهن، أخواتي الصغيرات نحيلات حد بروز أقفاصهن الصدرية، ترتخي أقدامهن تحتهن فلا يفلحن في الوقوف، أصواتهن خافتة وبكاؤهن أنين باطني وعيونهن ميتة. انتهى بنا الرحيل إلى الفاشر، أسير راجفة، وأخواتي محمولات على ظهر أبي وأمي التي ربطت أصغرنا إلى صدرها، كنت في السابعة من عمري، أقواهن على مجابهة الجوع وتجاهل الخواء الذي ينهش معدتي.

أعطونا حصة غذائية شحيحة في معسكر للاّجئين الفارين من المجاعة، وتهامس والداي كمن يضمران جريمة. صرنا نأكل باعتدال وجبة يومية من عصيدة الذرة المدعّمة. ماتت شقيقتي الصغرى ولم يبكِ أحد، نظرناها بعيون فارغة، انقلبتْ على ظهرها وتصلبت ذراعاها وقدماها مثل عنزة نافقة، سارت شقيقتي التي تليها في العمر على الدرب نفسها هزيلة معتلّة. حادث موت شقيقتي فتح تحقيقاً في المعسكر رغم موت أطفال آخرين، اتهمت أخصائيةُ التغذية العربية أبي، وسألتني بإلحاح إذا ما كانت أمي تطعم الصغيرة التي رحلت، فلم أجبها، أصابني الخرس والخوف. قالت إنها تشك أننا لم نطعم الصغيرة من الطعام الذي حصلنا عليه، وتركناها تموت عامدين.

عندها بكت أمي بحرقة كأنها تعترف، وصاح أبي غاضباً متسائلاً عما تفعله حصة المنظمة الدولية القليلة! مؤكداً أن بناته سيمتن في كل الأحوال، وقد يتمكن من إنجاب غيرهن، فليعش من يَقْوَ على مواجهة الموت، وليمت من يَمُتْ.

ذلك يعني أن أحيا أنا القوية؛ وحدي، إذا لم تُمتني الحرب.

انتحبت أمي مجدداً، فأسكتها أبي بلكمة ولم يُثن، فقد شدت الأخصائية العربية التابعة لمنظمة دولية ذراعه ومنعته من إيذاء أمي، وبكت معنا.

رحلت شقيقتي الأخرى الواقفة في طابور الموتى، وضرب أبي رأسه ليلة كاملة في عمود خيمة الإغاثة، ولكنه هيأ الدور للبنت التي تليها. عندها فرت أمي بنا قبل طلوع الضوء، تركته ذاهلاً مذعوراً، ظلت تركض وأركض.

قصدتْ سوق الفاشر بابنتين عليلتين، بدأتُ أذوي وأمي تجلسني عند باب حديدي كبير كل صباح أنتظرها ريثما تنتهي من تنظيف البيت

الذي تمنعنا صاحبته من دخوله، وفي المساء أراها تتلفت وهي تدلف قطية رحل غريب، كل ليلة في قطية جديدة أجلس في بابها وشقيقتي في حضني، تخرج أمي لثوان وتناولنا شيئاً نأكله. أتذكر الموز الشهي، ولا أنسى الجلبة التي افتعلتها حين أنهت عملها وخرجت لتجدني نائمة عند الباب بينما لا أثر لشقيقتي. غفت عيني فاختفت الصغيرة، استنفرت أمي بشراً كثيرين يبحثون معها، سرعان ما فقدوا الأمل وضجروا ثم هربوا من نواحنا، صار لزاماً عليّ السير وراء أمي كيفما مشت، لم تعد أمي للبيت الذي عملت فيه خادمة، ولا لقطاطي الغرباء التي كانت تخرج منها منهكة متعرقة منفوشة الشعر، لكنها استجارت بالكنيسة.

زمن بعيد كأنه لم يكن أبداً، محوته من وعيي ولم أحدّث به مخلوقاً، بعُدَ وانقطعَ حتى نسيت أسماء شقيقاتي اللواتي رحلن كالعنزات النافقة، وتلك التي أضعتها.. نسيت أبي تماماً، وانقلبت حياتي حين تفاوضت أمي مع لاعب كرة القدم في فريق التضامن.

عثر الشاب الرياضي علينا نائمتين شبه عاريتين في خور رطب، فعطف على حالنا وقادنا إلى الكنيسة التي ترعى فريق الكرة. هناك نلنا حماماً دافئاً وطعاماً شهياً، ورحنا ننظف الكنيسة الجميلة المزينة بالشموع ووجه العذراء الحزين الرؤوم وبالمسيح يعتلي صليباً. أركض في الردهات الجميلة والساحة وأتجول بين الرهبان والممرضات والضيوف وأحافظ على سكوني عند الصلاة.

مُنعت من دخول حجرة المطران، وهي حجرة مغلقة فارهة قياساً بغرفة الراهب المقيم حيث يكتفي بسرير معدني وخزانة وكرسي، بينما أُثِّثَ كلٌّ من حجرة الضيوف والمطران بأربعة مقاعد وثيرة وسرير مغطى بملاية بيضاء، وستارة قطنية على النافذة الوحيدة، ومروحة في السقف، للمرة الأولى أعرف ما هي الكهرباء.

تُفتح الحجرة عادة عند تنظيفها وتهويتها لاستقبال ضيوف أغراب، أو عند مجيء المطران "ماكس".

لا يقيم المطران في الكنيسة، لكنه يزورها على فترات متباعدة، تبهرني ثيابه الزاهية المبهرجة، وصليبه الفضّي المدلّى على صدره، ووقاره الذي يخلب اللب. المطران "مكرم ماكس" طويل بدين وقور إلى حد مرعب، بخلاف الراهب المقيم الشاب "إيراكس"، القصير النحيل بشعره الأشقر وبدنه المحترق من الشمس وعينيه الزرقاوين، يضيع وقاره تماماً حين ننظف حجرته ونزيل فضلاته فنكتشف أنه بشري مثلنا.

قلة يرتادون الكنيسة، معظمهم من البيض الخواجات، يأتون من الفاشر والقرى المحيطة فيقيمون القداس، يترحمون على ميت، أو يعمّدون مسيحياً جديداً أو يطردون من رحمة الكنيسة بعض الجلابة السوريين الذين أنكروا نصرانيتهم وأسلموا، عندها تخرج أمي من الكنيسة، تقول لي:

- *امرقي، أنحنا مسلمين.*

لم تكن تتذكر دينها في قطاطي الغرباء عندما كانت تقايض جسدها بوجبتنا! يذكّرها القداس بإسلامها فتجرّني وراءها، وقد أشد ذراعي رافضة وأعاود التسلل إلى قاعة الكنيسة، فأنا أحب سماع التراتيل الخافتة الهادئة التي لا تشبه رقصات جماعتنا الصاخبة، وقد أحظى بابتسامة تودد ولمسة حانية من الأب "إيراكس".

انقلبت حياتي تماماً؛ عشت في رفاءٍ لا يعرف أهل الخَرْبَقَة المساكين بعضه، لم يروا الشموع تضيء ليل الكنيسة، ولا شاهدوا ظلال المسيح والعذراء تتراقص على الجدران مع النسمات التي تحرك نيران الشمعة وضوءها، ولا تعلموا فك الحروف الأجنبية كما فعلتُ، ولا تناولوا النبيذ الفرنسي الفاخر الذي أرتشفه خلسةً عن أمي من كؤوس الزوار الذين يلتقي بهم "إيراكس" والمطران.

لقنتني الممرضة الإيطالية "جودي" الحروف والكلمات لأربعة أعوام، لكنها انقطعت فجأة. في تلك الآونة قررتْ أمي الذهاب إلى أم درمان، قالوا لها إن هناك عملاً جيداً وقد تجد من يفيدها ببعض المعلومات عن أبي، لا أظنها تأمل إيجاده واستعادة الذاكرة حول ما فعلاه بالبنات الميتات، ولكنها عزمت أمرها على تغيير واقعنا، أو الهرب منه، لا يمكن تقدير أي العوامل دفعها للرحيل.

ضمتني وهي لم تفعل ذلك في حياتها قط، أوصتني بالأدب في حضرة الأب "إيراكس" الذي سيعتني بي، والتوقف عن الترهات التي أفوه بها، فقد كنت سليطة عنيفة إذا غضبت، وعدتني بالعودة لأخذي إذا ما رتبتْ أوضاعها. وكنت طفلة في العاشرة تريد تصديق أمها.

كذبتْ؛ أو أن الحياة كذبتْ على كلتينا، ذهبتْ أمي ولم تعد. لستُ بنت حرام، لكن الريح راحت بأبويّ على نحو قاسٍ وما زلت طفلة.

اعتنى بي الأب "إيراكس" على أحسن ما يكون، لولا أنه أبيض البشرة أشقر الرأس لادّعيت أنه أبي، لكن أحداً لن يصدّقني ونحن نختلف في الهيئة واللون، أهالي الحي المحيط بالكنيسة لم يحبوني، سموني "بنت الكنيسة"؛ وتغامزوا حولي، وإن سمحوا لأنفسهم بأخذ الأطعمة والماء مني حين أشارك بتوزيعها عليهم. لقد اشتعلت الغيرة في قلوبهم وهم يرون ثيابي النظيفة وأحذيتي عندما أجلس مشجعة فريق التضامن في مباراة. أدخلني الأب "إيراكس" حجرته أنظفها وأتخلص من الفوضى والفضلات، ومسد شعري وتحسس كتفي وصدري، ومنحني سكاكر ملونة لذيذة، وجاء لي بسوار من ذنب الفيل عقدت شعراته السود بحجر ملون لامع؛ فرحت به.

تبدو الدنيا أكثر هدوءاً وأنساً بغياب أمي، فلم تعد الليالي مشحونة بدموعها وآهاتها وهي تتذكر شقيقتي الضائعة والأخريات الميتات، لم يعد

أحد يحملني مسؤولية ضياع الصغيرة، ونسيت أو تناسيت ما كان من أمر المجاعة التي أخذت الصغيرات، لقد كبرتُ في غياب أمي، وبتُّ أدخل الكنيسة يوم القداس بحرية من دون أن أتذكر أنني مسلمة.

سألني الأب إذا ما كنت أرغب في أن أتعمّد وأصير نصرانية.

قلت:

- *ما في فرق، كلنا نحيا ونموت.*

قال:

- *في فرق، المسيح يحب من يحبه.*

هززت كتفي لا مبالية.

لم أعرف أكثر حول ديني أو دينه، فقد اختفت معلمتي الصهباء "جودي" التي كنت أجرؤ على سؤالها، وبت أسمع دروس الكنيسة من دون تركيز أو اهتمام؛ أنتشي بالتراتيل التي تقال بلغة لا أفهمها، وأقوم بخدمة توزيع الكتيبات الصغيرة التي رُسم على غلافها الصليب لأتفرج على الصور والرسوم. يرسلني الأب إلى المعسكرات المجاورة، برفقة رجال ونساء من الكنيسة نوزع بعض الطعام والدواء والكتب، يتصفح هؤلاء الكتب؛ ولا يقرأون، بعض أولاد المدارس يعيرونني:

- *حَوّا مثل الحمار؛ شايل ليهو كتاب وما بيقرا.*

أرد بصلافة:

- *حمار أنت وأمك وأبوك.*

لا أحب من يتعرض لي غيرة وحسداً ولا من يحاول التقليل من شأني، دربت لساني وأظافري على مجابهة الآخرين، والانقضاض عليهم قبل أن يلمسوني.

لم أحب اسمي؛ "حَوّا"، لكني مع هذا صرت "حَوّا" حقيقية في وقت مبكر، كان أبي على حق؛ يموت مَن يموت ويعيش من يعيش.

تدورت ونهدت وطال ساقاي، أطول من "إيراكس" بشبر. يقرص حارس الكنيسة "العاجب" عجيزتي إذا ما مررت أمامه في غفلة عن زوجته، ويُسمعني طلبة مدرسة الكنيسة كلاماً كالشعر والأغاني، بتُّ أطيل حمّامي وأستمتع برغوة صابون الخواجات على جسدي، وأقصد المشاطات ليجدلن شعري مسائد صغيرة، أعتني بنفسي أكثر، وإن لم تكن أمي معي حين بلغتُ لترشدني، ولكني ومن دون إرشاد فهمت كل شيء.

اهتزت علاقتي براعي الكنيسة وشابها الحذر والفتور على نحو مؤقت، رجحت أن تحولي السريع إلى امرأة أغضبه أو أربكه بصورة ما. أخرجني من الكنيسة وأمر بنقل سريري إلى حجرة الممرضات في العيادة الملحقة بالكنيسة أو الطباخات في المطبخ، بات يحاول الخلاص من الملامسات القديمة مقاوماً لهفته ورغبته، تحدث بغلظة لم أعهدها وهو يأمرني بتنظيف حجرته حين يكون في الخارج فقط. يتفادى الأب الانفراد بي في بهو الكنيسة أو الحجرة أو قاعة الاجتماع الخاصة بالمطران، فإذا ما صادفني في الحوش رمقني قلقاً وهرول مسرعاً كأنه يهرب مني. غضبت؛ فما هكذا تكون الرعاية التي أوصته أمي عليها، إنه يزدريني ويعاملني كخادم.

مع ذلك كنت طيبة معه؛ عنيفة صلفة مع سواه. جزعت عندما أصابته الملاريا، فتجاهلت أوامره الخاصة بإبعادي، وقضيت ليالي عند سريره أمسح عرقه؛ وأدفع ملعقة الحساء داخل فمه، أمسك كفه الباردة أدفئها في كفّيّ، وأغير الملايات والأغطية وثوبه المبلل بعرق الحمى، أكشف عن جسده العاري الواهن فاغر البياض. أحرص أن يتناول أقراص "الكنيين" في أوقاتها، وأمنع أتباعه من الدخول إليه وإزعاجه. تصرفت كأني صاحبة الأمر، كأني امرأته.

حين شفي نسبياً؛ ترك كفه في يدي مبتسماً، وارتضى أن أنام قرب سريره، وأطعمه بيدي، بل وطلب مني في ليلة الشفاء الأخيرة القيام من أرضي إلى فرشة سريره الحديدي، وانزاح يترك لي مساحة، دسست جسدي إلى جواره، شعرت به يرتعش، لم تكن تلك رعشة الملاريا.

عن نفسي بتُّ أعدّني زوجته، لا نجاهر بما نَشَأ بيننا في الليلة الأخيرة للملاريا، وما يدور من تلامس وتودد واحتضان سراً، يتصرف "إيراكس" جهراً كأني في موقعي السابق تماماً، فلا أعترض، فأنا في رضا عن موقعي الجديد في الكنيسة وفي حياته. لم أعرف في ماضي ولا في التالي من حياتي مثل لحظات اللذة الجامحة تلك، حين يلفني بذراعيه ويهمس بلهفة:

- *إيف.. إيف.*

هكذا أسماني سراً؛ "إيف"، وإن ظل يناديني "حَوّا" بحضور الآخرين، أخبرني أن معنى الاسمين واحد، كما أسر لي أن اسمه يعني الصقر، أشعرني هذا السر بامتياز خاص، فصرت أحاججه وأمازحه وأرد بحدة حين عرض عَلَيّ لمرات تعميدي:

- *أنا مرتاحة، ما تعمل لي مسمار في راسي.*

- *مير.. مير*- قال يشبّهني بفرس رعناء.

في الخامسة عشرة من عمري صرت فرساً سمراء لامعة، أهزأ من اللاجئين الذين يتدفقون إلى الكنيسة، تزعجني رؤيتهم وقد أردفوا صغارهم وراء ظهورهم، وأفزع لهياكل أطفالهم الذاهبة إلى الموت، ينبشون غضبي ولا يحصلون على تعاطفي، كأني أريد أن أقول للدنيا:

- *اللي يعيش يعيش واللي يموت يموت، كفاية.*

يسمّيني أهالي الحلة الكافرة "الـْ فشّتها عايمة"، يروني ضاحكة دائماً حتى حين أصب غضبي عليهم. لماذا لا أمرح وأضحك وأنا

المحظوظة بين الناس؟ حادة عنيفة أيضاً؛ أهزأ من جوعهم وفقرهم، وأتذمر من أيديهم الممدودة، ولا أرحم سكان الكنيسة من تسلطي وسخريتي، أسخر من لون جلود الممرضات الخواجات الباهت، كأنه جلد جثث ميتة.

لا أجاهر بالسخرية من "إيراكس" وجلده الأصفر. أغمض عيني حين أكون في أحضانه وأحبس أنفاسي؛ لأحتمله، إذ يفوح إبطاه بزفر يحرض أمعائي، أطلق العنان لخيالاتي، أتخيل لوناً مغايراً ومقاييس فاحشة وأكثر ذكورة، أيّ لون داكن عدا ذلك الجلد الأصفر الميت والعينين الزرقاوتين اللتان تدوران في محجريهما كزجاجتين. أخافهما إذ يغشاهما نهم يوشك على افتراسي، أُخفي تلك الخيالات عنه، لن أجرح رجلاً لم يجرحني، بل أتاح لي العيش مثلما سيدات البيوت الفارهة الخواجات والجلابة، ثيابي نظيفة وبطني مكتفٍ وكلمتي مطاعة. أتدلل وأرغب وأتصرف كما يحلو لي، وأصك آذاني عن تقولات الناس في الخارج، أولئك الذين يشككون بعلاقتي مع الأب، لا يهمني ما يقولون، فهو "زوجي" أمام ضميري.

يسمح لي زوجي بتقديم المشروبات في حجرة الاجتماعات، كما فعلت حين أقيمَ حفلُ استقبالٍ خاص في حجرة المطران بحضوره على شرف رجل من منظمة "كاريتاس" يدعى "دونكان"، يقلق "إيراكس" حين يمر أعضاء المنظمة بكنيسته، فيجهز أوراقه ويخرج كل صحونه وأوانيه وقواريره من صناديقها، ويكون كريماً في إمداد المطبخ بالخضار واللحوم. يعد حفلاً فارهاً مملاً؛ أخدم فيه الضيوف وأرعى طلباتهم مرتدية فستاناً أوروبياً قطنياً أنيقاً.

يكتظ المكان برجال بيض؛ عسكريين ومدنيين وقساوسة، أحياناً تحضر بعض النسوة بشعورهن الصفراء ومؤخراتهن الممسوحة وصدورهن

الصغيرة مثل حبات النبق، يشربون كؤوس النبيذ ويتناولون الفطائر والشواء الذي يعده الحارس "العاجب" في الحوش.

يتحدثون بلغتهم أو بعربية شوهاء بصوت منخفض وافتعال وجلال مملّ مقيت.

يقول عربي أحمر إن الأعمال في دوانكي الماء في الفاشر غير جيدة كما يجب، فطين جدران الآبار يتفسخ بسبب الجفاف، كما أن العقارب السوداء تكثر في القيزان وتطرد العمال والأهالي وتعيق العمل.

يرد رجل يدعى "يعقوب" بعربية ركيكة:

- *كويس. كويس. مش مشكلة، ناس معود عقرب، مهم في آخر.. ثيرست نو مور.*

قرب المشرب الذي أهيئ فيه الكؤوس، يتناقش "إيراكس" والمطران "مكرم ماكس" والخواجات "شاركس" و"يعقوب" ورجل عربي بشعر أملس، حول مؤتمر في مكان يدعى "بازل"، يقولون إن دين المسيح سينهمر من هناك على هذه البقاع العطشى في إفريقيا مثل النور، فهناك كنائس جديدة ستقام.

ينبه "شاركس" إلى أن تضارب مصالح الكنيسة الكاثوليكية مع مصالح "إسرائيل" التي أرسلت بالأطباء الإسرائيليين وخبراء شبكات تمديد المياه يجب أن لا يشغلهم كثيراً، بل إنه يصب في غاياتهم، كذلك مشاريع "سودان صن رايز" وتحالف "أنقذوا دارفور" الذي يدعم المسلحين، كلهم في النهاية استجابوا لنداء البابا المقدس في نجدة دارفور، وإذا ظلت الحال على ما هو عليه فإن الزمن الذي ظنه البابا لازماً لتنصير إفريقيا، عشرين عاماً؛ سيكون زمناً وهمياً، فالأمر سيتم بوقت قياسي غير معقول.

يسخر "دانكان" من هذا التفاؤل مذكّراً أنها منطقة حَفَظة القرآن الذين لا يسهل تحويلهم. مع ذلك يتهم "إيراكس" بالتقصير، أرى لون

الأب ينسحب تماماً وأطراف أصابعه ترتعش حين يتحدث ضيفه مشيراً إلى أن الزمن يمر في كنيسته بطيئاً رخواً، وفي الخارج ما زال هناك مليون شخص يحتاج إلى الحماية والإغاثة، فقراء دارفور تحديداً تجتاحهم المجاعات، وليس من المعقول الاكتفاء بجهود كنيسته المتواضعة ومنشوراته التي لا يقرؤها أحد ويوزعها الجهلَةُ والعبيد، ينظر "دانكان" إليّ نظرة جانبية خاطفة؛ كأن الأحمر النتن يقصدني، ويواصل:

- *لا بد من المساكن والمستوصفات والمدارس، ومزيد من الآبار، وفوق ذلك كله لن تنجح تلك الجهود إذا لم ينشأ جسر جوي للإغاثة ونقل المبشرين برحمة المسيح إلى دارفور، بالمقابل ينقل المساكين الأفارقة إلى العالم الشمالي المتحضّر.*

تبث كلماته الوهن في الرجال، يبدو كل ما يقومون به تقصيراً، يتبادلون ابتسامات زائفة ويبحثون عن مخرج يقيهم الإحراج، يقول "يعقوب":

- *المهم فتح العيون على شمال إفريقيا وإرهاب مسلمين، وعلى كيزان(*) في حكومة خرطوم، وآسيويين بطلع ذهب وبترول.*

يضاحكني "يعقوب":

- *ما رأيك يا حَوّا؟*

لا أعرف، أنا أساساً لا أفهم ما يقولون. أهز رأسي فيضحكون وأضحك، ويبتسم "إيراكس" بكياسة.

عندما يختفي كل هؤلاء الرجال وتتباعد زياراتهم المكوكية، يحل هناء معقول في الكنيسة، ينام "إيراكس" حتى الظهر إذا ضاجعني في الليلة السابقة، أخرج إلى الحوش أدلق سطلاً من الماء فوق جسدي وقد تخففت من ملابسي إلا قليلاً، أعرف أن علَيّ الاستحمام إذا قاربت الرجل، ألمح

(*) تعبير يعني جماعة الإخوان المسلمين

الطباخات في الحجرة البعيدة يتهامسن حولي، فأمد لساني وأشير نحوهن في حركة بذيئة، يغلظ لي الحارس في القول آمراً بانسحابي إلى الداخل حين أستحم، متعوذاً من الشيطان، كان عم "العاجب" طيباً معي رغم شتائمه وتحرشه العابر الذي لا يتجاوز المداعبة الحذرة.

تعمّدَ "العاجب" مسيحياً على يد الأب وحمل اسماً جديداً لم نحفظه أو نستخدمه، فبات مكروهاً مثلي خارج سور الكنيسة، لكني شاهدته حين مرض ولده يصلّي راكعاً وساجداً في حجرته كما المسلمون، كما شاهدته راكعاً قبالة الصليب يستجدي الإله أن يمن بالشفاء على ولده، يجرب "العاجب" كل الطرق التي تقود إلى الله، أنا لا أحتاج إلى هذه الرحلات المضْنية الخادعة، الله في قلبي.

لقد عثرتُ عليه حين أنقذني من المجاعة، وحين رعاني "إيراكس"، ثم أعدت اكتشاف الله حين طردت من رحمة الكنيسة، استجرت به والدنيا تتغول ضدّي. ليس ذنبي أن مؤشرات كثيرة دلت على حبلي، أليس منطقياً أن يزرع الرجل نسله في رحم زوجته! لماذا إذاً جُنّ جنونه؟ شدني من ذراعي وأنّبني بهذر من كلام لم أفهمه، عَنّفني آمراً بالصمت، لم أبكِ، ولكني أيضاً صرخت كما يصرخ، وقلت كلاماً موجعاً، هل يظن حقاً أني سأكون فخورة بأطفال منه صفرِ الوجوه باهتين! إنه ليس رجلاً على كل حال، يعاشرني كما لو كان طفلاً متعجلاً خائفاً.

تشيح الممرضات في العيادة بوجوههن عني عند مروري، يتهامسن مستنكرات ومدعيات أن لجلدي الأسود زنخَ العبيد، ماذا عن زفر الرجل الأبيض؟ بتنا خصمين وفقدت بين ليلة وصباحها كل امتيازات الدنيا التي كانت لي، حظر علَيّ دخول الكنيسة وتعرضتُ لحملة شماتة في حجرة الطباخات والخدم، نصحتني الحاجة "مريم" المسؤولة عن الخدم بالقفز من أعلى الكنيسة للخلاص من جنيني، وفعلْتُها غير خائفة؛ لكن شيئاً لم

يحدث عدا كدمة صغيرة في ركبتي، غلَتْ لي القرفة والزنجبيل فظللت أشربها لأيام متوالية، جاء لي "العاجب" بحبوب "الكنيين" التي عالجنا بها "إيراكس" عند مرضه، لم يتذكر الناكر للجميل وقفتي معه، بل أرسل حبوبه لإجهاض جنيني، ولما لم تفلح تلك المحاولات؛ خلطت "مريم" الخميرة بالماء وعبأتها بإبرة وباعدت بين ساقي تحقن مهبلي عَلّ الخميرة تُسقط الجنين؛ جنا الحرام. حتى الممرضات أدخلن أكفهن في رحمي بناء على طلبه في محاولة لانتزاع بذرة الحرام. استوعبت الآن حقيقة أني لم أكن زوجة الرجل، فأمطرته بالشتائم والدعوات حين جاء بنفسه حاملاً حبوب دواء "السايتوتيك" الذي يوزَّع على المصابين المتقرحة معَدُهم وأمعاؤهم فتطرد وجعها وخراءها، أرغمني على تناول الحبوب وهو ينظر كأنه لم يصدّق أني أحاول جاهدة الخلاص من آثاره فيّ، لَعَنْتُه وتمنيت أن تحل به مصيبة أو كارثة تمحو أثره من الحياة، امتقع لون وجهه ولم يرد.

سمع الله دعواتي، كان ربي قريباً مني إلى حد لا يمكن تصوره. بعد يومين فقط وقد تمزق بطني وجعاً حلت الفوضى في الكنيسة، واندفع جند الحكومة شاهرين أسلحتهم، نبشوا المخازن والحجرات مبعثرين الطعام والدواء والأوراق، كسروا تماثيل وأيقونات الأب والابن والعذراء، وقلبوا المقاعد الخشبية في قاعة الصلاة مخرجين الكتب المقدسة من صناديقها، مرروها بعضهم إلى بعض مستنكرين، مزقوا الأوراق وبعثروها بغيظ، وشدوا "إيراكس" في منامته إلى الحوش وربطوا ذراعيه بإحكام خلف ظهره، بدا مثل فأر أُوْقِعَ به.

فرت الطباخة "مريم" والخدم مذعورين من الباب الخلفي، كما اختفت الممرضات من العيادة في سيارة التقطتهن هاربات. وفي حين وقف "العاجب" في حوار طويل مع الجند، كنت أتمدد واهنة على عنقريب "مريم".

وُفِّقَ "العاجب" في تهدئة العسكر الذين اكتفوا بتنفيذ تعليماتهم مقتادين "إيراكس" لتسفيره، مشدّدين على "العاجب" ضرورة إغلاق الكنيسة وتسليمها إلى نقطة العسكر في الفاشر خلال يومين، وقد سلموه كتاباً رسمياً مدموغاً من الحكومة المركزية يحمل تاريخ السابع والعشرين من يناير عام ألف وتسعمائة وخمس وتسعون تأمر فيه مفوضيةَ العون الإنساني المنظمة الأمريكية "لا مزيد من العطش" بسرعة الإجراءات الإدارية والفنية في إغلاق مكاتبها ومؤسساتها.

تركني العسكر مع عائلة "العاجب" ظناً أني ابنته، فتشعلقتُ به ليأخذني معه حيث يمضي، رغم احتجاج زوجته التي لم تكن تحبني. عندها أرسل الله "ماديو". ألم أقل إن الله يجدني وينقذني في الأزمات.

أخافني البقاري بشفتيه المكتنزتين وأنفه المفرطح واصفرار بياض عينيه، أقسمت على قتله لو حاول بجسده الضخم انتهاك جسدي، لم يكن يعوزني مزيد من أبناء الحرام، رجحت أن الرجل الذي يعيش حياة الترحال يترك بذوره في كل أرض ورحم يصادفه. صرخت وهو ينهي اتفاقه مع "العاجب" على اصطحابي معه مقابل بقرة يمنحها لعائلة الحارس، حتى هذا يبيعني! برر الحارس فعله محتملاً صياحي واستنكاري، شرح لي خطورة بقائي بين أناس يعرفونني ولن يغفروا لي علاقتي بالأب الذي أغلقت السلطات كنيسته وصادرت أناجيله ومخططات الآبار وتمديدات المياه الوهمية، متهمة إياه بمخالفة عقيدة الوطن ومبادئ القانون الدولي الإنساني والدستور السوداني فضلاً عن مخالفته لقانون تنظيم العمل التطوعي والإنساني والاتفاقية القُطْرية والفنية.

لم أفهم، مصيري كان كل ما يهمني، أقعى "ماديو" صامتاً يسمع شجارنا أنا و"العاجب" لساعتين، لكنه فقد صبره وقام من جلسته حازماً أمره على الرحيل من دوني إذا تَعَنَّتُّ، تفكرت لثوان في حالي؛

ماذا يكون مصيري وسط الشامتين حولي، الرافضين لوجودي، وقارنته بما قال الرجل من أنه سيصحبني إلى مكان يدعى الخَرْبَقَة حيث زوجه وابنته. إذا كان كاذباً قتلته وقتلت نفسي وانتهيت من الأمر، إذا صَدَقَ؛ قلبتُ حياتي على صفحة جديدة، وشطبت "إيراكس" كما شطبت أهلي من قبل.

أنا بارعة في شطب ما فات من حياتي، غفرت لنفسي وتناسيت عائلتي تماماً، حتى أمي، فقد أدركتُ منذ لحظة سفرها أنها لن تعود فما انتظرتها ولا أملْتُ في لقائها، وكان ما فعله "إيراكس" معي كافياً لأمحوه من حياتي وإلى الأبد. هكذا أردفني "ماديو" وراءه سنامَ ناقة جهماء، حولنا قطيع أبقار نغوص في روثها وتنفث عطنها في صدورنا، نتوقف إذا صادفنا سيل ماء. ينسحب الخريف رويداً والرعاة الذين شملوا في بداية خريف المطر هاربين من أمراض الذباب التي تصيب بهائمهم؛ يعودون أدراجهم جنوباً، وفي الأرض بقايا من حلة الأخضر وسبخات الماء المتفرقة، يُخرج الرعاة إبريق الشاي الكبير ويتغنون والماء يغلي فوق مجمرة الحطب:

- *الشاي محبوب، من مصر مجيوب، جابتك الدابه الـْ ما عليها قرون.*

زال خوفي رغم مرور شهر لم أنل فيه استحماماً، سرنا فيه تُرافقنا سحابة من عطن الأبقار حولنا، إلا أني ما شممت رائحة الزفر المقيتة في جسدي وجسد "ماديو" الذي أحيطه بذراعي إذا اعتلينا ظهر الناقة، رائحتنا واحدة، عرق انساني لم تلوثه الشهوات، لم يتذكر "ماديو" للحظة أني امرأة ملتصقة به، كذلك أنا؛ نسيت.

مضى شهر لم أتناول فيه الفاكهة، وتعلمت نقع الشاي وشربه غامقاً حلواً، ومص القنقليز الحامض والدوم الذي يحملونه، وثمرة السقيط

إنْ عثرنـا عليهـا في رمـل الأرض، حفظـت ونحـن نسـير كلمـات حَـذْوَ "ماديو" وهو يرندح شعر الدوبيت عميقاً من جوفه:

- *شدينا خيلنا وقدمنا نبينا محمد المصطفى، نحن الحارة كن بقت فوق السروج لبينا، ترى نحن عرب زينين، أهل جود ما في ليلة رقدنا بغيب، وبنغيروا ضحى.*

قطعنا دارفور إلى الجنوب على صوت حدائه وخوار الأبقار لنصل إلى تلـك الصـحراء المسـمّاة "الخَرَبَقَـة" بأشـجارها القليلـة ومائهـا اليسـير وقطياتها المترامية.

حـين وصـلنا الـوادي الرملـي العميـق وقبـل رؤيـة الشـجر الشـوكي المتناثر؛ صاح رجل يلاحق البقرات التي انفلتت في نشاط مفاجئ:

- *كورو*(*).

أشتم رائحة الماء مثل أبقاره، إلا أن "مـاديو" أمر بتحرك القطيع بعيداً عن تب الماء مؤكداً أن القافلة تحتاج إلى إذن أصحاب المكان منعاً للمشاكل بينه وبين أصهاره، لكنه سمح للصيادين في قافلته باقتناص الطيور المتجمعة قرب التب، كي يحظوا بوجبة لحم طازجة. شرعوا بنادق الخردق وهو يقول:

- *الجفلن خلوهن، اقرعوا الواقفات.*(*).

نظرني الله أثناء رحلتي، فـ "مـاديو" ظل منصرفاً عني لا يتذكرني إلا عندما يأكل ليتقاسم لقمته معي، أو حين يناولني كأس الشاي الساخن، وكان الله معي حين وصلت، رأيت رحمته بي تتجلى في وجه امرأة للمرة الأولى في حياتي.

كانـت الحكّامـة تقـف ببـاب قطيتهـا وخلفهـا ربيبتهـا "سـت النفـر"، نظرتني بلا أحكام مسبقة وغضت الطرف عن حبلي الذي بدا واضحاً،

(*) الماء

(*) ما جفل من الطير وطار اتركوه، ولاحقوا الواقفَ منه

وما سألتني ولا أثارها الفضول، ولا اعتنت بأصلي وفصلي الذي لا أملك ما يشي به، فوجهي خال من الشلوخ التي تنسبني، وكَفّاي أنعم من كفوف حطَابة شريدة.

وقفت الحكّامة سداً بيني وبين عيون الآخرين المتسائلة المتقصّية، وساعدتني على محو ما كان من حياتي في لحظة واحدة، طويت ما مضى وما ذكرتُ لها أو لسواها مسيرة أهلي المفجعة في المجاعة، ولا أيام "إيراكس" والكنيسة. عشت واقع الخَرْبَقَة البسيط. منذ ذلك اليوم ارتحل "ماديو" ولم يعد، كأنه يعينني على حفظ سري.

بفضل قوة شكيمة تلك المرأة التي لم تشبه الحكّامات اللواتي عرفت عبر دارفور واللواتي كن يدققن طبول الحرب في أشعارهن -بينما تنثر حكّامة الخَرْبَقَة روح الحكمة والسلام- بفضلها؛ تمكنت من صنع حياتي الجديدة، امرأة قوية قادرة على أخذ حقي بيدي، صحت في وجه "الشفيع" الذي اقترح إقامة قطية لي في طرف الخَرْبَقَة لألد فيها، ثم أكون استضافة جنسية للمارين من الجلابة والتجار والبقارة والأبالة الذين تربطهم مصالح بجماعة الخَرْبَقَة، لن أعطي جسدي لأحد، سأهجّ من الخَرْبَقَة إذا لزم الأمر، وقفت الحكّامة في صَفّي، وقالت كلاماً هادئاً وقاطعاً في أني أدخل في حمايتها. رعتني وتحملتني، ولكني عزمت على تدبير أمور حياتي ومعاشي بنفسي؛ أعوس الكسرى في المناسبات، وأبيع الشاي في السوق، أفوره على طريقة البقارة أسودَ حالياً. كما أتنقل لبيع ما تنتجه يد "ست النفر" البارعة، وإذا اشتد البرد علينا لا تخيفني الغابة القريبة التي أحتطب بها، ولا أعاني من وهن بنقل عشرات القرعات المجوفة أو الدلاء البلاستيكية الطافحة بالماء من شجرة التبلدي إلى الأسواق أو إلى قطيتي، صارت لي قطية في حوش الحكّامة، حتى وبطني يرتفع معلناً اقتراب ميعاد ولادتي، الأمر الوحيد الذي خِفْته وكرهته.

لا يحدث أن أحلم مثلما "ست النفر" ربيبة الحكّامة التي تتحدث في نومها لغواً ورطانة غريبة وتنتفض، النوم يعني تغليق رأسي تماماً على الذكريات، ومنعها من التجلي. لست معنية بظهور أطياف شقيقاتي الميتات أو "إيراكس" أو المطران أو أمي أو "العاجب" أو "ماديو" في مناماتي. أموت في النوم تماماً وتموت حواسي، لكن الخوف قبل النوم وبعده يكبل أطرافي.

لأني أكثر شبهاً بشوك الصحارى، فإني لا أبوح بمخاوفي لأحد، ففي الوقت الذي كان فيه بعض أهل الحَرَبَقَة يتوقعون أن أنجب طفلاً يشبه "بابَنوس"، مفترضين "ماديو" أباً محتمَلاً لجنيني، خفتُ من إنجاب طفل مرقَّط، أو مخطَّط، أو أصفر الوجه قصير باهت. في أعماقي تمنيت لو أن كل الممارسات القديمة التي تعمّدتها ستفلح في انتزاع الجنين من أحشائي وقتله قبل اكتماله، لو أني أغويت البقاري "ماديو" ليصب ماءه فوق جنيني فيموت، لكنه نطفتي؛ عاش وركلني مراراً متمسكاً بحقّه في المجيء إلى حياتي.

مرت فكرة خنق الوليد ببالي لوهلة خاطفة فتعوذت من الشيطان، وارتضيت ربط حجاب "أم الصبيان" الذي حمل تعاويذ جنية عاهدت النبيَّ سليمان ألاّ تؤذي أحمال النساء، ربطتُه على ساعدي متظاهرة بأني أريد لجنيني أن يأتي إلى العالم معافى سليماً. ولأني كنت مختونة ختاناً كاملاً فقد وضعت ابني على ألمٍ أطار صوابي، ولم تفلح تمتمات الحكّامة الرحيمة ولا إمساكها بكفي وكتفي في منعي من التخبط كأني سأموت وأنا أصيح شاتمة الزمان والقدرَ والرجال والعالم، وقد أشحت بذراعي رافضة رؤية المولود بعد دقائق من سماعي صيحته الخافتة، فإذا ما جاءوا به بعد ساعات؛ صرخت مرعوبة كما لو أن الشيطان تلبسّني، فقد حملق المخلوق بعينيه الزجاجتين فيّ بوقاحة، عيون زرقاء في وجه أسود.

خفتُ الفشل في الفرار من الماضي. ذاهلة فاقدة لإيماني، أخبروني أني كنت أصيح وأمرغ وجهي بالتراب، ثم أقفز لدقائق ثم أهمد. أردت التنصل من المولود تماماً، أقول أقوالاً تُغضب الحكّامة وهي قلّما تغضب، كأن أتهم المولود بأن الشيطان يسكن عينيه، وإذا ما وصلني صوته باكياً من قطيتها رحت أهيل التراب فوق رأسي وأشد شعري وأقطع ثوبي، فتحضنني بقوة مطبقة على غضبي بذراعيها قائلة:

- *ارحموها واعذروها، قبر الوالدة يفغر خشمه أربعين يوم.*

لم يقتنصني خشم قبري، لعله جنون مؤقت مر بي، كل امرئ في الدنيا بحاجة إلى فقاعة من جنون مؤقت يستريح فيها، وجدني الله هذه المرة أيضاً فأنقذني، خرجت من فقاعتي بعد ذلك لأنكبّ على التحطيب أو حمل منتجات "ست النفر" إلى السوق، أو افتعال المشاكل مع العابرين، لكني تنبهت سريعاً إلى أني لم أُجِدْ مَحْوَ ما فات من عمري تماماً. ظلت في حياتي صغائر تحولني إلى امرأة غاضبة بلا معنى، كأن يجن جنوني حين تمنح الحكّامة جارَتَنا "زينب" العميانة حصة مماثلة لسواها إذا ما وزعت قليل المؤن في أيام الجوع. ليس أني لا أريد لـ "زينب" أن تعيش، ولكن من حق المرء القادر على الحياة اغتصاب حصة العالة والنفر الإضافي الذي لا يقدم معنى للحياة سوى تصوير بؤسها ووجعها، في أعماقي أعرف من أين تأتيني تلك المرارة الممزوجة بمنطق لا إنساني، فأكره نفسي للحظات؛ أغضب وأسبّ وأعارض، وتنظر الحكّامة نحوي بصمت وعيناها تقدحان تأنيباً يخجلني، أهدأ وأستكين إذا ما صالحت نفسي.

لكثرة ما كانت الحكّامة تقرأ القرآن وهي تهز جسدها فوق رأسي؛ لنتُ وتلفَّتُّ حولي لأكتشف أنهم أعطوا وليدي للأتان "ترترة".

ماذا أعطتني الدنيا؟ سألت نفسي هذا السؤال في وقت متأخر، ليس كل ما مضى شيئاً يُذْكَر، فقد عشت والناس يموتون، ونعمت

بسقف تدور فيه مروحة كهربائية، وشبعت على مائدة تقدم طعاماً شهياً، واحتضنني رجل ناداني: إيف. ولكن!

قرأت في عيون الناس احتقاراً وازدراءً لا يُحْتَمل، وفي عيون الرجال شرهاً وطمعاً لم أتَفادَهُ في الماضي لضعفي وصغر عمري وقلة حيلتي، صرت اليوم في كنف امرأة تجعل احترامي موازياً لاحترامها، وبشر منشغلين بأمور حياتهم عن أمور حياتي، وفقدَ جسدي فتنة الصبا التي جعلته مطمعاً في ما مضى، صار صلباً كما أحمال الحطب التي أنقلها إلى مطبخنا. كل ما أعطتني إياه الحياة طفل أزرق العينين يحبو حتى يصل الحمارة، ثم يشب على قدميه متلقفاً ضرعها، الولد الذي أسموه "آدمو" في غفلة مني، وكان يمكن أن أسمّيه: "الزبير" لو تُرك الأمر لي، أو كنت أعي طفولته المبكرة، هو كل ما لدي من الدنيا.

غرت من حمارته، وأردت استعادته، همستْ "ست النفر" بأن الوقت تأخر؛ فالولد صار متعلقاً بمرضعته البهيمة وحبوبته الحكّامة، ولكني لن أستسلم بسهولة، سأقطع ثدي الأتان أو رأسها لو لزم الأمر، حدة المواجهة تخففت بما بذلت الحكّامة من جهد، كلما انتزعتُ الفتى بقسوة من تحت حمارته قالت الحكّامة بحنّية:

- *بالروقة، بالروقة، غني ليهو: دايرك يا آدمو تكبر تشيل همي، كل صباح تتمنضر، وتتسوك بالصندل. اكسبي الشافع ولا تنفريه.*

أبرطم وأتخشن بالكلمات أمام الجميع، ليعلموا مبلغ غضبي وشراستي، ولكني أستجيب لتوصياتها بعيداً عن الأعين، أحاول استعادة الفتى رغم أني ظللت زمناً أخاف النظر في عينيه. "آدمو" ليس عنيفاً نفوراً مثلي، نشأ ولداً جميلاً، محاطاً برعاية الحكّامة ورفقة "بابَنوس" التي آخته بمودة، لم أحرمه من محبتي وإن لم أعد أعرف كيف أحب تماماً، لكنه

يكتفي بالقليل، يعرف أن قلبي يزغرد وأنا أراه حاملاً كتابه يقرأ أو يجود القرآن بتفوق.

يعلم أني لا أعني ما أقول حين أصب غضبي عليه، فهو دمي الوحيد في هذه الدنيا، ولدي الذي سأعنّفه وأنهره حتى لو كان هيناً لا قيمة ولا مقام له، فقد علمت مبلغ بلاغة القائلين:

أم سلبويتي ولا كدادي زول.(*).

لالوب بلدنا ولا تمر الناس.

"آدمو" لي، يخصني، فما بالك والفتى يصير رجلاً في لمحة عين؟ لم يعد يثير سخطي إلا إذا اقترب من البهيمة المربوطة في الحوش، والتي أدعو الله أن يخلّصنا منها فتنفق. لم يسمع الله دعائي هذه المرة.

يعرف "آدمو" كم أحبه وأنا التي لا تعرف كيف يكون الحب، سأجعله يوماً يقتني عربية مثل عربية "الشفيع" لا مثل ركشة "أبّكر" الكركابة، فقد بعت واشتريت، صرت تاجرة ثرية شاطرة، وحفظَ هو القرآن كما لم يفعل فتى في الديرة، وإن كنت أشك أن يسمحوا له أن يصير الفكّي، مع ذلك سأظل أحرم نفسي كي أبتاع له مراكيب الجلد من دكان "باسالم"، وأطلب له فخارة العسل من الضعين، وأطعمه جنا الجداد كلما باضت دجاجات الحكّامة، وأنتقم من الأولاد الذين يضايقونه للون عينيه، أثير غيظهم فأمنحه قرشين يبتاع بهما مدفع رمضان، المخروط الحديدي المحشو بالكبريت الذي يحضره "باسالم"، فإذا كبّر المؤذن معلناً مغيب الشمس، شد "آدمو" دوبارة مسمار مدفعه المشكوك بحشو الكبريت، وضربه بقوة إلى حائط مكتب "الشفيع" الإسمنتي، ففقع عالياً. وقال الأولاد:

- *هذا مدفع آدمو.*

(*) فأري الصغير أفضل من صقر غيري

طرت فرحاً حين اصطاد أم نوام الخطيرة، كنت قد تصرفت مثل كل الأمهات فتركت خصلات قذاله تطول في نذر لأذبح له، أجبرني على نكث نذري وقص خصلة شعره، لكنه في ما بعد جعلني أتفاخر بين أهل الخَرْبَقَة حين أوفى نذره من حر ماله، إذ باع ثعبانه بمبلغ لم يحلم به أيٌّ من أهالي الخَرْبَقَة، فذبحنا عتوتاً، وقَصّ الفكي قنبور الولد مجدداً، وأكرمنا شيخ الزيانة بسخاء ورقصنا ليلتها وغَنّت الحكّامة:

- *في الدنيا؛ جابو ليهو اللي في الغيب مدسوس. في الآخرة؛ ساقه الرسول للفردوس.*

رقصتُ حماسةً وقفزتُ بين الشبان الذين راحوا يتحملون سياط البطان على ظهورهم قافزين ضاحكين وقد نسوا زرقة عيني الولد وخفايا أصله، غنيت زهواً:

- *سرح وجاني، حلى وعشاني، وضرع وكساني.*

لا أحب "شديد كادوك" الذي يصحبه في رحلاته، أحب النقود التي يعود بها، ولكن الرجل الضخم العرقان أبله تماماً، لا يليق بولدي، حتى بعد أن التحق بجيش تحرير السودان وصار يتباهى ببندقيته على كتفه، يفكها ويركبها سامحاً لولدي بمساعدته، أخاف أن يأخذ الولد معه إلى المتقاتلين حيث تختلط المفاهيم والناس، ولكن الموت هو المحصل النهائي.

لا أؤمن بكل الترهات التي يسمونها "سياسة"، لقد أوجعت قلبي في الصغر، ولا أريد أن تفجعني بابني في الكبر، لا أملك إلا شد أذني الفتى وتنبيهه وتخويفه. ثم سراً، أسجد منادية الواحد الأعلى القدير ألاّ يخيب رجائي.

لم أعد على يقين إن كان القدير يغيب في داخلي أحياناً أم يظهر، فقد بت امرأة منشغلة في معاش الحياة، ليس كانشغال "ست النفر" في

التكل، إذ تقضي نهارها محتبسة في المطبخ وأخرج إلى الحياة أقارعها، وإن دللت نفسي بعض الشيء كلما حصلت على مكسب قليل، أطلب ثيابي من الفاشر أو نيالا، أكلف "باسا لم" بإحضار ثوب "أوكامبو" من الخرطوم إذا ما ذهب لزيارة ابنته. تجمّعَ أهل السوق ينظرون الثوب الشهير الذي دفعتُ جهدَ شهر كامل لشرائه، والذي يحمل اسم المدعي العام لمحكمة الناس الكثيرين المتحدين الذي قرروا محاكمة الرئيس، أنا لا أعرف الرئيس، ولكني شاهدت أوجاع الناس، ولا أعرف "أوكامبو" الذي بالضرورة هو أصفر زفر الرائحة.

أثار ثوبي حسد النسوة ونميمتهن، فثوبي موضة تلحقني بنسوة العاصمة. أرسلت "تاجوج" الغيارة تطلب ثوب "كان راجل اشتريني"، لا يجد "البخيت" إثباتاً على رجولته إلا ابتياع الثوب الغالي لزوجته.

يتفادى رواد السوق سلاطة لساني ويقبلون على بضائعي، بعضهم من باب كف الشر؛ بعت مسابح اللالوب لكل رجال الخَرْبَقَة، والمكشاشات للنسوة ينظفن حيشانهن بها، والقفف يبتعن بضائعن فيها، والمكاحل التي صنعتها بنفسي بعد حفر نواة ثمرة اللالوب "البعو"، أرغمتهن على اقتناء مكاحلي، ولكني لم أفعل ذلك مع "أم تاجوج"، لم أكن أحب المرأة أساساً، فهي حقّارة مدعية، بائعة جناها، وإلا كيف ارتضت تزويج ابنتها للخرتيت "البخيت" لولا نقوده والذهب الذي شنشل به ذراعيها! ولكني أتعامل مع "تاجوج" نفسها، فهي غِرّة بلهاء لا تعرف صالحها، لم يكن صالحها مع عاشقها المهبول "السر" ولا حليلها البغيض "البخيت". بعتها الدخان وحجر الشب الذي يضيق فرجها، في ما بعد قالت إن الدخان الذي جاءها من نيالا أفضل، وإن شبتي المسحونة كلها هباب. لن أعاود بيعها، ستصير مثل أمها؛ كريهة جاحدة.

لا يُسمح لي بهذه الأقوال في حضرة الحكّامة، ولكن كل رواد السوق سمعوها مني، ففي الأوقات البطيئة الحارة التي يجلسون فيها إليّ تحت ستارة قماشية ربطتها بإحكام لتقيني سياط الشمس المباشرة، يُقْعون قرب البنبر الذي أجلس عليه، يتباعون فنجاناً من القهوة من جبنتي(*) الفخارية المغلقة بكمش من الليف والمزدانة بحبات السكسك والخرز الملون، ويسمعون كركبة وخرير الماء في إبريق الشاي الكبير الذي اسْوَدّ من الداخل والخارج، حتى الفوطة التي ربطتُ فيها مقبضه المكسور كي يمسك به ويساعدني على تحمُّل الحرارة، في حركة لافتة أمسك بمقبض الإبريق وأدلق الشاي من بعيد إلى الكبابي التي صار قعرها دبقاً بنياً وغشى زجاجها غبش أطفأ التماعه، أردد بابتهاج نشيداً لا يعرفون من أين جئت به:

- *الشاي محبوب من مصر مجيوب، جابتك الدابه الْ ما عليها قرون.*

إذا ما وصل الكوب إلى شفتي الزبون، عدلت ثوبي فاقع اللون المنسدل عن كتفي ورحت أخوض بأخبار "أم تاجوج" وابنتها. أتوقف عن تناول المرأتين وأخبارهما في رمضان، يبدو هذا ورعاً في غير محله، ولكنه يرضي حكامتي. أما أنا فلا وقت عندي في هذا الموسم للحديث مع الآخرين، إنه موسم "خم الرماد" حين يكثر البيع والشراء وتزدهر الأعمال، فأرغم "بابَنوس" و"آدمو" على حمل الصحون والمغارف وماعون الباشري الكبير المزين بهلال ونجمة زرقاوين، كما يحملان جمعاً من السلطانيات المجوفة، يسيران ورائي مثقلين، وقد تساعدهما "ست النفر" على غير عادتها، بجوب الخَرَبَقَة وتجمعات سكنية قريبة نبيع الحوائج قبل أن يهل علينا الشهر الكريم، نبيع كميات وفيرة من رقائق الكسرى والحلو

(*) وعاء للقهوة

مر والأبريه. إذا لم تداهمنا مجاعة عابرة' نحصل ما نعتاش عليه لشهور مقبلة.

حاجات الناس في الخَرْبَقَة قليلة، يكتفون بمسحوق الذرة يصنعون الكسرة، وإذا تيسر الدخن أو القمح تفننوا في طبخ العصيدة والقراصة، أفضّل الفول المعجون بزيت السمسم على كل هذه الأطعمة، وتعاودني روائح أطعمة الكنيسة حين تأتي الحكّامة بالخضار طازجة، باميا وعجور وطماطم، كلها تأخذ شكلاً مختلفاً حين تحركها مغرافة "ست النفر" في الأواني المرفوعة على حطب مشتعل.

بعد المجاعة وفي موسم الزراعة، عندما تهاجم طيور الزرازير والقمري الصغيرة المتوحشة محاصيلنا القليلة، يهب الجميع لإحضار الكجورية(*) من جبل تيرا البعيد حيث تقيم، لا تحضر "ست النفر" طقوس الكجورية امتثالاً لأوامر الحكّامة، أما أنا فأتسلى.

أرى الكجورية تدخل الخَرْبَقَة مزهوة برداء جلدي، بقايا بقرة أو جمل، زينته بخرزات السكسك، تحرك عصاها بوقار مصطنع، وقد أحاطت جيدها وخصرها ومقبض عصاها بأظلاف الحيوانات المفترسة، تقف متظاهرة بالدوخة فوق جسد التيس الذي ذُبح للتو إكراماً لها، ثم تدخل حوش الذرة المزروعة راقصة؛ ويرقص القوم وراءها، تشتل حزمة من الذرة من جذورها وهي تلقي تعاويذها الراطنة، ثم تسير، يصير الفضاء ضبابياً والصبية والرجال والنسوة يلحقون بها مهللين، ثم تتجمع أسراب الزرازير في الأفق ترفد الموكب المهيب المسحور، تتبعها الطيور من كل صوب، تغادر الخَرْبَقَة باتجاه هضبة عالية، تقف الكجورية في خشوع وتلقي من يدها حزمة الذرة مشفوعة بطلاسم الكلام، فتلحق الطيور بالحزمة وتختفي عن الأنظار وراء الهضبة، لينجو موسم الزراعة. أشهد ما يحل بالقوم،

(*) الساحرة

وأعيد صياغة سؤال الحكّامة: لو كان السحر الذي رأينا واقعاً، كيف إذاً يجوس كل هذا الألم في حياتنا؟

أنا التي عرفتُ الألم وداويْتُهُ بسحر يدي وعقلي، ماذا أريد من الدنيا؟ "حَوّا" التي لا يحمل وجهها شلوخاً تدل عليها، والتي اسودّت بشرتها وهي تتراكض بين السوق والغابة والبيوت، وغلظت أظافرها وبرزت شرايينها وأوردتها في الكف التي خشنت، ماذا أريد من الدنيا؟ وهل كنت يوماً محظوظة؟ وهل لي من الحظ إلا ما أراه في قامة الولد الذي يكبر وينفصل عني؛ وما كان لي في طفولته بقدر ما كان ابناً لبهيمة مربوطة في آخر الحوش؟

حين تخضَرّ الظلمة في الليالي التي يغيب فيها القمر، ويلف الحي صمت لا يقطعه ولا يطمئنه عواء الكلاب الكسولة النائمة في الخيران، يتمطى خوفي، أهز "آدمو" في نومه العميق فينهض، أطلب منه فتح باب القطية على الحوش عَلّ الهواء يدخل إلينا، ألمح طيفه العريض الطويل يتحرك في الظلمة الحالكة، يلتمع كتفاه، سواد على سواد، يدفع الباب القصبي إلى آخره، ولا هواء يدخل، أهمس:

- *تاكيه متاكاه*(*).

أريده أن يترك الباب مواربـاً، فلا الدنيا تنقطع عني ولا تهاجمني هجوماً كاملاً.

يعاود الفتى نومه في شخير منخفض رتيب، أتنفس بعمق ويتمطى حزني بين الباب واتكائه الخفيف على الفراغ، أحس حزني عميقاً كاسحاً، يأخذ بمجده على قلبي المتْعَب وفوق أسراري المحفوظة بعناية، يصير غولاً صغيراً يقضم روحي للحظات، ثم أنقلب عليه وأقسم أني ما عرفت حزناً في عمري كله، أنام عميقاً وأنسى.

هكذا أصارع الدنيا.

(*) واربه مواربةً

"السّر"

لو كان الناس عادلين لَعدُّوني "جيلِيّ الخَرْبَقَة"؛ شاعرها الكبير بلا منازع، أو الهدّاي على أقل تقدير. دَهْ ما كلامي، الحكّامة ذات نفسها رغم خلافها المبطن مع أبي؛ تقول علناً: "السر" شاعر جد جد.

السر في أن تصبح الجيليَّ لا يكون بالكلمات فحسب. كل من امتلك ناصية اللغة يستطيع أن ينظم شعراً، ولكن الشاعر الحقيقي كتلة إحساس ورؤى وخيال، بشري مجنّح؛ لا كومة حروف مصفوفة.

أنا شاعر حكايّ، ما في زول يلحقني، يمكن كده تقدر تقول؛ الحكّامة.

يمكن. لأن كلامها مرتّب، وعنده معنى في بطن الحروف. لكنها حتى عندما تنظم الشعر، لا تلين ولا تتلون، حريصة، واعية ومتحفظة، ناشفة؛ كيف القش الناشف لو ترصه يصير وساد لين تنوم فوقه، لكين راسك ما مسترخية، وذهنك ما غايب. شعر الحكّامة تنقصه الحرقة والحنّية الا ّ في كلامي، حنّية تذوب القلب وتضيع رشاد الراس.

والحكّامة تقول:

- *السر ولد غاوي؛ راسه خفيفه، كلمة ترميه الوطاه، وكلمة تطير بيهو لسابع سما.*

ومالو؟ أنا لو ما افتتن قلبي، واهتزت دماغي نشوة، ما بقنع وما بعجبني، حتى لو كانت قضيتي فكرية تشغل المخ، أو حسبة واضحة،

واحد وواحد اتنين. صدّقوني الكلام ده ممكن يكون غلط، العقل يخدع، لكن القلب عارف.

لو سمعتو قصيدي وكلامي تقولو الولد ما دخل مدرسة، أصلي شاعر حكّاي بالعامية، لكين أنا اللي خلصت مدرستي ومعهدي؛ والدنيا علّمتني، حافظ كلام المتنبي وأحمد شوقي وماركس مويه، ما بعجزني الكلام الفصيح، أنا الّ بعرفه، لكين أحب أتكلم كلام أهلنا، يعني العامية أو الدارجة، لسان الناس البسطاء، ديل الّـ كلْمَتُم طالعة من القلب؛ عبقرية. أصلو ما بتلحقا كلمة مكتوبة، الحرف يتلون ويتلوى ويتقلب جواه معاني وأفكار، له صدى وريحة، مليان إحساس؛ ممكن تحسه بيدينك، وأنا زول حساس حساس.

أبوي حكاي قبالي(*)، زول طلاسم متصوف، فتنته الطريقة، ووقع في جب الصوفية مدلهاً، ما عندي شك أني ورثت عنه تعلقي بكل فاتن وغريب وجديد، وزدت عليه الإمساك بما أتعلق به إمساك المؤمن بجمرة النار، افتتان أبي كان مؤقتاً، فقد أفاق ذات نهار وقد همدت ناره رماداً وصارت فتنته وغواه كله اعتياداً ورتابة لا تطاق، لكنه لم يجازف بخسارة ما أوصلته إليه الصوفية من مكانة، فظل يتظاهر بالنشوة وهو يدور، يمكن أنا والحكّامة فقط ندرك كيف انتقل أبي من جوهر الصوفية إلى سطحها، تزوغ عيناه وهو يعاين بطرفا كيف هلاوسه سوت بالمريدين، واعي ومسوّي غايب، يتلكلك لسانه وتفح حروفه فحيح المختار، أما أنا فأقول الشعر متجلياً فصيحاً أو عامياً منطلقاً صادحاً. لكين ما في عدالة، نسي الناس أنهم كانوا يتمتعون بعذب قصيدي في الأمسيات المقمرة وأنا لسه وليد حافي، قبل المدرسة الكبيرة، لما أحضر لنا "باسالم" شحنة مراكيب الجلد، ولبست المركوب أنا والأولاد أول دفعة مشت مدرسة الضعين،

(*) قبلي

تشقلبت الدنيا معي. أبوي ذبح بقرة يومها، وسهرت الخَرْبَقَة للفجر في حوشنا، حتى الحكّامة التي لا تحب الحضرة في حوش بيتنا، جاءت من أجلي، أنا الفتى الغنّاي الشاعر الذي تحيطه بالرعاية، والذي حفظ القرآن منها على أحسن وجه. ليلتها تشنشل أبي ورفاقه بالودع والخرز وتهدلت عممهم وهم يرددون أوراد طائفة الختمية:

- *اللهم بألف الابتداء، وباء الانتهاء؛ وبالصفات العلى وبالذات. يا أعلى صلّ على سلطان المملكة وإمام الحضرة المقدسة، المفيض على الملأ الأعلى من وراء حجبك الجلا، من قامت به عوالم الجبروت وظهرت عنه عوالم الملك والملكوت، المطمطم بالأنوار العلية، والكنز الذي لا يعرفه على الحقيقة إلا مالك البرية.*

بعد ذاك الفجر الأغبش انقلبت الدنيا بالنسبة لي، وكانت قد انقلبت بالنسبة لعائلتي في العام الذي وُلدت فيه.

لم يُخْفِ أبي "الزين" ذباح البقرة فرحته بالولد العزيز الوحيد الذي كنته، كذلك أمي المسكينة التي سموها "أم البنات" إلى أن ولدتني، خمس بنات تعاقبن قبل وصولي، وهَجّجن بأنوثتهن أبي كما طردته الخَرْبَقَة بفقرها.

هام على وجهه أربعة أعوام بالتمام، لم يكن يعرف عندما هج أن أمي حبلى للمرة السادسة، وإن عرف؛ ما كان له تصوُّرُ الوليد ذكراً، صَوّر له يأسه أن قدَرَهُ ونصيبه في خلفة البنات دون الذكور، أغضبه حظه المنقوص، وأخرجه من الديرة بحجة تجارة خفية في أقصى الدنيا.

أشاع "الشفيع" أن أبي ذاهب إلى أم درمان يدوّر مرة تجيب الولد، "الشفيع" وكل الناس إذا حيرتهم حكاية زول هربان، افترضوا أنه مشى يدور رزق في أم درمان، آخر الدنيا عندهم أم درمان، الحدود النهائية

للأرض المنبسطة التي تسحل مع انحدارها، وتلاقي النهر الإفريقي الكبير فتحاذيه في جريانه، أو تعانده سائرة إلى حيث تلتقي فروعه؛ كما لسان الحية مشقوق إلى نصفين، النيلين الأزرق والأبيض، يلتقيان في العاصمة المثلثة "الخرطوم- أم درمان- بحري". تنزلق الحدود شمالاً متتبعة هدير بحر النيل الكبير إلى سد أسوان، مجتازة البحيرة إلى حاضرة مصر؛ القاهرة. إذا بعدت عن الماء توغلت قليلاً في صحراء ليبيا والجزائر، هذه حدود العالم الفسيح، وهكذا هي الدنيا مسورة في عيون "الشفيع" وأهالي الخَرَبَقَة.

أين يفر الزول المسكين "الزين" جلاّب البنات من ذلك المصير؟

قبل ولادتي، وأنا مشروع مخلوق يتخلق؛ جنا في بطن أمي، خالف أبي مصيره المتوقع.

هج من الفقر والمجاعة والأعباء فوصل أم درمان أولاً، قالوا:

- *كايس ليهو عروس ولاّ رزق جديد.*

لكنه خَلّى المدينة العتيقة سريعاً برفقة واحد من الدراويش المريدين الختميين، يمما شرقاً حتى وصلا حاضرة يقال لها "كَسَلا". هناك صار أبي صوفياً مريداً، نسى أمر التجارة الدنيوية، وتاجَرَ بالآخرة كما يقول.

يحكي أبي كيف أصيب برعشة حين التقى الشيخ، ودخل في روعه أنه ملاقٍ ضالته، جلس مع الدراويش يسمع أفضال الميرغني الأول مؤسس الطريقة، وخاتم الأولياء المعروف بالختم، صدّق بكل جوارحه أن رسول الله جاء الشيخ في المنام وقال له:

- *من صحبك ثلاثة أيام لا يموت إلا ولياً، ومن قَبّلَ جبهتك كأنما قَبّلَ جبهتي، ومن قَبّلَ جبهتي دخل الجنة، ومن رآني أو رأى من رآني خمساً، لم تمسه نار.*

خلّى "الزين" أبي إرادته كاملة لفيض النور الجديد، ظن الجنة بانتظاره إذا صار مريداً لحفيد الميرغني الأول، فقد وصل الزمنَ المفكك

وصلاتٍ محكمات، وحقق وحدة الكون، وأعاد المعنى لإنبجاس الحياة من إهابه على غير ما كانت عليه.

مكث أبي رفيقاً للمريدين زمناً، يبحث عن إجابات ويرتضي بغياب الكثير منها، مكتفياً بثقته في معارف الشيخ وعلومه. يدرب جسده وروحه ليتشكلا كياناً جديداً في الكون، ويهيئ ذاته شاهدة على نور الرسول المحمدي. لم يجادلْ أو يُمارِ في ما لا يفهم، وتلقى بطمأنينة ورضا غامر ما بايع به سلطان الطريقة وشيخها، وضع كفه في كف الشيخ وبايعه.

قال الشيخ:

- *بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.*

ردد والدي الكلمات بصوت راجف واهتزت يده تأثراً، وأكمل الشيخ ملقّناً:

- *اللهم إني تبتُ إليك، ورضيت بسيدي السيد محمد عثمان الميرغني شيخاً في الدنيا والآخرة، فثبتني اللهم على محبته، وعلى طريقته في الدنيا والآخرة، بحق سيدنا محمد بن عبد الله بن عدنان، وبحق بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.*

تساقطت دموع أبي واشية بدخوله حالة من الفرح والرضا والرهبة وهو يتمتم بالكلمات وراء الشيخ. كررا معاً البسملة والفاتحة في صوت واحد طغى فيه صوت الشيخ على همهمة أبي الوجلى، حتى انتهيا من سورة العصر، اقترب الشيخ من رأس والدي الدائخ، وهمس في أذنه:

- *ثبتك الله على الحق، وعلى الصبر، وعلى الطريقة المحمدية المستقيمة، بحق أهم سقك حلع وبحق أحون قاف حم هاء.. آمين.*

ابتلع أبي ريقه دهشة ذاهلاً عاجزاً عن فهم دلالة الكلام أو الحروف المتقطعة، وواصل الشيخ همسه:

- *أهيم بطه منذ أعيش وإن أمت، سأوكل طه من يهيم به دهري.*

ثم رفع الشيخ رأسه وسط غيمة البخور التي غبشت الرؤيا، وقال جهراً:

- *اتخذتك مريداً لسيدي السيد محمد عثمان الميرغني الختم؛ رضيت؟*

تلجلج "الزين" وبكى وانقطع نَفَسُه، لكنه قال:

- *قبلت؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.*

عاد أبي إلى الخَرَبَقَة مريداً، أعجب الناس بحكاياته المجنّحة، لكنه نضب سريعاً ومَلُّوا، يقبلون على طقوس الحضرة متظاهرين كما يتظاهر، يسمعون نشيده فضولاً وتسلية عازفين عن إدراك مقاصده، يقارنون ساخرين بين ما يحفظ من أوراد، وبين ما يحفظون من آيات كتاب الله. أصمت وأنا فاهم، لم أكن لأجرح أحداً؛ فما بالك بأبي، تستخف الحكّامة بطقوس أبي من دون تجريح وعداء سافر، وقد شكلت المرأة عقبة أمام مشيخة والدي وسيادته بين ناسه وأهله، ولكنها لم تمنعه بالطبع من الفرح بوليده الذي وُلد في غيابه، وإن أرجع الفضل لسيده الميرغني الذي باركه ليصير أباً لذكَر بعد خمس بنات.

سمّاني أبي بعد أن تجاوزت الثالثة من عمري، كانوا ينادونني: "الولد ابن الزين" أو "شقيق البنات"، وتناديني أمي: "الشافع"، اقترح أبي المزهو بشيخه تسميتي "ميرغني"، فتذمرت أمي، ولأنه لحظتها كان منتشياً فرحاً متصالحاً مع الدنيا، لم يشأ كسر قلب الأم، فقفز عن اسم الميرغني

واستبدل به اسماً مرتبطاً بطريقته الصوفية التي ظنها مصيري الحتمي؛ سمّاني: "سر الختم".

بمرور الأعوام اختزل ناس الحَرْبَقَة اسمي المركّب حتى بات: "السر".

أنا "السر"، خاتم الشعراء والمجانين والعشاق، والشيوعيين! المختار دائماً في مواجهة السر الذي يغلّف حياتنا كلها.

لم يمنعني أبي من ارتياد حوش الحكّامة تلقنني القرآن، وإن اعترضتْ على الحضرات التي يقيمها في حوشنا، وعَدّتها هلوسات ليست من الدين في شيء.

الحكّامة امرأة عقلانية جاذبتني سحر الأوراد في الليالي المقمرة، فانتهيت ولداً مهووساً، أتنقل من حوشنا حيث تختلط الكلمات والمعاني، وتدور الأجساد حول مركزها محاولة الاتحاد بالكون الكبير، إلى حوشها حيث تُفتح مصاريع الأبواب المغلقة في الذهن والعقل، ويُحْفَظ القرآن ويُحاوَر ما التبس أمره، وتنتهي جلساته الحميمة بالغناء أو الحكايات؛ وأنا أسير الحكايات. من سطورها تتفتق عوالم تنسل إلى عقلي وتهز قلبي، ومن فيضها أسرتني حكاية فريدة سحرتني وعرفتني على طاقة الحياة البديعة المتجددة، حكاية صنعت مني شاعراً وورطتني في عيشها، حكاية قتلتني وأحيتني معاً. تسردها الحكّامة مستخدمة أصواتاً عديدة، محرّكة ذراعيها وعينيها وحاجبيها، في صغري حفظت حكاية "تاجوج والمحلّق" مفتوناً، وفي شبابي استُلب فؤادي على طريقة "المحلّق" العاشق، وزلّت قدمي لأصير حرفاً في الحكاية؛ تنقلني من حوش أبي الصوفي وحوش الحكّامة العقلانية الفنانة بل من عالم عرّابي ماركس شيخ الشيوعيين، إلى فضاء لا حدود له، فضاء لا يمكن لمسه ولا رؤيته، لأنه معكوس، ليس خارجيْ، لكنه يجرى تحت جلدي وفي مجرى دمي.

تسرد الحكّامة الحكايةَ الساحرة بصوت واهن متدرج؛ يرتفع ويهبط، يغلظ ويرقّ وفق من تتركه من أبطالها يحكي بين شفتيها.

تقول:

- "في حلة "عناتر"، وعند نهر يسمّونه "سيسيت"، وين الدنيا مظللة بسدر ولالوب وبان، والناس في بيوتها لو غابت الشمس، والجن يطلعو من الموية بالليل، كانت قبيلة الحمران تربي خيولها، الخيل الصافنات اللي جابوها من بلدهم الأولي "سواكن"؛ وين البحر المالح الكبير المفتوح على السما.

فرسان القبيلة كلهم خيّالة، ما يقتنون من البل غير النوق العصافير، ومن الخيل غير العتاق المطهمات، يروضون الفرس الأصيلة، ويرفعون السيف السنين، ويقولون الشعر الفصيح.

وبنات القبيلة سمحات شريفات، لكين؛ كلهن ما يوزنن شعرة في ميزان البت "تاجوج"، سماحة كيف، عيون وشعر وصُلُب(*) ونهود، كيف، تقول حورية وقعت الوطاه بالغلط، وفوق ده كله جاه وأدب، وعقل ورزانة، وطبعاً نسب؛ بيت عز وترف، أمها "عمراوية" بت ملك في الشرق، وأبوها شيخ أهله، محمد بن علي بن محلّق.

ما في زولٍ بالبلاد ما عشق وتشهّى تاجوج، وما في شاعرٍ ما قال فيها قصيد، ود عمتها "المحلّق" كان شاعر صعلوك، يسير مع قطاعين الطرق النهاضين في كل أرض، يسطون على إبل العرب. موالف على بنية مشلخة(*) اسمها نورة في بلاد بعيدة، يومن رجع ديرته لعرس صاحبه، شاف تاجوج الّـ سابا شافعة،

(*) مؤخرة

(*) وجهها مشطب

شافا ترقص بشطورا وكتفيها ويديها ورقبتا في العرس، كبرت وتدوّرت كيف النسا؛ قلبيه وقع من نظرة. وقال لأمه: ما داير بالدنيا دي غير تاجوج حليلة. وأمه قالت لأخوها، والشيخ العارف ود أخته يحب النسا؛ طلب مهر غالي، وشرط عليه يقعد في الحلة ما يمشي تاني مع النهاضين سراقين الإبل. وافق المحلّق، وتاب عن الصعلكة. وإذا ع المهر؛ من ميتين المهر الغالي برد ليه عاشق؟ المحلّق ما خلّى وسيلة، باع واشترى واستدان من الرجال، المهم أدى العروس حقها، وزغردت نسوان القبيلة وصار ليهم عرس مثل الكضب(*)، فرح ورقيص ونشيد وطراد خيل. بعدها عاش العريس والعروس في سعادة ما في شبهّا.

في ليلة ومض برق في السما، واتبعه رعد مخيف، طلع المحلّق يحملق بالبرق حتين يشوف وين المطر يصب، كان البرق على السهل البعيد، تبسم المحلّق وتذكّر نوره البت اللي كان موالفا زمان، وطار شيطان الشاعر براسه ولسانه، قال شعر يتذكرا:

- بشد وأركب قبل ما نلم رسنا، بيوت نورة أم شليخ وين من أهلنا؟

أها، المحلّق ما محظوظ كله كله، تاجوج واقفه وراهو تسمع. قالت ليهو: عيد اللي قلته. حار العريس بكلامه، وقال شعر يمدح عروسه ويتغنى بيها، ما قنعت، وظلت تقول ليهو: عيد.. عيد. وهو ينظم ويقول قولن جديد، ألين حلفته برب العباد، طاطا راسه وعاد القصيد الّـ قاله يتذكر البت نورة.

(*) الكذب

بكت تاجوج وصاحت وحلفت ما ترجع خباها، وتهجر حليلن يحن لماضيه ويتغزل بسواها.

سمع أبوها الشيخ شكواها، ونصحا ترد بيت راجلا وفارسا.

قالت: بشرط؛ يقول الشعر بي من صبح لمسا، ولا يعرف قصيدةً غيري، لا مره ولا معاني، ولا أنس ولا جان، ولا بلاد ولا خيل ولا أرض ولا سما.

طاع المحلّق، وصار يقول الشعر كل يوم، ربط الشعر قلبه عن سواها، صار مجنونها كما قيس بليلى، كل يوم يقول قصيدة تحفظها عربان البلاد، وتطير حتى زرق إفريقيا، قال يغازلها:

- فص الماظ مركب فوق مجمر.. فص عينيك يا أم خشمٍ مجمر.. فوق بستان تحت سالك مضمر.. جليدك طاقة الكيدي المنمر..

جن عقل المحلّق من العشق والشعر، صار شعره في خشم كل الناس، لكين لا شغل ولا مشغله ليهو غير تاجوجه. لومه ود عمه "النور"، قال ليهو:

- كيف مثلك فارس يصير رهين الحريم؟

حاججه العاشق إنه ما شاف تاجوج اللي تستاهل ترهن فارس الفرسان. ولد عمه قال:

- ما شفتها، لكين ما في مَرَة تستاهل.

قام المحلّق انجن، قال ليهو:

- تعال شوفها في غفلة؛ وتعرف كيف تستاهل.

دخل المحلّق خيمته، وقض الخيمة بسكينه خُرم صغير، وهو قايل تاجوج ما شافت، لكن هي واعية، عرفته قض الخيمة، وشافت عيون ود عمه في الخرم، وكأنها ما شافت. قال المحلّق:

- ارقصي لي عريانة على ضو النار كيف العروس.

قالت:

- بتلبي ليّ طلبي بعد الرقيص؟

وعدا يلبي طلبا، وقامت خلعت ثوبا واتدلّعت، ورقصت واتنت وتجلعت، وأظهرت كل مفاتنا. فرح المحلّق، طار صواب "النور" الّـ بعاين من الخرم، فتح خشمه مندهش من كمالا وسماحتا. بعد ما خلصت رقيص وخمدت النار، قالت للمحلّق:

- أنت وعدت؛ وأنا عندي طلب.

قال:

- أؤمري لو كان في بلاد الواق الواق.

قالت:

- دايرة الفراق والطلاق، ولا أرد لك مهما كان.

حملت ثوبها وردت أهلها، المحلّق أصابته لوثة، يقول الشعر ويهيم على وجهه، وهي تعند ما ترجع لحليلْ كشفها على زول، الشيخ، أبوها وخاله حن على حاله، قال:

- الشعر طير العقل منك، إعقل، بَطّل قول الشعر ولو ليلة واحدة، أمسك لسانك وأنا أرجع ليك مرتك.

حار المحلّق بأمره، لكنه وافق، قعد ماسك لسانه في ليلة صعيبة، ما ينطق بحرف، والرقباء والشهود يتابعونه، يتلوى شمال ويمين، ويئن، والكلام محبوس بجوفه يعذبه، في الفجر، مر ديك الحي بالخباء، وصفق بجناحيه وأطلق صيحة قوية، سمع المحلّق الصفقة ومناداة الديك فانتفض وكانَ قرّبْ يسهى وينوم من التعب، نسى هو في شنو، لهج لسانه بلا وعي:

- كرّ يا ديك مالك تصيح؟ عارف حشاك مبرود جوفك نصيح، كرّ يا ديك، تصيح؟ ما براك تعبان.

أنشد المحلّق ليلتها يناجي الديك ويبوح بأوجاعه، في الصباح حلف الشهود أن المحلّق ما مسك لسانه عن الشعر. مسكوا عنه مرته، وهام بالبراري يقول الشعر في حبه للشعر ولتاجوج اللي حرقت حشاه، جن عديل(*).

وقفوا الخُطّاب صفوف بباب تاجوج، فاختارت ابن عمه "النور" لأنه شاف منها ما يشوفه الحليل. سمع المحلّق وشاط مثل النار، طلب النور للمبارزة، وفي وسط الحلة تشاكلوا، مد المحلّق قدمه وصرع النور بالوطا، وقص ذنب فرسه وأذنيها، وناولهما للنور، خَلّفه يحمل رسالة لتاجوج يقول فيها:

- قل لصافية العلامة، بين قوزين طارت حمامة، الضنب والأضنين كرامة.(**)

لما رد النور على تاجوج ووصلتها رسالة المحلّق، فهمت، وقالت لراجلا: صرعك المحلّق؟

قال:

- كيف عرفتِ؟

قالت:

- أنت زولن خايب، ما دايراك ولا دايرة(***) ود عمك مجنون الشعر.

(*) جن تماماً

(**) قل للجميلة، بين كثيبين رمليين طارت حمامة وقدمت الذنب والأذنين إكراماً لها

(***) لا أريدك ولا أريده

سابته وردت بيت أهلا.

لاقوها قطاع الطريق جنوب كسلا، وكل واحدن دايرا لنفسه، قام كبيرهم لأجل يضمن وفاق رجاله ويخلص النزاع، غز رمحه في صدرا، ماتت البت ودفنوها تحت شجرة دوم. والملّحق مجنونا خلاص فقد عقله كله كله، لا بيشرب ولا بخط زاد في خشمه وما في بلسانه غير اسما، شافه كل فكي في الحلة وبلاد قريبة وبعيدة، وعملوا ليهو عزايم تفك السحر، وما نفع، لين مات المحلّق وصار ومعشوقته حكاية".

قتلتني الحكاية وذوبت روحي، لكين قبال ما أخت(*) رجلي فيها، ختيتا(**) في مركوب ورحت الضعين. طلبوا رسوم لازم ندفعا لدخول المدرسة، وأنا كنت فاكر الدراسة مجانية، بس ما مشكلة، سنتا كانت سنة خير ما مجاعة، والرسوم ما كثيرة، ملوة كيلة دخن أو فول أو سمسم أو ذرة، بعملو شنو بالحاجات؟ قصدي بالرسوم العينية الـ بحصلوها من الطلبة، الغريب لقيتوم بيودّوها المعصرة، بملو الجركانات زيت ويبيعوه؛ يرممون بثمنه المدرسة ويشترون التخت(***) والسبورات والطباشير والكتب. الحاجات دي ما متوفرة من العاصمة، غايته أبوي رسلني بكيلة فول وافية مثل الأولاد الأغنياء، والفول ما رخيص، ده أغلى من اللحم في مواسم الخير، أصلو اللحم راقد(****) وكثير.

وصلت وهم يرممون المدرسة، جاء المقاول وقبض جركانات الزيت وكيلة الفول حقتي لقاء عمله. فك الأبواب المقشرة المرسوم فيها أهلّة

(*) أضع

(**) وضعتها

(***) مقاعد الطلبة وطاولاتهم

(****) متواجد

ونجوم زرقاء، خلع النوافذ بحديدها وزجاجها المكسر وأخشابها، وشال التخت القديمة، وخلصت سنوات الدراسة وما شفنا خلقته، مدرستنا ظلت مفتحة على الخلا بلا بيبان ولا نوافذ، لكين أنا شفت تخوت الطلبة في مقهى بيقدم شاي وقهوة وشيشة في السوق.

قالوا لي في مدرسة الحكومة:

- *هات ليك بنبر تقعد عليه أو تقعد في الوطا. جبت لي بنبر بلاستيك.*

ولأني طويل تقول "عمود نور" قال لي الأستاذ النور:

- *اقعد ورا.*

قعدت ورا مع الطوال متشاركين أربعة في كتاب، "فاطمة" بت الأستاذ النور قاعدة قدام صغيرونة قصيرونة لكن عقلها كبير، وكنا نغني للسودان:

- *سوداننا سوداننا.. أرض الجدود والأب.. فيه وجدت ماكلي.. فيه وجدت مشربي.. فيه وجدت منزلي.. فيه وجدت ملعبي.. ونيلي مبارك.. يجري بماء طيب.*

كبرت في الضعين بين بيت الأستاذ النور والمدرسة ومعهد المعلمين في ما بعد، أستاذي النور ما هَيّن، تقول موسوعة، جانا من كردفان، وعلى دوره نجح طلاب كثيرين، قباله كانت نتائج المدرسة في كل عام "لم ينجح أحد"، بس برضه المدير بيكرهه. ليه؟ ما عارفين، طوالي بتشاكلوا(*) وبنسمع كواريكم(**).

أخذوه مرة مكبلاً من حجرة الفصل أمام أعيننا، وقالوا إن المدير كتب فيهو تقرير أنه يدبج الخطابات في التحريض على الحكومة ويعلّم

(*) يختصمون

(**) صياحهم

الأولاد ما لا يرضاه الله ولا الدين، ولكنهم لم يجدوا أوراقاً في بيته أو مدرسته، خبأتها البنت "فاطمة" مربوطة إلى جسدها تحت الثوب الأبيض الدمور، لم يكتشف العسكر الخدعة فهم لا يعرفون كم كانت "فاطمة" نحيلة ولا يقدرون أن الامتلاء الطارئ على جسدها كان بفعل أوراق ماركس.

بعدها عمل أستاذي و"فاطمة" ليهم مدرسة براهم(*)، سنوات طويلة مرت، اجتزتُ الدراسة ثم التحقت بمعهد المعلمين أنا و"فاطمة"، قرأنا أوراق شيخنا ماركس معاً، وصرت مثلهما شيوعياً، هوى جديد أتلف فؤادي، أنا كده كتلة إحساس، أعمل شنو؟ صرت أقضي معظم وقتي في حوش بيتهم، في البداية كنت خجولاً إذا سخر أستاذي من مواظبتي على الصلاة، عجزت عن مناقشته تأدباً، لم أكن قادراً على الخروج من جلدي ونسيان أوراد أبي والآيات التي حفظتها من حَكّامتي، ولا حتى لصالح "رأس المال".

هكذا أنا؛ فهل يردني نبيّي الجديد وقد قبلني نبيُّ العالمين محمد صلى الله عليه وسلم بمثالبي وعيوبي؟ في ما بعد كونتُ وجهة نظر حول ما قاله ماركس في أن الدين أفيون الشعوب، قصده؛ حسب ما أنا شايف، أن الدين يصبّر قلوب الناس، يواسيها، مثل الأفيون أو الحشيشة الّ تنسيك المر، أها كلام سمح، لو ما الدين ساعدني على تعب الدنيا ونساني داير بيهو شنو؟ أكيد ده قصد ماركس؛ ما زي ما فهموه.

أما الأستاذ النور فيدعو إلى علمانية البروليتاريا.

كيف إذاً يفسر باقي قولة ماركس: "الدين زفرة المخلوق المضطهَد، بمثابة القلب في عالم بلا قلب، والروح في أوضاع خلت من الروح".

(*) بمفردهم

معناته: الدنيا دي بلا دين ما ليها قلب ولا عندا روح. وأنا زول حساس، قلبي يقودني وروحي شفيفة، أنا شاعر.

النور مخه كبير، قبلني شيوعي وأنا أصلّي. وماله أنا شيوعي، وإن قالت الفتاوي وناس الكيزان الحاكمين: كل شيوعي كافر خارج عن الإسلام وإن صلّى وصام.

الله كيف لذة الصيام ورمضان، وأنا في ليلات كثيرة وفي صلاة الفجر أبكي إذا لمس جبيني تراب الأرض، قلبي يذوب بذكر الله، كيف كافر؟

يقول أستاذي النور:

- *أنت محتال برجماتي، تفسر على كيفك، داير توفّق متناقضات لا وفاق بينها، تختار وتنقي الأفكار الّ توافقك على كيفك.*

ضحك كثيراً حين أجبته مشيراً إلى رأسي:

- *أنت قايلني عوير(*)؟ طبعاً أختار على كيفي؛ ما على كيفك، دي دماغ دي؟ ولّا دي بتيخة؟*

اخترت أن أكون شيوعياً مسلماً، لا يهمني اعتراض التكفيريين ولا بيانهم الذي وزعوه حين أسسنا رابطتنا في بيت النور، أكدوا أن "الشيوعي لا يزوَّج من بنات المسلمين، وإذا تزوج مسلمة فالزواج زنا، والأولاد أولاد زنا، ولا تؤكل ذبيحته". أها؛ ما حأذبح ليكم وما تأكلوا في بيتي ولا حأكل في بيوتكم.

"ولا يُغسل إذا مات". ما خلاص متّ، فارقة معي شنو؟ لا تغسلوني ولا تصلّوا عليّ.

"ولا يُقبر في مقابر المسلمين". ليه الأذى؟ دايرين تقطعو كبد أمي لو عاشت بعدي؟ أنا ما بتفْرِق معي وين دفنتوني، لكن أمي ذنبها شنو؟

(*) أبله

"وأولادي لا يرثوا". طيب ما حيكون عندي ورث ولا أولاد، أساساً ما حَعَرّسْ(*)، مرتاحين؟

يرفض النور تفسير الأشياء على هذا النحو البسيط. صدّقوني؛ الدنيا أبسط من أن نأخذها بالشدة.

أعجبني في الشيوعية عدالة التوزيع وإنصاف المقهورين، كلنا عمال في دنيا فانية، ليه طبقة تغْني وطبقة تموت جوع؟ ما كلنا أولاد آدم وحَوّا، بني آدمين، إذاً لنتّحد من أجل بعضنا، عمال وجنقو ومعلمين وتجار وجيعانين، كلنا بشر.

يطوّل أستاذي "النور" باله حتى أهضم الكتب والمنشورات، وأنا أحللها وأعيد إرسالها إلى رأسي المسكون بالأوراد والشعر والحكايات والآيات كيفما أريد وأقتنع، أليس هذا حق الإنسان، أن يختار كيف يفكر ويكون؟ على هذا النحو أتعمّد شيوعياً على طراز يخصني وحدي، ويقبلني النور آملاً في جَرّي إلى فكره المحصّن بأسوار مزجّجة لا يقبل الخلط والمزج. يراني فتى غراً، خامةً بكْراً قابلة للتشكل، وأنا لم تشكلني الحياة إلا كما يريد الشعر والروح.

لا يعني هذا أني لا أتوافق وأستاذي وابنته الطيبة الذكية على نقاط كثيرة، كلنا نحب السودان، هو على طريقته ولو أنه يذوب؛ يموت لَمّنْ يسمع الغناي "عبد القادر سالم":

- *مكتول هواك يا كردفان.. مكتول هواك أنا من زمان، شوفي القليب نابع حنان، مكتول هواك رغم اللي كان، رغم الضنى وهجر الحبيب في كردفان.. أسير غزال فوق القويز...*

يتمايل رأس الأستاذ النور وتبرق عيناه، يتذكر بلدته، وأبلع ريقي أمنع أنفاسي أن تُصدر نأمة تفسد عليه طربه، أنا نفسي أحاول اللحاق بروحه الطايرة فأكتب قصايد عن السودان.

(*) لن أتزوج

أكتب القصيد خجلان، بلادي أكبر من الكلام:

لوجوه ملاح خضر

للبنات يتدلّلن، للشدر، للحجر.

نصبر، نصابر، نناظر

رحمة الله القريبة

بعزة الغلابة.

ونقول بكره

الراجي سحابة تتدفق

تملّي يدين الشفع خير.

تروي تراب الفقر

والناس تمشي لقدّام

خيول ما تعرف لجام

ما طاطت غير في صلاة.

ودارفور الغنية الفقيرة

تعاين كيف النيل يترقرق

وكيف بنسوّي.

لا تقول بلدنا مات وشلنا الفاتحة.

الخطوة لِقدّام

أنحنا دوب اتولدنا

الخطوة لِقدّام.

تحفظ "فاطمة" قصائدي عن ظهر قلب، وحين تدربت في المدرسة إبان كنا طالبين في معهد المعلمين لقنت الصغار القصيدة وسمعتهم من وراء السور يتغنون بها، ظننت نفسي مهماً للغاية، لكني تواضعت حين اجتمعنا مساء للونسة في بيت النور.

مهما يكن من شأن زهوي وشعري فأنا ضيف في بيته، نلعب الكوتشينة ونأكل السمك المجفف في عصيدة "كجيك"، ونناقش مشكلة المياه التي تعتري المنطقة، حتى أن ناظر كردفان دخل البرلمان يحمل صفيحة فارغة قرعها ليذكّر النواب النوام بعطش بلاده.

لم تكن مناطقنا عطشى بالمعنى الحرفي، إلا في مواسم المجاعات، ولكنها ابتُليت بجمعيات غربية ومنظمات تحفر الآبار بين التجمعات السكنية لمقاومة العطش، فتنتشر حالات من التسمم غريبة، عدا ظهور أمراض لم يعرفها الأهالي قبل ذلك، واصفرار أسنان الناس، نتمتع في الخَرْبَقَة بأسنان بيضاء ناصعة جميلة، ربما لكثرة ما نستخدم المسواك، أو لصفاء مائنا في قلب التبلدية وحفيرة نيلنا الصغيرة، أما نواحي دارفور البعيدة، فكل أسنان صغارها وشبابها صفراء، يقول النور:

- *هذه بركات ماء آبار الغربيين.*

يقص أستاذي الحاذق الفهيم أجنحة زهوي بلا قسوة إذا تحاورنا في الشأن السياسي، يحاول تحجيمي بشكل لائق، يسخر من الشعر والكلام، ولا تعوزني الوقاحة المبطنة بالأدب لأقول له:

- *البيانات النارية التي يصدرها الحزب أيضاً مجرد كلام.*

يطرح النور حلولاً توفيقية لمشكلة دارفور المستفحلة، يرفض النغمة الانفصالية في بيانات ثوار دارفور، يقول:

- *السودان لو تفتت علينا السلام.*

يدعم أستاذي بيانات الحركة التي دعت إلى سودان ديمقراطي حر موحد. لكن كلانا نعرف أن الحرية نسبية، وأن مساكين إفريقيا المهمشين لن يحققوا نصراً من دون تبعية للخارج، وربما قبل أن يدركوا أن القضية قد تدّولت؛ فصار الشرق والغرب معنياً بها دون أبنائها، ولم تعد قوات الاتحاد الإفريقي وحدها كفيلة بالسلام في المنطقة، بل تدخلت الأمم المتحدة.

يرى أستاذي أنه إذا كان لا بد من التدخل الخارجي، فليكن من دول لا تنتمي إلى الحلف الأطلنطي: فنلندة والنمسا وسويسرا مثلاً، ومن آسيا وإفريقيا، كالهند وكينيا وجنوب إفريقيا، فتلك في رأيه دول لا أطماع لها.

يا أستاذي، من في العالم بلا طمع؟ عداي! كلهم زي بعضهم. وبلدنا نهر بترول ومخزن ذهب ويورانيوم وصمغ ولحم وعاج وأبنوس، وأرض طين ومويه وبشر. مع ذلك أوافقه؛ خربشة الكديس(*) أقل ضرراً من لسعة العقرب.

تعد "فاطمة" جبنة القهوة(**) وتفوح الرائحة الحلوة المرة، ونجلس معاً كأننا لسنا أستاذاً وتلميذاً، فقد كبرتُ والتحقت بمعهد المعلمين، نجلس ندين؛ نتحاور في فكر كل منا فلا يلين واحدنا ولا يتنازل، نتوافق على أننا مسؤولان عن تنوير الجماهير بحقوقهم وحرياتهم ونختلف في وسائلنا لحياتنا المتمناة، يحتمي بماركس قائلاً:

- *"الترياق الوحيد للعذاب هو التألم الجسدي"، يجب ألاّ نكتفي بالكلام، يوماً ما سنناضل بالسلاح.*

يرعبني السلاح ولا أتصور العذاب ولا أحبذه، ألجأ إلى ماركس أيضاً لأدافع عن وجهة نظري: الإنسان أثمن رأسمال في الوجود، وسر في طريقك وَدَعِ الناس يسيرون.

يتحدث أستاذي بحرقة عن اختفاء الشباب المتمرد أو النخب المثقفة الواعية في بيوت الأشباح حيث "يفسحونهم"(***) من دون رجعة في أم درمان والخرطوم، ويتوقع أن تمتد ظاهرة التفسيح والتعذيب والقهر تلك

(*) القط

(**) غلاّية القهوة

(***) تعبير يفيد اختفاء الأسرى

إلى دارفور بعنف أكبر، لكنه يأمل أن المستقبل لنا، سيأتي يوم نسوس فيه البلاد ونجازي مَنْ ظَلَم.

عند هذه النقطة نختلف، الانتقام ليس في أجندتي، السودان ما سجن ولا أوضة بترباس(*)، وإذا كنا سنقيم دولة العدل يوماً بالقوة ونحمل الناس على ما لا يريدون، ما الفرق بيننا إذاً وبين كل السلطات الدكتاتورية في العالم؟ وكيف يحق لنا الحديث باسم الناس؟

يؤمن أستاذي أن الشعب حتى لو انتصر يحتاج إلى دولة، وأسير معه حتى يقول إن البروليتاريا ستصير طبقة حاكمة، ولتحمي دولتها لا بد أن تستخدم القمع. يعيدنا عنوة إلى ما ثرنا من أجل الخلاص منه، ما معنى أن نرفض قهر الطبقات ونرضى بقهر الدولة الجديدة؟ هل نستمتع بدور السلطة على الطريقة نفسها؟ عن نفسي أفضّل أن أظل في فئة الأضعف، حيث الصدق أمام نفسي منجاتي، أما جحافل الغلابة والمقهورين والعمال الذين يصورهم أستاذي قادمين فلا أرتضي أن يختاروا القمع والعنف ليحموا مكتسباتهم.

أستاذي دائم الاستعارة من ماركس، يقول لي حين أقش أوراقه في الكوتشينة، وحين أفكك النظرية الماركسية إلى مكعبات وأفتح في جدارها الصلد دروباً للشغب:

- *ما أحسن ما تحفر أيها الخلد الهرم.*

أناكفه مشيراً إلى حقيقة أن كل ثوار الأرض إنما يسعون وراء السلطة، فإذا وصلوها لزمهم ثائرون جدد ينقلبون عليهم، ونحن حَفَدَةُ الفكر الذي انهار عالمياً وما زلنا نعتنقه؛ علينا إدراك أننا نقاتل في الوقت الضائع، فالبشرية لن تنجو أو تتوقف عن أطماعها إذا حفرنا خنادق تعزلنا بعضنا عن بعض، ولا بد لها من تشذيب أفكارها ونصوصها،

(*) بقفل

وخلط اقتراحات التاريخ وتجاربه وفق الواقع والآني والظروف. يتهمني أستاذي أبي غانديّ أكثر مني ماركسي أحياناً، وانتهازيّ بلا موقف أحياناً أخرى.

ماذا يهم؟ هذا أنا خليط من أفكار ورؤى، الثابت عندي الرحمة بالإنسان، ما عدا ذلك كل شيء يتغير. توافق "فاطمة" والدها علناً لكنها تنظر نحوي بإعجاب، وتوشك على لمس فكرتي ثم تحجم مكتفية بإعارتي الكتب في الشعر والرواية، كأنها تمد بيننا نهراً عذباً وتلطّف عليّ عبء الفكر وسطوته المضنية.

يا رب لماذا لا يتحسس البشر إنسانيتهم، لماذا لا يكونون مثلي شيوعيين يتوخون العدالة ويرفعون شعار السلام؟

قضيت سنوات جميلة في الضعين، صارت بلدي أكثر من الخَرّبَقَة؛ ما في الخَرّبَقَة إلا حوش بيت الصوفي أبي وحوش الحكّامة. أما هنا فعمار ودنيا كبيرة، حتى في الليالي التي يغيب فيها القمر الذي يسمح للناس بالتزاور، يمكننا شراء كشافات يدوية صغيرة تعمل على البطاريات، أتجول في الساحات، وأرتاد السوق، حيث الدنيا عمرانة، تصطف مخازن الباعة كرانك يسمونها "الرواكيب"، كل راكوبة تبيع ما تيسر، يجلبون بضائعهم من أم درمان، أو ليبيا أو مصر، ثياب وسلال وأسبتة ومراكيب وحاجات البنات؛ بنس(*) وحنة وريحة، حاجات الرجال؛ سفة وسعوط وأسواط عنج، وللبيوت؛ عاج وأبنوس وأرز وذرة ودخن وشاي وزيت وسكر، حتى العسل والسمن موجود. رسل "باسالم" اليماني في دكان الخَرّبَقَة لي خمسة وعشرين ألف جنيه فابتعت له باغة عسل، جركانة مليانة ع الآخر خمسين رطل عسل ما حصل، ثمنا في الخرطوم مية ألف جنيه ويمكن أكثر، باعها بالقطارة في الخَرّبَقَة.

(*) بُكَل الشعر

لـو مـا عملـت لي عصـيدة في القطيـة الّـ سـكنتها، ومـا مشـيت بيـت النـور، بمشـي السـوق، بقعـد في مطعـم رخـيص، طلبيـة اللحـم خمسـمائة جنيـه، لـو هـف علـى بـالي طبـق فـول بالطمـاطم وزيـت السمسـم، ده أغلى، ألـف جنيه كاملة، بيقولـو الفـول في العاصـمة أكـل الغلابة!

ألـذ طعـام بالسـوق "المنصـاص"، بجيبـو المـاعز ويقسـموه، القطـع الكنيزة، رجلين أدين ظهر وصدر هذه اسمها لحم الزور، يشوحوها على جمر مشكوكة بعيدان خشب، ولو تقطعت صغير وخطوا فوقا الشطة والبصـل، مثـل شـية نـاس كردفـان "الآقاشـيه"، لحـم بالبهـارات والفـول المسحون، الله؛ ألذ شيّه تذوقا.

لـو قروشـي تـأخرت، نـاس المطـاعم يصـبرون علَـيّ ويقـدمون لي القدقدو، شراب الدخن، الّ في السوق ما بجوع.

مـع ذلـك لـيس السـوق لتعبئة البطن الخـاوي فقـط، لكـن عمليـات البيع والشراء والإعلان والإعلام والمصالحة والمصاهرة تتم فيه، ناهيك من الكر والفر مع رجال الحكومة، يهرب الشبان المناكيد بتوع المزاج حين يصل جهاز مكافحة المخدرات باحثاً عن حشيشة البنقو التي يزرعها الأهالي في حصص بعيدة عن العيون، ويتداولها الرجال في المقاهي، يلقي رجـال المكافحـة المحاضـرات التوعويـة في حـوش المدرسـة، يكدسـون في السوق ما وجدوه من الحشيشة وما سلّمه الأهالي بأنفسهم لِيُحْرَق وسط رقص النسوة وزغاريدهن.

يعلن السماسرة في وسط السوق، أن الدِّلَالة فُتحت لمن يرغب في شراء أراض في نيالا ناحية حلة سكر أو شتت أو الكنجو، وأنا أذهب إلى نيالا راكباً اللوري برفقة أستاذي وآخرين كثر، نتحمل قيزان وطين الماء الذي يوحل عجلات اللوري الضخمة. "وينه غزلان القويز؟" ده

كلام أغاني ساكت. يطلق السائق النزق صوت البوري(*) من كوز مربوط في عجلة القيادة، لن يذهب الصوت بطين الحفر، ولكنه يعجب السائق.

نسير في درب المرحال الموحل الذي شقته أبقار قبائل البقارة في نهاية الموسم السابق، نتحمل لسع البعوض وهجوم الهوام على لحمنا الحي، ونداري خوفنا من ظهور المسلحين من قطاّع الطرق "الزمان داك كان في حرامية لكين ما جنجويد"، نتلهى بالغناء ونرفع جرعة الشجاعة في دمائنا نغنّي للشيخ إمام: طلعوا التلامذة ورد الجناين، اسمع يا خاين وشوف وعاين، ملعون أبوك ابن كلب خاين، يا صوت أمريكا يا أمريكاني، رجعوا التلامذة للجدّ تاني.

نصل نيالا بعد يومين لا لنبتاع أرضاً في حلة سكر، ولكن لتوزيع منشوراتنا والوقوف على أحوال الرفاق وتنظيم اجتماعاتنا.

كانت سوق البلدة في الماضي مدرجاً لمطار خدم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ما بقي من ملامح المطار إلا خشبة مستطيلة تتوسط الساحة، رُفع فوقها عدد من البراميل، وسُقفت بتندة تساعد على عقد المزادات والدلالات نهاراً مع اتقاء الشمس الحامية، نتريث إذا وجدنا عندها رجال الأنصار(**) الذين يرتدون العراقيات القصيرة "أم بكو"(***) بجيوبها من ورا. يحملون عصاتهم المعروفة باسم "على الله"، يدعون لعودة الخلافة في دولة حديثة ديمقراطية، مع أن سلطان دارفور العظيم في ماضي الزمان وقف في البقعة نفسها ونزع عمامته قائلاً: انتهت الخلافة.

(*) الزمور

(**) حزب سياسي

(***) نوع من الجلابيات

ننتظر صابرين هادئين في مقهى قريبة نسمع إذاعة لندن من مذياع البطارية، إذا ما غادر الأنصار الخشبة والسوق، وقف الأستاذ وقال كلاماً في العدالة، ووزعنا المناشير على مَنْ حضر، فإذا نزلنا عن الخشبة اعتلاها صبية يتقارعون لاعبين بسيف خشبي؛ وأعتمت السوق على أصواتهم ينشدون:

- *هذه أرضنا وأبي مات هنا، وأبي قال لنا: مزقوا أعداءنا.*

انقضى ذاك الزمان كحلم عابر، فقد زلت قدمي أم مركوب، وطاش رأسي القراي الكّتاب، أتذكر أني كنت أهيئ نفسي للعمل أستاذاً في الضعين وأحلم بتقاضي راتب عشرة آلاف جنيه، وهو مبلغ يفوق بكثير ما تعارف عليه معلمو المدارس في الخرطوم الذين يتقاضون ثلاثة آلاف جنيه لا تفي بالحاجة، على أساس أني سأخدم في مناطق شدة، فإذا لم يتسنّ لي ذلك شاركت أستاذي وابنته في مدرسته الخاصة، "الأستاذ النور" أفضاله علَيّ كثيرة، وبنته "فاطمة" في الميزان ميت راجل، شالت المنشورات في صدرها تحت القميص، وخَشّت وسط المظاهرة، وبدقيقة كان كل واحد في الساحة شايل ليهو منشور، من فين جيت المناشير ما في زول عارف، والبنت تنطط مثل الغزال بين الرجال الغضبانين الّ بيصيحوا:

- *حرية.. حرية.*

ما كنت داير أفَشّل أستاذي النور ولا الرفيقة "فاطمة"، كنت متأكد أن بكرة بيطلع بشمس حنينة صح على الضعين والسودان كله، قلت برجع وبنسوي لينا مدرسة، بدرس الأولاد العربي والجغرافيا والتاريخ، أصْلي ما قوي بالعلوم والرياضيات، خلي ده على "فاطمة". ولو أن "فاطمة" دي عجيبة، مجمع معارف، تلاحق المعلومة بجلد وصبر لا قدرة

لي على تحملهما، تعكف أحياناً على قضايا لا لزوم لها، ولكنها تعرف أكثر وتستمتع، مثلما فعلت حين راحت تلاحق كلمة "زول" السودانية في المعاجم وكتاب "لسان العرب"، ثم دخلتْ في حوار جدي وقفتُ عليه شاهداً لا يتدخل بين البت وأبيها، أعلنت بفرح أنها وقعت على تفسير كلمة "زول"، وإن لمثل هذا التفسيرات وانفراد السودانيين باستخدام المصطلح دلالة كبيرة تنعشها وتنفخها فخراً، أصل "فاطمة" مغرمة بالسوادن وأهله، مزهوة بأنها خيط في نسيجه.

قالت للاستاذ:

- *تلقى كلمة "زول" في كتاب "الطبقات" لابن ضيف الله، وتلقى تفسير في "لسان العرب"، القاموس يورد معاني كثيرة لدلالة الكلمة، كلها في ما أرى تنطبق على السوداني أكثر من سواه، فالزول هو: الشجاع، الذكي، الفطن، السمح، اللطيف، الكيّس. الناس تستخدم الكلمة لتقصد الشخص، ولكن الكلمة في النهاية تعني شخصاً مميزاً حقاً، أما إخواننا العرب في المشرق تحديداً فيستخدمونها كما أصلها في النوبة، أي المتحرك بتردد.. حاجة كده تشبه الطيف.*

يبتسم الأستاذ كما لو أنه وحده من يعرف، تشكل هذه الابتسامة "الكاريزما" الخاصة للأستاذ والتي تسحب وراءها فطنته وحضور ثقافته ومعرفةً موسوعية تذهلنا، يقول لابنته مداعباً بود:

- *تعبت كثير يا فاطمة وانت لاحقة كلمة الزول دي شنو، اسأليني يا غاوية شقا وتعب، كل اللي قلتيه ده كلام كويس.. ما بَطّال، لكن كلام ساكت، أااااي، كلام ساكت، حاجة تنفع كده مع العامة والتعبانين اللي دايرين يثبتو أن البشر هنا*

أو هناك كده في مصاف الملايكة، ده كلام ساكت، تأويل عاطفي، حتى لو لقيت الكلمة في "لسان العرب" . الحقيقة أن اللفظة دي، نوع من الارتداد اللغوي، جاي من النوبة اللي يقولون "سلن" يقصدون التحرك بأرجحة، سول، يعني توهم الحركة، حاجة كدة زي الشبح، وهي اسم الفزاعات التي يخوفون بيها الطيور آلـ مسوّينها على هيئة إنسان، حاجة كده مجهولة ما ليها معالم، انتقلت الكلمة مع ماي النيل، وانقلبت السين زين، يعني ما تبقي مندفعة وفرحانة بلا معنى، المسألة ما هي الشجاع ولا الذكي.

تقطب "فاطمة" جبينها ويتكرمش وجهها الحلو، لا تحب تفسير والدها المنطقي العلمي الذي يصادر زهوها، ويضحك الأستاذ ساخراً ثم يلتفت نحوي سائلاً:

- *وانت رأيك شنو؟*

أنا لا أحب بحثها في القواميس، ولا تفسير أستاذي في اللسانيات، أحب إرجاع المسألة إلى عمق الإنسان السوداني البسيط، الذي أظنه فيلسوفاً يتجاوز عادية الأشياء والمألوف فيها، فيدس تقييمه الخاص للبشرية في لفظته، زول، أي المخلوق الذي سيزول، الزائل الذي لا يدوم، حيث لا يدوم إلا وجه الله.

لا يدوم إلا وجهه، كل شيء صار ورا. كأن أيامي زالت، كأني أنا السر الأول: زول؛ زال.

رحم الله أيام حوش بيت الأستاذ والمعارف تطير من خشمنا وتصب في عقولنا وأرواحنا، والجدل يعطينا ويمنحنا قوة نظن معها أننا أسياد أنفسنا، في لحظة صحو لو راجعت نفسي دقائق لقلت:

- *كيف أنا أفوت الحياة دي، وألزق بالخَرْبَقَة؟*

آسف يا أستاذي النور، آسف يا شيخي ماركس، والله، الّـ حماني أرجع ليكم شي كبير، يمكن أوّله أن الدرب دي ما ممكن تناسب شاعر، وتاني شي؛ عينيها.

لست قادراً على حساب السنين التي فارقتُ فيها أستاذي وابنته، ولا حتى متى كانت المرة الأخيرة التي دخلت فيها في نقاش جاد في الفكر أو السياسة مع أي طرف، فقد حدث ما قلبَ دنياي رأساً على عقب.

أنا "سر الختم".. ود "الزين"؛ المتعلم الماركسي، جنّيت.

سأحدثكم بحديث قلبي ولسانه، لا باللغة المقعّرة المقعّدة، أنا جنيت عديل، جيلي الشعر والقصيد، ولد المدارس وماركس اتجنّن، والناس يعاملونني على أني مجنون، يمكن صحيح، أحد يسيب بت متعلمة فاهمة مثل "فاطمة" ويعلق بـ "تاجوج"؟ ركبني عفريت "تاجوج"، سقط علَيّ من عينيها الصغيرتين اللتين تتسعان للكون، تلبّسني من حروف اسمها "تاجوج" الذي يطابق اسم حبيبة المحلّق في الحكاية، وركبني عفريت المحلّق ذاته، تقول خش تحت جلدي وسكن ورا ضلوعي، يقولو جن! وماله؟ أصله ما في عاشق يكون صح عاشق إلا لو جن، مثل الشيوعي، ما يكون صح شيوعي إلا لو جن، النصل يغل في الروح، وربي لا تشف مبتلى.

رأيتها في حفل طهور "آدمو" ود "حَوّا"، وطار النوم، ناس الحلة متحلقين وراجل وبت يكرون في المنتصف، الحكّامة تردد بتجلٍّ:

- *بقول ليك ساه.. ساه.*(*).

ويردد الجمع منسجماً:

- *دي هينة.. دي هينة ناري..*

(*) أقول لك لا يهم لا يهم

رأيتها ينحسر الثوب عن كتفيها، وفتحة صدرها تنير العتمة، حين التفتتْ بعينيها اللامعتين طار عقلي. تقدمتُ، صفقوا، قايلين برقص في الوسط، تقدمت هي براها(*)، رفعت الثوب وطعجت جيدها، وضربت رجلها الأرض، وقع النشيد بنقراته في قلب صدري تماماً:

- *حني يا ريدة، قلبي أبه، النزول بلا ريده، قلبي أبه.. حق. حقوق.. حق. حقوق.*(**)

تنقلنا ثنائياً مجنوناً راقصاً على نغم القصيدة، يعبر الهواء بيننا ريحاً عاصفة لا يراها غيري، نوشك على التلامس ولا لمس، رجع الدلوكة يخض دمي، ليلتها كانت لدي بقية من عقل؛ فلم أشدّها وأغمرها ولكني أوشكت، حتى صاحت الحكّامة:

- *صلّوا على النبي، يا اخوانا أمسكوا الخشب.*

بعد ده؛ قلت ما بمشي الضعين قبل ألقاها.

ترصدت خطوها ومشاويرها أياماً، ورسلت بنظرات عيوني مواعيد، في يوم لحقتني مثل غافلة، لكين فاهمة. يا هووو.. ما شفتو لما تلاقينا عند الحفرة، العيون تلاقن، قبل أدينا سَلّمن، وخشمي ما فتحته، دموعي تكلمن، قلت أعرسا ونرجع سويا الضعين.

الهدايا الّـ جبتم للبنات أخواتي في البيت أديتم لتاجوج، هي ما بتشبع من الهدايا، وأنا ما بشبع من ضحكا ولمسا ورضاب الخشم السكري، ومن كذبا كمان، عارف البت كذبت كثير، لكين قلت دلال. شهر ورا شهر سنة ورا سنة.. ما رحت الضعين، وما عرفت أقول شنو لـ "فاطمة" و"النور"، أسسوا مدرستهم من سنين من غيري، وارتادها أولاد الخَرْبَقَة وبناتها الأصغر مني، لكين أنا خلفت وعدي معاهم، نسيتهم،

(*) وحدها

(**) تعبير عن أن الريد- أي الحب- شلع قلبه وخربط كيانه

صرت "مجنون تاجوج"، مغرم صبابة بيها، تلعب بي وألعب بعشقها، ألقاها عند النيل، أو في أول شجرات الغابة، ورا القطاطي، لَمّين تغيب الشمس، تطلع "تاجوج" من قطية أهلها في الظلمة، تخاف تجيني في الليالي المقمرة، تخاف يفضحها الضو الفضي الّـ بلون الهوا، لكني أُصر، أقول:

- *يا بنت عايني كيف ضو القمر بيرسم على زندك المبخر المدلك جنة منورة.*

لا أكتفي بالقول، أعتصرها وأقبل كل مسامة مضيئة على زندها الطري، وهي "تبرعط" بين ذراعي وتنزلق ملسة ناعمة سريعة مثل السمكة، تنفلت ضاحكة ساخرة، مستمتعة، تنشف ريقي، لا تدخلني جناها، تكتفي بوقوفي في الباب، أراقب النعم والملذات ولا أصلها كاملة.

اتدفقي ما تبقي نزاز.. نيران جوفي تسرج احترت كيف أطفيها.. أسباب علتي ظبية العنس الحايرة معانيها.. بت الحور بلحمها وشحمها.. كذاب المشكك فيها... قال عنها الترمذي في الحديث راويها.

هل كفرت حين تدلهت بعبادة السمحة المغوية "تاجوج"؟ قبل عشقي لها قال عني أبي إني كفرت، لم أعتنق ترويداته وحضراته وإن تمتعت بها، ولم أعلم القرآن وإن أجدت حفظه على يد الحكّامة، وبعد هذا كله رحت مع الشيوعيين، أيّ كفر! كل كفر وجنون يهون بعده، حتى أمله في رؤيتي أستاذاً مهاباً تبدد، عايرني ناحباً متعجباً من ولده الوحيد يقعد بلا عمل، هددني بإرسالي آخر الدنيا، في الحدود الإثيوبية، مع ناس الجنقو عمال التراحيل أعرق وأتعب وأسفّ التراب وبالكاد أجني قوت يومي. لم يكن أبي جاداً، ظل يدعو لي في حضراته، وظللتُ هائماً على وجهي أقول شعراً في "تاجوج".

ظننت في البداية أن "تاجوج" تسوق دلالها علَيّ وتمتحنني وتثير أشواقي طلباً للمزيد، استمتعت بصدها وإقبالها، فاتتني تحركات أمها النسائية التي ترتب شيئاً جديداً، وتلك الهدايا الغالية التي لا حيلة لي في توفير مثلها وهي تتدفق على بيتها من تاجر السمسم "البخيت". خَبّرتني اللئيمة "حَوّا" أن البنت خاينة، تسوق دلالاً علَيّ وتمكن "البخيت" البدين المغفل منها وحتعرسه، قلت "حَوّا" ملعونة وغيارة ولسانا سليط داير ليهو قص. لكين البنية ذبحتني، صارت "تاجوج" تباعد لقانا وتتهرب، ولمن سألتها ما نكرت، قالت:

- *بتقدر تحيب الّ بحبيه؟ الدنيا صعبية.*

أذبحا؟ أكْتُلا؟ أشق راسي بسيف وأرتاح؟ بكيت، وما رققت دميعاتي قلبا، مشيت السوق لقيت "البخيت" مفنقس(*) بجعبته(**) الكبيرة عند دكان اليماني، خات ليهو سفه معفنة في خشمه. شتمته، وقلت ليهو:

- *ما حتشم مسايرها وراسي تشم الهوا.*

عاين ببلادة وبعدين قام يكلم "أبَّكر":

- *العب(***) ده بيقول في شنو؟*

طار صوابي، أنا عبد يا خرتيت؟ يا الـْ ما بتعرف القلم من العصا؟ شديته قام واقف على حيله مفزوع، و"أبَّكر" يحول بجسده بيني وبينه، رميت العمامة عن راسه ونتشت شعره المنتوف وهو يضرب صدري، بس ما كنت حاسس، ما فارقة معي، وقعنا في الوطا، تدردقنا(****) وقلنا سباب كثير، نبزته بكل شتيمة يعرفها لساني، وتدفق دمه ودمي،

(*) مقرفص

(**) بمؤخرته

(***) العبد

(****) تقلبنا متدحرجين

لمين[*] نادوا "شديد" وقدر علينا بجسمه الّـ زي الحيطة، فرقنا، خلص "البخيت" من يدي، وسمعت من يقول:

- *أنت مجنون؟ كان كتلت الزول.*

اعترفت للحكّامة وهي تحاكمني وتحاورني أني كنت سأقتله حقيقة، وما زلت سأفعل لو وقع بين يدي. قالت ببرود الحكمة:

- *لو كانت تاجوج دايراك ما لُمْتك ولا خَطّيتك، لكن البت دايراهو.*

معقول! كيف ترضى الحورية تنوم تحت كوم الشحم؟ وكيف يخط خشمه العفن في خشما؟

الخاينة الحبيبة، عَجّلت عرسا، وقالت لي "ست النفر" وأنا أبكي:

- *استحي، خلّي عندك دم، خلاص، البت ما نصيبك.*

ليلتها ضرب رجع صوت الدلوكة في جوفي. ربطني أبوي في القطية في رجل العنقريب، ووقف"شديد" بالباب يحرسني، وأنا رفعت العنقريب وقلبته ومرغت وجهي بالتراب وعفرت شعري وثيابي، جحت حتى طيور السما وقعن، وناديت: "تاجوج.. تاجووووووج". غنيت أغاني الشوق الّـ بقولوها في الوجع:

- *شقيشق قول لي يا مروح، قبال صباحنا يبوح، والله ما بقدر أسيبك، قليبي تشيلا تروح..*

دفر أبي باب القطية مشفقاً حانقاً مخففاً عني مؤنباً موبخاً، حايلني بالكلام، قال لي:

- *ترجع الضعين هسه، وتنسى، تبقى أستاذ، وين تلقاك العويرة دي؟ هي حتندم، لكين انت ما حتعاين ليها بعين.. أيوه.. ما تستاهل..*

(*) عندما

يا بوي يا ريت أقدر، غميت مع صياح الديك، حالي حال المحلّق قطع قلبيه صياح الديك.

جمع أبوي أصحابه الدراويش وذبح عتوت، داروا حولي وهو يبتهل:

- *إلهي زج بي في بحار أسرارك اللاهوتية، وزمزم قلبي لمشاهدة ذاتك العلية، وزهدني في ما سواك ليدوم شربي بكرة وعشية، وصم على قلبي عن الالتفات لسواك من العرش إلى البهموت، إلهي ضمني إليك ضم فناء وبقاء بك، ونَوِّرْ لي بنورك لأشهدك في كل مكون بقدرتك.*

بكى أبي بحرقة وأنا دائخ بينهم، ثم تمتموا بإيقاع واحد:

- *لا إله إلا الله، الأمان الأمان.*

داروا والتفّوا حولي متطوحين يرددون:

- *لا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، لا موجود إلا الله، ما في الملك إلا الله، هو الله.*

كرروا ابتهالهم مرات عديدة، وانتشوا، ثم راحوا يرجفون حولي وأرجف، ورؤوسهم تتطوح فوق نحورهم، وأجسادهم تنفلت كما اللولب الحائر، صائحين:

- *الله الله.. الله.. الله..*

ظلوا ينادون الله من الليل لمين وصلنا صوت الأذان، وأنا مكوم بينهم مثل جيفة، ما عندي كلام، خلصوا، سكتوا، ومر في الهوا رجع أذان الفجر ومناجاة الله أكبر... قمت، وصحت بعلو حسي:

- *تاجووووووج.*

أمي جابت لي كودية، شيخة تساوي زار، قعدوني بين الحريم، ست نسوان مساعدات ليها، الكودية لابسة فستان أحمر وحاملة طار كبير تدقه كل شوية، وتناوله لواحدة من المساعدات وتقوم هي بحركة هنا

وهناك، ذبحت ليها حمامة وخطتنا بباب الحوش، كل اللي يدخل يعدّي فوقا ولاّ ما يدخل، وأنا فوق العنقريب أعاين تعبان، ولّعوا فحم المنقد، وبنات صغار دارن بالبخور، وأنا تعبان، وأمي ترجف، قايلة سحر وعفريت "تاجوج" بيطلع من راسي، الكودية مررت الودع فوق البخور، وقالت لأمي:

- *راكبه جِنّ أحمر، الولد ما هو بخير.*

أها، فتحت العلبة، وعرفت الكودية نوع السيد الذي يركبني، قلبت بؤبؤ عينيها بفزع وهي تصيح:

- *يا أولاد ماما تعفّوا وترضّوا.. تعفّوا وترضّوا..*

دقت المساعدات دفوفهن والدلوكة، وتمايلن وقد أسكرتهن المريسة المخمرة، وخنقتني كثافة البخور فسعلت، وصحن:

- *الله أكبر.. الله أكبر..*

ثم رحن يدرن حولي يغنّين:

- *اللول اللول يا لولية.. يسحروك يا لولية، يا السمحة الحبشية.. اللول اللول..* (*)

غميت بين النسوان.

جن أبي لما عرف، نسى الطريقة والحضرة والمهابة، وشتم أمي اللي مرغت هيبته بالتراب باستعانتها بالزار وطريقته وصحبه موجودين، حمّلها مسؤولية خيابتي، وهدد بطلاقها، وجر سوط العنج من حيط البيت، وضربني، أول ضربة أشعلت النار في جلدي، ثاني ضربة ما فاكر حصل إيه، أدور وأصيح وأتلوّى.

جاءت الحكّامة مساءً. ما نسيت كيف خانتني الحكّامة وضربت الدلوكة في عرس "تاجوج"، ما داير أشوفا، سمعتا تلوم أبوي وتدافع عن

(*) نشيد الزار

جنون العشاق، وتوبخ أمي على فعلتها باستجلاب كودية الزار، وكأنها قالت: "ما في حاجة تقدر على العشق". أيوه، العشق يترقرق في فؤادي مثل موية النيل ويفيض، يشب نار حراقة. أبوي قال ليها:

- *وَدّيناه يصير أستاذ، لكين نقول شنو؟ القلم ما بشيل ليهو بلم.*

ضحكت وردت:

- *القرد كان ركبوه ورا بينط لقدام، والعاشق كان قلت ليهو وقف؛ مشى، وكان قلت ليهو امْشِ؛ وقف.*

حتى العوير العبيط "شديد"، ده اللي ما كانت أعاين ليهو بعيني وإن كان زي الحيطة، وإن شال ليهو كلاشينكوف ورا ظهره، حتى ده جاني يقول:

- *سيبك من تاجوج وتعال جيش التحرير.*

إنت عوير يا ولد؟ جيش التحرير شنو؟ وجنجويد شنو؟ أنا شاعر، لو فرحان بالكلاشينكوف الثقيلة فوق كتفك، ما تقدر تشيل بيوت الشعر في قلبك. ولا حتى كلام ماركس في عقلك، قال المتمردين قال! أنا؟ أنا متمرد عَ الدنيا دي كلها قبالكم، لكين ما تحاول تلعب بي، تقول سوي كده وكده، لاجل تنسى! منو الّ قال ليكم داير أنسى؟ ناس مجانين، بتعرفو شنو عن العشق يا عاقلين انتو؟ ما حسيتو الهيام، ما ذقتو لوعة الجوى، ما صابكم الغرام، بتعرفو شنو؟

يا شمس بشفق عليك

تغيبي والبت في حضينه

يا قمر ترحل،

وقليبي في حضينه؟

يا هنية من حواها

وتنفس في شَعرا

ويا موت من عينيه شلعوا منها صورا.

درت أقول شعر وأتحمل لوم الناس مثل حامل كفنه وإبريقه يسكب عَ الرمل كاسه، بعدا ما لي صاحب ولا سلوى، نحل جسدي وتراجعت صحتي وخانتني أقدامي، وانتفخت أجفاني بحرق دمعها.

لا أفيق من شراب الكيرا المسْكر، لو ما لقيته شربت المريسة أو عرقي البلح، المهم أفارق العقل الّـ يتباهون بيه، وتظل صورة "تاجوج" يوم رقصنا قبال عيوني لو في الخيال، ما هماني زعل الحكّامة، ولا قولة الناس:

- *تقوم عليه الحالة يجن. لا شغلة ولا مشغلة.*

قلبي بيها مشغول، وكل الّـ راح من عمري كتابة وقراية وأفكار طَيّرا العشق.

لو الكيرا ما مسكت لساني أقول القصيد:

- *مجروح قلبي نزاف*

عصفور محروم الشحر

مقصوص الجناح

يفتش له وكر

النار النار في قلبي

مين يطفيها.

حاولت الحكّامة نصحي، ولكني ظللت غاضباً منها ومن دلوكتها التي لعلعت والحبيبة تزف لحضن رجل آخر، ومن إنكارها أنها هي التي علقتني في الحكاية فإذا ما دخلتُها بكامل إحساسي تخلّتْ عني، وصارت تدعوني لما هو دنيء، تقول:

- *إذا أهلك بنبحوا، انبح معهم.*

ما بنبح، وسأظل الشاعر الجيلي، قدر "تاجوج" على جبيني، وإن كانت سكّتها أحزاناً، سأظل كلما قال أحدهم: "*جن السر*" .

أقول:

- *مكتول هواها، السمحة الجاهل، أم نهيد يجنن، القمره الّـ غطسوا حجرا، وإذا جافاني النوم، كريته بالقصيد، لأجل ينام الناس وتسهر عيوني، النوم تعال، تعال سكت الجهال الّـ ما بيعرفو الريدة، الّـ قلوبهم ماتت وأجسامهم تعيش، النوم تعال ليهم وجافيني.*

وكيف ما الشمس واحدة، والقمر واحد، وكيف ما ربي وربك في السما واحد، أمر الهوى بقلبي واحد، بحبها لبكرة، ودايرا للموت.

عذاب الغرام يستاهل، الّـ ما بيعرف، بيقول كلام ثاني.

"باسالم"

تمرّ "يافع" في البال، كثيراً ما تمر. يباغت الحنين فؤادي فأجهش بالبكاء في خلوة لا يلمحني فيها الذين يظنون قلبي قُدّ من صخر.

تمرّ "يافع"؛ مدرجات خضر وقمم مسننة وبيوت رمادية تطل من جدرانها عيون النوافذ الصغيرة المربعة، تراكبت البيوت بعضها فوق بعض، تُلاعب العالية منها الغيم وتختفي إلا أطرافها وراء السحاب، تلك كانت أرض طفولتي وصباي، بعدها صرت كهلاً متعباً؛ صاحب حانوت، يجيد الحساب وينسى المواويل.

عند باب دكان الشيخ في قريتنا "قدمة"؛ أكبر قرى "يافع"، وبعد أن ينهي أبي يومه الزراعي في تعهد أرض الشيخ المزروعة بالذرة، يجلس فاشخاً رجليه، ويتصرف كشيخ، ليس هناك فارق كبير للناظر، فكلاهما يرتديان خفيف الفانلات والوزر والعمامات، ويتمنطقان بالجنبية(*) المسننة مربوطة بحزام قماشي عريض في خاصرة أبي، وبسيور جلدي فوق كرش الشيخ.

جنبية الشيخ فضّية مسنونة لامعة، وجنبية أبي سوداء داكنة صدئت أطراف غمدها، لا يخرجها من جيبها لأي سبب بينما يكثر الشيخ إخراج خنجره المميز المعكوف لتلميعه. يتعاطى كلاهما (أبي والشيخ) السعوط، حُق الشيخ فضّي مزخرف يتوسط غطاءه حجر عقيقي،

(*) الخنجر اليماني

وسعوطه فاخر، سعوط أبي شعبي عادي، كُتب على ظهر علبته الحديدية بخط متعرج يكاد ينمحي: "يا ظريف سف وتهنا، كيفك في الدنيا".

يدور أبي لقمة السعوط بين أنامله، يستنشقها متكيفاً متلذذاً ويدحشها في فمه؛ ويعطس، ويحدّث عما كان من بطولات إبان الثورة على الإمام، وفي مقيل القات الذي لم يسمحوا لي بارتياده قبل بلوغي الخامسة عشرة من عمري، وإن كنت أخدمهم، تدور الأحاديث عن الإمام أحمد، وجمال عبد الناصر، والجيش المصري، الشمال والجنوب، وحلم الوحدة مع الشمال، فقد كانت اليمن يمَنَيْن.

مشواري الصباحي طويل حتى أصل حد المنارة القديمة إلى"المعلامة"، حيث يُسمعنا أستاذنا نصوصاً شعرية باللغة الفصيحة، نصوص لا تشبه هرج شعراء السوق، كما يعلّمنا الحساب والنحو، ونحفظ القرآن وقصص السيرة النبوية.

أتسكع عصراً برفقة صحبي، نستشرف قريَتَيّ "المصنعة" و"عرهل" المتجاورتين، تبدوان من بعيد بقعاً سوداء مشتتة. نصعد الطريق إلى بيوتنا الحجرية متقافزين كصغار الماعز، نأكل ما تقدمه الأمهات.

أتفرج على أمي وهي تلف قطعة مبللة من الخيش على أوراق القات اليانعة التي قطفتها من حواف حقل الشيخ، أمي لا تتعاطى القات ككل نساء "يافع"؛ ولكنها تزرعه. أحمل حصة أبي إلى المقيل، أجلس عند الباب أسمعهم يتحاورون بانتباه عالٍ ويتفلسفون بمنطق غريب، حين تنتفخ خدودهم بلقمة القات يستحلبونها بروية ويتحلون في الكلام، يقولون الشعر، ويتمازحون ويهولون ما عاشوه وشاهدوه عندما يقرع الطبل اليافعي جامعاً الثوار، ويتعالى هدير الطائرات الإنجليزية التي حلّقت فوق القرية ملقية بمنشوراتها وإنذاراتها في قصف البيوت، بيت جدي

المتواضع من بينها كما بيت الشيخ الفخم، يفخر أبي بالقنبلة التي فتحت فجوة في الجدار، ما زالت الفجوة قائمة تدلل على فقرنا، أو على أننا ضَحّينا ولو لم نكن شيوخاً.

يُقْسم أبي أنه عرض تزويج شقيقته من ضابط مصري لجأ إلى بيتنا إبان الثورة على الإمام أحمد، لكن الضابط اعتذر إذ كان متزوجاً، على أيّ حال؛ فُقِئت عين عمتي التي كانت مرشحة للزواج بالمصري إثر مرضها، ثم تعافت وتزوجت يافعياً طيباً وأنجبت أطفالاً كثراً، ورجع الضابط إلى بلاده بعد نكسة فلسطين.

يمر اليافعيون في بالي مروراً هيناً شجياً، سن أمي المكسورة، وعين عمتي العوراء، وأطفالها العراة، ورجع قرع الطبل اليافعي، وحُق سعوط أبي، ومسطرة أستاذ المعلامة، وطبقات بيتنا المكحلة باللون الأبيض، وتشاريفه العالية وجدرانه وأدراجه الصاعدة إلى الأعلى توزعنا على الغرف القليلة، ومدرجات القات الخضراء، وحكايات المقيل، والمنحدر الذي يقود إلى وادي المحاور، ومن بعيد قمتي جبلي مرسوع وسنام، هذا كان عالمي، أما أحلامي وأحلام أبي فقد أنزلتني من الجبل إلى المدينة.

رافقت خالي الأصغر "شعيل" إلى عدن، لأسجل اسمي في كلية التربية العليا هناك، كان ذلك عام 1970، وقد أعلن أبي لكل أهالي القدمة أني لن أرث شقاءه وأصير مزارعاً مأجوراً مثله؛ ولكني سألتحق بالكلية، فك جنبيته من حزامه المهترئ وثبتها في حزامي الجديد، وقال إني سأكون رجل العائلة المتعلم. بكت أمي بسذاجة فنهرها.

كان شنبي قد خَطّ أثراً غامقاً في وجهي، وجسدي يتململ؛ ولكن عقلي توافق مع أماني أبي.

صعقتني فتنة عدن المستلقية على البحر كحورية، لم نطل المقام أنا وخالي "شعيل" في المدينة الصاخبة بالعرب والهنود والأفارقة، عدنا بعد

تسجيل اسمي في قوائم الطلبة، لأجد أبي قد أعد لي مفاجأته، وقرر تزويجي، لم يكن الأمر مفاجئاً تماماً. فمن خَطّ شاربُهُ وجهَهُ واعتزم الرحيل لعلم أو عمل فليس له عندنا إلا أن يكْملَ نصف دينه.

داعبت الفكرة أحلامي وتمنيتها وانتظرت أن يفاجئني أبي، لم أكن قد حددت الزوجة المختارة، أرى فتيات القدمة يسرن جماعات وقد أخفين مفاتنهن في ثياب فضفاضة، وشددن طُرَحَ رؤوسهن فوق أفواههن التي تضحك على الأغلب في تلك اللقاءات المختلسة التي لا تتجاوز الرؤية من بعد، فلا تغيب عني الهياكل الرشيقة الممشوقة والخصور النحيلة وجدائل الشعر الطويلة المتراقصة على أردافهن، وقد أقتنص نظرة جريئة من عيون سود، ولكني لم أعرف بتاتاً من تكون "كادي" بينهن.

قال أبي:

- *بنت فقيرة حال أهلها مثل حالنا، ولا عيب فيها.*

لا يمكن لصبية تحمل اسم "كادي" أن تحمل عيوباً، جل ما أردته في حمى بلوغي أن أعاشر امرأة لها رائحة "الكادي".

تشبه النبتةُ العطرة النخلةَ القصيرة بأوراقها السيفية، تنتشر على السفوح وبين البيوت، إذا أزحت الأوراق الكبيرة الحادة عثرت على مصدر الرائحة الزكية التي تعطر الفضاء، زهور بيض تختبئ في التفاصيل، هكذا قدرت أن تكون عروسي الفقيرة.

توقفت الأمطار عن اجتياح الجبال والهضاب وجرف ما خَفّ في طريقها، وجاء الشيخ بالشيول التي تسير على عجلات كبيرة وتزيح برافعتها الحديدية ما تساقط من كتل الصخر وسد الدروب، وبدأت الاستعدادات لعرسي.

وحيد أبي الذي لا بد أن يقيم له عرساً لائقاً، استند أبي في تأمين تكاليفه على عطايا الشيخ وشهامة خالي المغترب البعيد "شايف".

هيأت أمي ثيابها؛ فصبغت ثوب الكار الكتاني الأبيض بالنيل، فجاء اللون نيلياً جريئاً، أعدّتْ ثيابها وثياب عمتي وخالاتي، بينما انتظرنا ما سيرسله خالي من السودان، وصلت كسوة حرقان من الأزياء الهندية والإفريقية الملونة الصارخة، وأفردت للعروس.

بشتَتْ(*) النساء القماش بالخرز والترتر والخيوط اللامعة، كما هيأن الشال وشبكة الحرير غطاءً للرأس مشكوكة بالحليّ الفضّية والأحجار الملونة، وجمعت البناتُ حزماً من الورد والنرجس شُكّت في شال العروس، فلم تُغطِّ كل تلك الروائح في خاطري على رائحة "الكادي" التي أتوقعها وأنتظرها.

"كادي" لا طويلة ممشوقة ولا قصيرة، لكنها لم تكن أيضاً مدورة كما النساء، بدت لي نحيلة صغيرة خائفة، ليست أقل خوفاً مني، وكنت بتحريض من خالي قد طلبت رؤيتها قبل يوم الزفاف، أرسلنا الحريوة؛ المرأة المكلفة بتلك المهمة، تستقصي عنها وتخطط لمرورها أمام بيتها في صباح، قالت لنا الحريوة:

- *عمرها اتنعش سنة؛ بكْر من تحت ذيل أمها.*

مرت أمامي مسرعة متحفظة راجفة تكاد تطير مع النسمة، فحصلت على تعاطفي رغم أني لم أرَ منها تفصيلاً محدداً.

بعدها صارت عروسي خبوءاً، أُخفيتْ عن العيون أسبوعين كاملين، بنات الشيخ يُخْفَين شهوراً قد تصل إلى عام، ولكني ملزم بالنزول إلى عدن والالتحاق بكليتي، وعلَيّ إتمام زواجي بسرعة. أعددنا حجرتي في الطبقة الثانية حيث يؤمّن الدرج المنعزل خصوصية لي ولزوجتي "كادي"، ورفع أبي سريري "الهدة" على دواليب، ورمم حفرة الحمّام الخاصة بي، ثم جئنا بحزام الفضّة للعروس، وإزار الفوطة وشال حريري لي، وذبحنا كبشاً لإطعام الضيوف، وعجنت النسوة لثيت السمسم بالعسل، وأقراص بنت الصحن

(*) طرزت

المرشوشة بالسمن والغنية بحبة البركة، دارت القهوة على الضيوف موردةً تفوح منها رائحة الهيل والزعفران والدارسين والزنجبيل، وجاءت العروس بالحلوى وزعتها على البنات، تنقلت أمي مزهوة بمبخرة بخور الصندل الذي وفره خالي المغترب، وتحلق الرجال والنساء في فرح، استقبلت الحريم موكب "كادي" مغنيات:

- *ألا ألا تدخلين الدار، ولّا يذبح لش ثور، ولآ كبش ردماني، ولش بنه، ولش قاته، ولش حبلين بالمسني.*

داست "كادي" الكبش الذبيح في باب الدار ودخلت، وفيما انشغلت النسوة بغسل قدميها رقص الرجال في ليلة السمرة، وقرعت الطبول التي لا تقرع إلا لزفاف أو طلب الفزعة. وصدحت الحريم:

- *ع الحنّا ع الحنّا، يهنا من تحنى به.*

وغنى فتى أمرد قصيدة "يحي عمر":

- *يحي عمر قال قف يا زين، سائلك بمن كحّل عينيك، ومن علّمك يا كحيل العين ومن خصب بنانك، الورد شفته بذا الخدين وهو محطوط على ودانك، من شكّلك في الحلا شكلين، وشك لولك ومرجانك؟*

في هرج الفرح رفعت مرتبكاً الجوالة الحريرية عن وجه "كادي" وهي تتمنع وتشترط بصوت خجل هامس بخوراً وريالاً فضّياً، أجزيتها إياه وسط ضحك النسوة، دفعته لأمها وأسلمتني جوالها، رأيت قمراً منمنماً أسمر تغشى سمرته صفار هرد الكركم، ترتعش خداه في جفل. وقد غُطي صدرها بالكامل بحبال الفل اليماني العابقة، وتكدس النرجس والورد في شعرها.

عرفتُ المرأةَ ليلتها، فقد كنت بكراً مثلها، زرت أهلها صباحاً أحمل حلوى اللثيت؛ مبشّراً بوفاقنا. ودّعتهم كما ودّعت أهلي وتركت "كادي" بينهم، وفي خاطري حلم رائحة الكادي العطرة.

لم تكن عروسي "كادي" إلا حلماً، فقد هجم الصيف حاراً في عدن، وتصبب العرق من جسدي من دون مجهود لفرط رطوبة المدينة المجاورة للبحر، وانخرطت بالدراسة في الكلية؛ أتوجع وحدي وأحاول تذكر الوجه الأصفر للصبية التي عاشرتها ليلة واحدة، بينما تركني خالي "شعيل" وحيداً كي أصير رجلاً.

في المرة الأولى التي عدت فيها إلى القدمة محملاً بالهدايا لزوجتي، لم أتمكن من رؤيتها، قالوا إنها مرضت وأمها تحجبها حتى تتعافى. جن جنوني، وغادرت القرية غاضباً، في المرة الثانية عادت "كادي" إلى حجرتنا في بيت أبي، نحيلة، صفراء لا بسبب تجميل مسحوق الهرد، ولكنها مريضة تتحامل على نفسها للقائي، شعرت بالأسف، وصممت أذني عن تخريف النسوة وهمسات أمي وعمتي العوراء عن الدماء التي تنزفها إذا ما عطست، تظاهرت بأنني متعاطف مع زوجتي.

تمددت "كادي" فوق سريري شاحبة تنتظر أن أعاشرها، شعرت أنها ستموت لو لامست جسدها، تركتها معتذراً كأني من أذنبت وأخفيت أمر اعتلالي، مسحت رأسها بشفقة متمنياً شفاءها ثم عدت إلى عدن؛ وطال غيابي.

بعد أقل من عام رجعت إلى القدمة لدفن "كادي"، صرت رجلاً كما أراد خالي، لم أسمح بالمعاتبة بين العائلتين، وسلمت الأمر للقدير وارتضيت نصيبي، رافضاً تعويضي بأخت زوجتي، هكذا تكون الرجولة، لا بافتراع أنثى ضعيفة.

عدت إلى دراستي وأسلمت روحي لعدن، تعج المدينة البحرية بفوضى محببة، غادرها بقايا الجيش المصري مع موت الزعيم "جمال عبد الناصر"، وقد بكيته بحرقة، ورفعت فوق حجرتي المتواضعة علماً أسود. لكني ككل طلبة الكلية التي حملت في ما بعد اسم "ناصر"، أجلس عصراً

في المقاهي المنتشرة عند الميناء ونحكي بحرقة عن أحلامنا في الوحدة اليمنية، نسمع تفاصيل المناقشات القائمة بين الرئيس الجنوبي "سالم علي" والرئيس الشمالي "أبو بكر الأرياني"، ونؤمن أننا مقبلون على زمن زاهٍ، نتخفف فيه من فقرنا ونلتحق بالعصر.

بتُّ أحلم بامرأة مغايرة، ليس فيها ضعف "كادي" ورقتها، ولكنها أقرب إلى امرأة أسطورية تحدثت عنها أمي مرات في معرض تذكّرها لبطولات خيالية لامرأة الحكايات الأميرة "نور بنت عفيف"، التي حملت السلاح وهَرّبته للثوار وقارعت الإنجليز. كان حلمي بالأميرة نور بعض سذاجتي وفهمي للنضال الذي يكثر الحديث عنه في مجالس عدن، لم تطل تلك الفترة من حياتي، بدا لي أن كل ما حدث في اليمن أضغاث أحلام راودتني.

تعثرت في دراستي، وكليتي تتوسع وتتحول إلى جامعة لن يتاح لي التخرج فيها، فقد قضيت نهاري نائماً، وعصري في المقيل أتعاطى القات، وليلي أتسكع مع الأمهريات المليحات المنتشرات في خشش صغيرة في الميناء يبعن المتعة، كنت طفلاً يضيع؛ تلقفه خاله في غفلة.

خالي "شايف" الذي لم يطأ أرض اليمن لخمسة عشر عاماً، لا يشبهنا، فتُمَ لونه حتى قارب السواد، كما ازداد طولاً، يرتدي جلابية سودانية بيضاء، ويتباهى بعمامة ثقيلة يلفها لفات كثيرة لتستقيم فوق رأسه، يبدو رجلاً سودانياً أكثر منه يمانياً، يداعبونه في السوق وهم يسلّمون عليه:

- *السلام عليكم يا زول.*

عندما رأيته للمرة الأولى خُيّل إليّ أنه قادم من حكاية قديمة، رغم مظهره الغامض فقد كان عملياً ذكياً يتصرف بثقة مالك الدنيا. أمرني من دون تأجيل بالذهاب لوداع أهلي، قرر اصطحابي معه في سفر بعيد للعمل عوضاً عن إضاعة شبابي في دراسة لم تناسبني.

متعجل كأنه يسحب البساط من تحت قدميّ ويقلبه. ولأن خالي ثري يشبه المغتربين الذين يأتون من مكة والرياض، ثوبه ناصع البياض، يرتدي ساعة مذهّبة رخيصة تغشّنا فخامتها، ولا يفلت سبحته الطويلة من كفه، فإن أبي استسلم من دون أن يعاود الحديث في أمر تزويجي للمرة الثانية. عن نفسي ظننت أني ملاقٍ فرصة أدخل فيها دنيا جديدة، وقد تقع لي مغامرات ما طرأتْ على بال، نصحني الطلبة الذين احتفلوا بسفري بالنزول من باخرة خالي إلى ميناء جدة حيث الثراء محقَّق والبلاد قريبة، إلا أني وبنداء خفي كنت مشدوداً إلى إفريقيا ذاهباً إليها برفقة خالي "شايف".

لم نركب سفينة من ميناء عدن، فقد اكتشفنا أني لا أمتلك أوراقاً ثبوتية تتيح لي السفر، فكل ما كان في حوزتي بطاقة شخصية و"كرت" انتساب إلى الكلية التي هجرتها، ولأن الميناء الرئيس يخضع لتفتيش وتمحيص دقيق، والفوضى تسود البلاد، عدنا إلى "يافع"، وفي ساحلها الضيق البعيد عن العيون التقينا ببحار من "جعار" وضع مركبه في خدمتنا، لنبحر برفقة ثلاثة رجال آخرين.

خرجنا إلى بحر العرب كما في رحلة صيد، وقد تأكد رباننا من انحسار منخفض البحر الكبير الذي يختتم الربيع بالأعاصير والمطر الغزير، انتظرنا قدوم الصيف الحار اللزج ورطوبته المالحة.

التففنا حول عدن ميمّمين شطر باب المندب، يحمل مركبنا مؤونة مضاعفة تزيد على قدرته؛ لكننا بحاجة إلى ما يساعدنا على تحمُّل البحر من دون الاقتراب من الشواطئ والموانئ حتى نجتاز المضيق آمنين، أكثرنا من مؤونة الحلبة والبسباس اللاذع الحار لتساعدنا على المناعة في وجه الرطوبة التي تمتص مقاومتنا وتُجْهدنا، شعرت عندها أني في قلب المغامرة، بوخ البحر الحار المالح يتصاعد ويلفّنا ساخناً أجسادنا، نتسلى بإلقاء

شباكنا التي تُخرج سمكاً كثيراً، وتطول طريقنا كلما احْتَلْنا بالابتعاد عن الدوريات الأمنية التي تجوب البحر بمراكبها الحديثة.

أثبتَ مركِبُنا الخشبي العتيق المصنوع بأيدي عيال "يافع" جدارته بالبحر، وصمد لملاعبات ثعابين البحر وأسماك القرش الأبيض الخطرة التي خرجت من الأعماق الباردة إلى المياه الدافئة في السطح بحثاً عن جثث المواشي الميتة التي تلقي بها السفن العابرة القادمة من إفريقيا، تمر تحت مركبنا وتحتك به فاحصة، أسمع دقات قلبي بوضوح حين أرى زعانفها تمخر الماء حولنا ثم تبتعد.

ضاق البحر تدريجياً، فارقنا قلقنا لكثرة السفن، إذ يختبئ هيكل مركبنا الصغير بين أجسادها الضخمة، ونلمح من بعيد ارتفاعات الجبال البركانية في الجزر المحيطة، فإذا ما عبرنا المضيق شعرنا بالماء تحتنا يشتد حرارة وملوحة، ورأينا الماء المنحسر جزراً قرب السواحل محمّراً يعكس وفرة الطحلب والمرجان الأحمر.

تفادى رباننا نقاط التفتيش الرسمية ببراعة، وأشعل ليلاً شعلة سرعان ما انطفأت وتلوى هباها في الفضاء ثم انتشر، قادتنا شعلتنا إلى أصدقاء أنزلوا مركبنا إلى اليابسة؛ فطرحت جسدي منهكاً عطشاً وغفوت.

مضت أيام منذ تسللنا من ساحل "يافع" الضيق، فهل وصلنا؟ أضحك سؤالي الرجالَ وأخجلني. "ما زلنا في المضيق"، قال خالي، ولكن المرء لا يتحمل السفر الطويل في مركب صغير كهذا. كنا قد رسونا على شاطئ جزيرة "بريم" البعيد عن الملاحقة، حيث يمكن الحصول على طعام ساخن من الربيص، إذ يغلون سمك القرش ويفرمون لحمه في وجبة شهية.

اغتسلنا وانتظرنا أياماً أمضيتها أتنقل فوق مسننات الصخور البركانية مستجيباً للتنبيهات بعدم الاقتراب من الموانئ. اشتقتُ للمياه العذبة التي قال رباننا إننا سنتزود بها بعد المغادرة، وسمعت قصصاً يشيب

لها شعر الرأس عن الجزيرة التي اقتنصت بين شعابها المرجانية الجنود المصريين في الماضي، ولم يكن ذلك ماضياً بعيداً.

زودني الربان بجواز سفر مزور يحمل اسماً ليس اسمي، "باسالم"، وصورة مشوشة لا يمكن لمن يعرفني أن يجد فيها شبهاً مني، وداعاً لاسمي الذي لن أذكره أو أتذكره بعد اليوم، فأنا متسلل غير قانوني على الساحل الغربي للبحر الأحمر، ولم تعد هناك فرصة للعودة إلى آسيا، فقد توغلت بي السفين الكبيرة متفادية الصخور البركانية على ضفاف المضيق بمحاذاة جيبوتي، وصعدتْ إلى الشمال مودّعة قمة جبل الطير خلف ضباب كثيف.

تزودنا بماء كثير ولحم مجفف في أرخبيل دهلك الإرتيري؛ حيث تفرقت جزر كثيرة قبالة مدينة "مصوع"، شعرت بجسدي يجف ويتشقق، وفقدت المغامرة متعتها، صرت شخصاً آخر لا أعرفه.

طال الساحل الإرتيري، وكلما قاربنا يابسة تمنيتُ لو كانت تلك نهاية الرحلة، لكن خالي العملي الذي يبدو غير عابئ بدوار البحر ولا بتعدد الألسنة حولنا كان عارفاً بوجهته وهدفه، دهشت وأنا أسمع اللسان الإفريقي والمساومات بين بحارة سفينتنا وعمال المرافئ، أحدق متعجباً، تعبر الكلمات سريعة متشنجة لا ودّ في صوتها، فأنطوي على نفسي وفي أعماقي سؤال مفجع، هل هذا حقاً ما أريده أم إني انصعتُ من دون خيار لتخطيط خالي الأكبر المغترب الثري الذي يعرف ما يريد؛ ويخطط لي ما أريد؟

داهمتني أفكار سوداوية حول خالي نفسه، لم يلتفت كثيراً إلى وجودي في الباخرة الكبيرة، ولم يعد اللسان حولي عربياً فصيحاً، ولأني كنت صغيراً فإن كفي التي تدرّبت على حمل القلم في كلية عدن، لم تسعفني على رفع حبال السفينة أسوة بالرجال، بت مشتاقاً للانفصال

عن الخال الذي لم أعرفه إلا في مساهمته الكريمة في زفافي الذي أريد نسيانه.

واصلت السفينة دربها مشّملةً إلى "سواكن" التي أُغلق ميناؤها، ثم "بورتسودان"، أما أنا وخالي فقد نزلنا ميناء "طوكر". تجولنا في المرفأ الصغير بين بيوت عجيبة النقوش حجارتُها من مرجان البحر، وناسها خليط من عرب وبجا وسودانيين من كل صوب، تبلبلت الألسنة في مسمعي تماماً.

كبرت فجأة وأنا أمتلئ بأطياف الحروف ودلالتها، صار الصوت يلحن في أذني مانحاً للمتحدث هويته، متخذاً موقعه في قلبي قرباً وبعداً، لكني وجدت نفسي أميل إلى الأنس على اليابسة، عادت للمغامرة متعتها ونحن نخرج من "طوكر "إلى "عطبرة"، وقد ظننت أن خالي سيصحبني إلى الخرطوم العاصمة لأصير مثله ثرياً، لكنه قال إن عمله بعيد في الغرب، في منطقة تدعى "دارفور" ومدينة تسمى "الفاشر".

قطعنا صحارى واسعة، وركبنا فلوكة متنقلين من شط النيل العريض الشرقي إلى شطه الغربي، تابعت احمرار الشمس في الأفق، وتفادينا ممرات تكتظ بتمساح النيل الضخم، ثم قضينا أياماً في "عطبرة"، هناك ألبسني خالي جلابية سودانية واعترف أنه لا ينوي إبقائي إلى جانبه في "الفاشر"، فالسوق لا تتسع لأكثر من يماني.

هل غضبت؟ لقد أقصاني عندما انقطعت سبلي إلى "يافع"، ماذا علَيّ أن أفعل؟ لم أغضب في أعماقي وإن تظاهرت بالذعر، لكن خالي الكريم نفحني مبلغاً من المال وأشار علَيّ بركوب القطار إذا وصلنا إلى "الفاشر"، إذ يخرج "قطار الشوق"(*) متجهاً إلى "نيالا" حيث الفرصة أوسع ولا منافسين، هكذا علّمني خالي الطيران وتركني أخبط بجناحي.

(*) اسم القطار بين المدينتين

لم أحدّث الحكّامة عن الرحلة الطويلة في تفاصيلها، حين ركبت القطار ونمت بين شوالات السمسم المعَدّة للبيع، والشباب حولي يتغنون:

- *"قطار الشوق متين ترحل تودينا؟*
نشوف بلدا حنان أهلها، ترسى هناك ترسينا.
يا قطار الشوق حبيبنا هناك، بيحسب في مسافاتك.
لو تعرف غلاوة الريد، كنت نسيت محطاتك" .

لم أصل بلدة "نيالا"، حالت بيني وبينها لجة الشوق التي لا قرار لها. تمهّل القطار بين "الفاشر" و"نيالا" يوشك على الوقوف، أنّت مفاصله كما لو أن الحديد يعرف ما خبأ لي القدر، نزلتُ يقودني شاب سوداني إلى بقعة غير "نيالا"، بقعة لن أجد لي فيها منافساً.

كنت شديد الحماقة غير خائف من قاطع طريق أو غدر مرافقي الذي عرفته في القطار. لم يعلّمني شاربي الذي خط وجهي مؤخراً هولَ الحياة، بل إني أنست للشمس الساخنة تصفع وجهي بلهيبها، سلّمت مشاعري لإحساس التفرد الذي سيلازمني حين أُصبح التاجر الوحيد في منطقة مقطوعة نائية. هذه هي المغامرة الحقيقية التي تليق بالشاب الذي كنته. في الواقع سحبني قدري إليه بمرس متين.

مشينا مسافات طويلة حتى وصلنا الخَرْبَقَة، رأيت قطاطيها المتناثرة وادعة كأنها خلت من الناس، عاودني الخوف وتسلل الشك إلى قلبي، لم أعد متأكداً إذا ما كانت هي المغامرة التي أريد، ولم أعِ عندها أن المغامرة كانت تريدني، انكشف ترددي وأنا أسأل عن وسيلة تعيدني إلى درب "نيالا"، عندها قادوني إلى الحكّامة.

انبعثت الأميرة الأسطورية "نور بنت عفيف" حية أمامي، وغرقتُ في حضورها الفذ، فارقتني الثقة ورُددت طفلاً خائفاً مذهولاً. لا تملك المرأة جمال امرأة الحكاية اليمانية وأنوثتها، ولا حتى تقاربها في الشباب،

كانت في مقتبل الكهولة وأنا ما زلت طريَّ العود غضُّ المشاعر، تتحدث بثقة العارف وشفقة أم وحسم مقتدر؛ يجتاح صوتها القلب كريحٍ عاصفة، وماذا أحتاج ليدلّني على دربي أكثر من تلك البوصلة التي تقودني في كلماتها وحركاتها وسكناتها؟ تنظر في عيني وهي تحادثني، لم أعرف امرأة نظرت في عيني بتاتاً، تقترح كأنها تأمرني:

- *خليك في الخَرْبَقَة؛ ما عندنا دكان.*

ترصّدني قدري في هذا المكان المجهول من العالم، وساعدتني المرأة المذهلة على تأسيس قطيتي، منحني أهالي الخَرْبَقَة مكاناً عَيّنته بنفسها، ولم يكن بعيداً عن قطيتها، يأتيني صوتها إذ يتنزل الصمت على المكان، أحيا الهوى السريُّ فؤادي وأشعلَ روحي ولم يفصح أبداً، فقد ألجمتني هيبتها وأمومتها ومكانتها والسنوات العشرين بيننا.

أقتات على نبل العاطفة الذي جعلني إنساناً جميلاً، هكذا أرى نفسي لأني أحبّ... آه.. عسير أن أبوح بما يعتمل في القلب حتى لنفسي.

سكنت الخَرْبَقَة في جزء من القطية؛ فصلته بستارة من الخيش، وحولت بقيتها إلى دكان، احتسبني بعضهم من فئة الجلابة الذين ينتشرون تجاراً وإداريين متحكمين بحياة الناس في الغرب السوداني، كان لبياض بشرتي ودمي العربي دور في ذلك، وقد احتاج الأمر إلى زمن صبرتُ عليه حتى أمن ناس الخَرْبَقَة لي وباتوا ينادونني: "اليماني العربي".

جعلني سعيي وراء رزقي كثيرَ الترحال والسفر ولا أطيل، إذ يعيدني شوقي إلى جلستها والتبرك بحكمتها سريعاً إلى الديار التي تتربع هي على عرش سطوتها، يكاد يفارقني قلبي إذا توهمتُ في عينيها الكهلتين وميضَ عاطفة أو نداء خفياً، أنسحب متلجلجاً فزعاً لئلا تزل بي شكوكي وأوهامي في شطط، أعرف موطئ قدمي، ولا أتقدم، كأنما الدنيا فاضت غنية في فؤادي؛ كنز لا أجرؤ على ارتكاب ما يجعلني أفقده.

أحضر عادة بضائع بسيطة لأناس لا يعرفون غير البساطة، أكتب مشترياتهم على دفتري، أصبر على فقرهم فقد شابه فقرَ أهلي، ولا أتساهل مع أثريائهم الجدد: "الشفيع" و"البخيت" و"الزين". حتى صرت أنا نفسي ثرياً نسبياً. من قروشهم القليلة وعرقي وجهد يدي كونتُ ثروة صغيرة تسمح لي بدعم أبي في "يافع" وقد شاخ وتوقف عن العمل.

أنزل إلى "الفاشر" أو "نيالا" لأحول له مبلغاً من المال، أو أرسله مع مسافر. صرتُ نسخة عن خالي.

إذا انفض عنها المتقاضون والمسْتَشيرون، تسامرتُ والحكّامة وجمع من مريدين وأصدقاء وأهل بيتها، نجلس في حوشها ونتونّس بحكاياتنا ونقرأ الكون كما نريد، نتحدث عن مخاوفنا التي تكبر كل يوم منذ بدأت قبائل البدو والبقارة والأبالة يتحرشون بالمزارعين في الحواضر الكبيرة والسهول المزروعة، وإذ نحمد الله أننا في منأى عما يجري، تظل الحكّامة على مخاوفها، تقول:

- *الفتنة مثل راس الدبيب لو ما قطعوه؛ مَدّ.*

لم يقطعوا رأس الفتنة، ومضت الأطراف جميعها إلى تصعيد، عن نفسي؛ لم أجزع وما ندمتُ على خيار الإقامة في هذه البلاد، رغم أن الأحداث تسارعت وصحّ ما قالته الحكّامة، لقد سحب دبيب الفتنة جسداً ثقيلاً ملساً ساماً وراءه.

أصابتني الحيرة أول قدومي إلى المنطقة الغنية بمطرها في موسم، منعدمة العطاء في موسم آخر، كل شيء يختلط إلى حد بعيد، فالأرض كما الناس كما السماء، لا شيء ثابت أو متجانس، يذوب المرء في تلك البساطة.

تكفلَت الشمسُ برفع نسبة اسمرار وجهي، بتُّ أشبه السودانيين مثل خالي "شايف"، ومنذ سنوات طويلة ما عدت أرتدي البنطال الذي

ارتديته في عدن، ولا وزرة أبي؛ الثوب الذي عرفته في "يافع"، كما خبأت جنبيتي فلا يراها الأولاد ولا تزين خاصرتي؛ حتى لو سافرت على الطرقات الخطرة المفخخة بقطاع الطرق. مجرد اقتنائي خنجراً قد يفسر نيّة عداونية وهو أمر أتّقيه. لم تكن حياتي هينة، لكن فيها ما يرضيني: رحلاتي المكوكية التي أتنقل فيها بين المدن على حمار أو ركشة أو عربة مستأجرة، ثم بياتي الطويل بين سفر وسفر، حيث أحتمي بدكاني البعيد مما يهز الدنيا من اضطرابات.

ترتفع وتيرة التوتر العرقي، والتصنيفات المتعلقة باللون، وما كنت أظن قبل قدومي إلى إفريقيا أن هناك تبايناً، ولكني تعلمت على مهل التمايزات السلالية التي تنصهر وتندمج ثم تتفكك وتتخالف حد الصراع. في تقديري هو الجوع، حين تجوع الماشية والإنسان، وحين تتقاطع المصالح فتقود إلى حمّى جنونية، وتذهب كل فئة للحديث المضحك عن صفاء العرق والسلالة، وما رأيت إلا نسيجاً متداخلاً لا يمكن القطع بشأنه، حتى الذين يظنون أنفسهم عرباً للسانهم أو تاريخهم الذي يجمعهم بالعرب، دمغهم لون إفريقيا بنسب متفاوتة؛ وفق شدة الاختلاط بالأقوام الأخرى.

دفع أصحاب المواشي العرب والزغاوة قطعانهم في الأراضي الزراعية التي تملكها قبائل "الفور" في غير المواسم المتفق عليها، وقد كانوا يدخلون في الماضي وفق اتفاقات مرتبة كونهم يرعون بنسبة من مواشي المزارعين أنفسهم، مما يجعل المصلحة متبادلة، ناهيك مما يمكن أن تحدثه مخلفات الحيوانات فوق الأرض فتسمّدها وتهيئها لزرع جديد.

زحف المحل في قلب إفريقيا بشراسة وجعل من العسير انتظار المواسم المتفق عليها، قبل أن تنفق القطعان عن بكرة أبيها أو تباع بأثمان بخسة يدفعها الرعاة في الأراضي المزروعة لتأكل ما زرع الفقراء لقوتهم وتشرب ما

خبأوا من ماء المطر، فتقع الصدامات الدامية وتُغْلَق الآبار وتصل أعاصير زغابيب الأتربة وزاوبعها إلى عنان السماء إثر صدام الفلاحين بالماشية وهم يهشّونها طاردين قطعانها عن زرعهم.

ظلت الخَرْبَقَة بقدرة قادر بعيدة عن الصراع، ربما لفقر مكانها وغياب حفير الماء وراء هضبة لا تشاهَد بسهولة، ولأن أراضيها الزراعية محدودة ببضعة أمتار لكل مقيم، لا تغري ولا تكفي قطيعاً كبيراً من المواشي. كما أن الحكّامة تمسك بحكمتها مقاديرَ الرجال وتكبح رغبتهم في الصراع.

تمزقت "دارفور" بين فقر الطبيعة والصراع على المرعى والماء، وتذبذبت بين عداء وصلح وتفاوض، بعد انتشار تجارة السلاح الخفيف المحمول المهرَّب تحولت الصدامات السياسية والأطماع والمصالح إلى حرب مسلحة، ما من وسيلة للتخفيف من آثارها وخسائرها ودمارها الماحق.

يمر بنا المطرودون من قراهم يحدّثون عن رجال كما الجن يركبون خيلهم، يسمونهم "الجنجويد"، قبائل تنتمي إلى العرب المتعالين الذين يظنون العالم ملْكاً لهم، يستصغرون المزارعين سكان القطاطي فما هم عندهم إلا أهل التكل، اللصيقين بمطابخهم، الذين يمكن إرهابهم.

تحول المزارعون البسطاء إلى جيش مسلّح أيضاً، يهرَّب لهم السلاح من الحدود التشادية والليبية ومن الجنوب، فيهاجمون مخافر الأمن ومواقع الجيش.

مؤخراً انضم شاب من عائلة زوجتي المقيمين في الحلة الصغيرة المسالمة إلى صفوف المتمردين، دخل "شديد كادوك" صياد الأفاعي وحارس السجن إلى الخَرْبَقَة ممتشقاً بندقية كلاشينكوف، لكنه على حد علمي لم يسأل شبابَ الحلة الانضمام له ما عدا "السر"، بدا سعيداً بتميزه وحده ببندقيته الأوتوماتيكية التي فحصتها بنفسي، باحثاً عن أي

أثـر يـدل علـى العـدو الإسـرائيلي، فكثـيرا مـا سمعـت هـذه الاتهامـات، واستيقظ في ضميري إرث القومية العربية الذي لقمته في عدن. لم أكـن قادراً على معاندة "كادوك" هذا، ماذا لو فوجئت أن بندقيته إسرائيلية؟ فالرجل ضخم عملاق الجثة قوي، خفيف العقل في آن، لن يسمح لي أنا اليماني ضعيف البنية بالتصدي لزهوه العسكري، لهذا تنفست الصعداء وأنا أجزم أن بندقيته من صناعة روسية، لا يمكن توقع الجهات المحرضة على تجارة السلاح والمتورطة فيها، حين يتدفق السلاح الغريب بين الأطراف المتنازعة وتشتعل نيران الحروب، يتقدم شياطين السلاح من كل صوب وحدب، وتصبح أيّ رصاصة من أيّ طرف، رصاصة قاتل.

انقسم خليط "دارفور" المتباين إلى خندقين: المتمردين، والجنجويد. ووقفت قوات الدولة في المنطقة الضبابية.

استنفر العرب البدو رجالهم ونظموهم في مليشيات "الجنجويد"، لكل مجموعة عقيد، يكتسحون المساحات المزروعة والقرى، وتلاحق خيول فرسانهم النوبا الزرق وضعاف الفور والمزارعين. إذا رحمت، فإنها تمنح الأهالي يوماً لإخلاء قريتهم. إذا ما دخلوا القرى أحرقوا قطاطيها، وأسروا رجالها، وهرب النسوة والضعفاء أمام سيل السكان الجدد ومواشيهم الذي ينهمر يأكل الزرع أخضرَ ويابساً، تحت حماية رجال السلطة وجندها.

ليست أطماع البشر وحدها التي قلبت ميزان الحياة في تلك الأصقاع، فقد حُبس المطر لمواسم، شهدتُ منذ أن جئتُ البلادَ مجاعتين كبيرتين، وواحدة عابرة. تجف حفيرتنا تماماً وتنز شجرة التبلدي ماءً شحيحاً أو ينعدم، وتفرغ الدينقات(*) التي تُحفظ فيها الحبوب في القطاطي، وتتشقق تربة الحواكير الملحقة بها، حتى لحاء الأشجار في الغابة

(*) مخازن الحبوب

القرية يصير حطباً لا يسهل مصُّه واستحلابه طعاماً، ناهيك من انعدام ورق الشجر وثمره ونفوق المواشي القليلة جوعاً. كلما مرت مجاعة أدركت أني لم أخطئ بحبس مشاعري تجاه الحكّامة، تخيفني قوة شكيمتها وكيفية معالجتها المسائل وتدبيرها أمور كل فرد في جماعتنا، كنتُ أول من أمتثل لقرارها بألاّ نرحل معرّضين أنفسنا لخطر الموت على الطرقات، إذا كان لا بد من الموت فليأت لنا عند شجرة الأموات ويريحنا مجتمعين ويرسلنا إلى أحبتنا لئلا نضيع على الدروب.

لا يُعْقل أن هذه امرأة عادية يمكن مطارحتها الغرام، هي ميزان الحياة الذي يجدر تقديسه.

رأيت عربات المنظمات الدولية في أزمنة المجاعات تتسكع على الطرقات، ووصلت مخيمات اللاجئين، شاهدت الأطفال يذبلون ويرحلون بائسين تحت الأشجار الشوكية العارية، والأمهات وقد جفت دموعهن.

إذا ما جعنا في اليمن حبستنا صخور جبالنا العالية، ولا مخرج للواحد منا إلا في سفر بعيد، هكذا توزعنا أفراداً على شواطئ الخليج العربي وفي المناطق البعيدة في إفريقيا وآسيا، يمكن العثور على تاجر يماني في كل بقعة من بقاع الأرض. هنا؛ إذا ما نزل الجوع في الناس راح يقضم الأحياء ويتغذى بهم وهم يهيمون على وجوههم في أراض مفتوحة، ووسط مخاطر أمنية تنوعت وازدادت حدة، فالفور أيضاً شكلوا فيلقاً عسكرياً لهم، ودعوا لتحرير السودان، وباتت مطحنة المتمردين و"الجنجويد" تسحن الضعفاء في حربها الضروس. أين الدولة؟ يقال إنها تدعم جهة دون أخرى على أساس تحالف عربي ضد الزرقة والفور والقبائل التي سكنت البلاد منذ فجر التاريخ، ويقال إن لدى الحكومة من النزاعات والإشكالات ما يكفيها، ويشغلها عما يدور في هذه النواحي.

يمثل جيش تحرير السودان قوة التمرد العسكرية، تصطف إلى جانبه حركة العدل والمساواة السياسية بجناح عسكري، تراهم في الميدان كما جند في جيش، تميزهم عماماتهم الصفر عن أفراد جيش تحرير السودان، يتحالفون مع كيزان النظام حيناً ويختلفون معهم أحياناً، وقد أصدروا ما سمّوه "الكتاب الأسود". جاء لي "أبَّكر" بنسخة ممزقة منه، قرأته بحسرةٍ على ما قرأتُ في شبابي من كتب تحكي عن القومية، "الكتاب الأسود" صيحة المهمشين الذين باتوا لا يقرأون إلا صوت الرصاص.

كلما اقترب الفرقاء من التصالح انفضّ جمعهم، تبددت أوهام الاتفاقيات الدولية، وصار الواقع المر على الأرض أكثر تحكماً بأهالي "دارفور" الذين فقدوا ثقتهم بجميع أطراف النزاع.

تدهشني "دارفور" البعيدة عن قلب النيل وعاصمة بلادها، ألصق أذني على سماعة مذياعي، فأسمع اسمها وكأنها شغل العالم الشاغل، كما لو كانت ولاية في أمريكا أو بلدة في جوار باريس أو لندن، يهتمّون بها ويتباكون، منذ عقود والبشر يتنازعون المراعي والمياه والسلطة، منذ عقود والدم مستباح والقرى تُحْرَق وتُنْهَب، والبشر ينزحون هاربين خائفين.

ما الذي أيقظ الغرب فجأة في حمّى الصراع؟ وما هم عرب ولا زريقات ولا زغاوة ولا مساليت ولا مهيريا ولا فور! لم أصدّق يوماً دعاوى الإنسانية التي تلهب مشاعر البعيدين، أنا ابن القومية العربية التي كبرت على رجعها في اليمن.. أيام كنا نغنّي "بلاد العرب أوطاني"، ما تلفّتنا إلى "دارفور"، فكيف بالفرقاء البعيدين؟ أيّ كنز تخبئ أرضك يا "دارفور"؟ أيّ كنز يسيل لعابَ الغرب لينتبه إلى جوعك وخوفك؟ وبأيّ الوسائل يصير طرفاً أساساً في الصراع؟

مجاعة إثر أخرى، وفقر مقيم، لكن الغناء والرجاء بالقادم أجمل لا يتوقف؛ يبدو في العيون التي تشرق بعد كل انكسار. عن نفسي تعلمت

الصبر الطويل وأناة لا مثيل لها، أمتطي حماري بين التجمعات السكنية راضي القلب، حتى عندما ابتعت ركشة بعجلات ثلاث سريعة قياساً إلى الحمارة، كنت أقودها على مهلي بين الطرقات أملّي الروح والعين بدروس خفية لا يلمحها سواي، صرت أسلّم بالقدر وبالرضا أكثر مما يجب لتاجر بماني، وبتّ حريصاً على جلسة المغيب الوادعة في حوش الحكّامة، وتعاطيت السفة إذ لم يكن القات متاحاً، وتزوجت "الثومة"، حين لم يكن هوى قلبي ممكناً.

لقد منحني المكان رؤى محلّقة لا سبيل إلى وصفها رغم أني ظللت أحدث الحكّامة عن "يافع" وأيامها الجميلة؛ ولا أعرج على ذكر زوجتي الميتة "كادي". اهتز فؤادي أمام الحكّامة هزات لم أعرفها من قبل، وتراجفت ركبتاي، وغابت أنفاسي وأنا أقيس المسافة المستحيلة بيننا، امرأة تكبرني بأعوام، تكبرني قدراً ومعرفة، امرأة تجمع النساء فيها، ينحني لها الناس كما لو كانت سلطانة زمانها، لا قِبَلَ لي على محبتها، ولكن شيئاً دافئاً يجري مجرى الدم في عروقي، خبأته بعناية، وزجرت عيوني أن تبوح ولساني أن ينزلق، ثم حين هدأتْ عواصف القلب؛ لا تراجعاً عن محبتها، ولكن بحكم السنين، وجدت أني تأخرت كثيراً في الحديث عن "كادي"، وما عاد لائقاً ذكرها كأنها سر تعمّدتُ ألاّ أبوح به.

كما لم أبح بنبض قلبي، تأخرت كثيراً، كان ذلك يربكني ولكنه أمر حدث واستسلمت له. عالجت أشواقي للحكّامة بصداقة عجيبة متينة، توطدت وتعززت كلما كبرنا، وانصرفت إلى رزقي الذي اتسع، ثم جئتها كما كل الرجال في الخَرْبَقَة أشكو وحدتي وأطلب عونها في تزويجي كما لو كانت أمي، فاختارت لي "الثومة" الطيبة، لم أُقْبل على زوجتي مشوقاً، ولكنها صبرتْ ببعض سذاجتها ظناً منها أن الأمور تكون هكذا بين الرجل والمرأة.

كانت الحياة بخيلة معي في هذا المضمار، فمَنْ عاشرتهن لم يعصفن بقلبي، ومن هَزتّني لا أجسر على لمسها، إلا أن "الثومة" عمرت بيتي بالرضا، وولدت لي بسخاء. صار بيتي في الخَرْبَقَة، صرت يافعياً خَرْبَقَياً.

كلما هزني الحنين إلى أصْلي أفكر في زيارة لم تتم قط إلى اليمن، أتسقط أخباره من مذياع يعمل بالبطارية. بعد وصولي بثلاثة أعوام سمعت في مذياعي نبأ إعدام زعيم اليمن الجنوبي "سالم علي" واتهامه باغتيال الرئيس الشمالي "الغشمي"، ومن مذياعي سمعت أن يَمَنَايَ صارتا يمناً واحداً، ذهبت إلى "الفاشر" لأحتفل بالوحدة مع خالي ويمانيين آخرين حين وَقّع "حيدر أبو بكر العطاس" و"علي عبد الله صالح" اتفاقية الوحدة عام 1989.

تعاهدت وأبناء جلدتي على المصاهرة حين يكبر أولادنا، تناقلنا أخبار الوطن الأم بتحنان كبير، وتحسّرنا على ما يرد من أن مدارج البن الخضراء التي يلعب الغيم حولها، تحولت إلى مزارع للقات، لم نعدم نحن أيضاً مَنْ يأتينا بالنبتة؛ فنستحلب ماءها، ونشمّ فوحَ اليمن.

وفيتُ بوعدي، فزوجتُ أبنائي بأبناء جلدتي في محاولة للحفاظ على هويتنا الضائعة في القارة السمراء، كبر أبنائي بين دكاني وخلوة الشيخ ودروس الحكّامة، صاروا سودانيين عن جدارة، أذكّرهم باليمن حين يحين زمن تزويجهم.

التحق ولدي البكر "بابكر" الذي ينادونه "أبَّكر" لسنوات بمدرسة الضعين، لكنه عاد إلى الخَرْبَقَة ليساعدني، لم يخذلني قط، صار ساعدي ونظري ومساعدي، ابتعت له ركشة صفراء مزينة، جعلته متحكماً بكل تنقلات أهالي الخَرْبَقَة والأقدر على عمليات البيع والشراء في المنطقة، ثم زوّجته حفيدة خالي "شايف"، وصار لي أحفاد يعيثون الفوضى في الدكان فأطردهم إلى حضن أمهم، وزوجتُ ابنتي الكبرى "سلمى" يمانياً يمتلك

دكاناً متواضعاً في "نيالا"، فولدت ابنين يزوروننا كلما مر والدهم في الطريق، أراهم إذا تسنى لي الذهاب إلى "نيالا"، وصارت "بلقيس" زوجة تاجر حبوب ثري من "حضرموت"، ينقل تجارته بين "الفاشر" و"الخرطوم"، نراها وزوجها وبناتها وابناً لها في العيد الكبير فقط، إذ يزوروننا محمّلين بالهدايا، وغالباً ما أنسى أسماء بناتها وأخلط بينهن. لم أوفَّق بحبس ولدي "عليّ" إلى جانبي، فقد التحق بأصهاره الذين يأتون بالأقمشة من "الهند" إلى سوق "أم درمان"، بتنا نراه في الأعياد، وبقي في بيتي "سيف" الصغير والصبية "أروى"، سيكونان لليمن أيضاً، سيقترن "سيف" بيمنية حتماً، وتذهب "أروى" إلى نصيبها؛ وهو يمني بالضرورة.

أكفّر عن ذنبي بمفارقة اليمن بصنعِ يمنٍ عائلي من أواصر النسب والمصاهرة، أما اليمن الأول، و"يافع" البعيدة، فقد صارا طيفين أرى عبرهما وجه أمي الحزين، وخيالات صبي يركض في مروج خُضْر، وملامح "كادي" تلوح مريضة كسيرة، ثم تختفي، وحزمة أخبار في مذياع صغير تنفد بطارياته كثيراً ولا أجددها. عندما كبر أبنائي صار "أبّكر" يبتاع لي البطاريات بانتظام، فإذا ما رجعتُ من ونسة مجلس الحكّامة مساءً، وارتفع شخير "الثومة" وهدأتْ أنفاس الأولاد والبنات، حركتُ إبرة المذياع لتلتقط صوت اليمن، وشدو "أبو بكر سالم" يحفر في فؤادي:

- *من يشبهك من؟.. أنت الحضارة، أنت المنارة، أنت الأصل والفصل والروح والفن، أمي يا أمي اليمن.*

"قوس الحياة"

عند حفير الماء؛ اتهمت البناتُ "حَوّا" بالغش، فانفجر غضبها سباباً:

- *ما تعضي حلوف*(*) *وتملا خشمك صوف.*

شتمنها مبتعدات عنها مقفيات ظهورهن:

- *كلام الغش والمطر الرش؛ ما بقوم القش. أصلو الجمل ما بعرفي عوجة رقبته.*

"امرقن، من يحتاجكن"؟ جاملتْ نفسها مقتنعة أنها لا تحتاجهن، عوضاً عن أنها تفوقهن فهماً ومكانة ومالاً، لهذا يشتعلن حسداً وغيرة منها، كما يكذبن بشأن البخور الذي باعته إياهن في السوق، فهي لم تخلط أخشاب شجرة اللالوب ولا قطعتها وغمستها بالسكّر كي توحي أنها تبيعهن أخشاب الطلح لبخور الصندل، كانت صادقة وهي تقول:

- *اسألن اليماني، هو ذاته جاب لي الصندل الأصلي من سوق الفاشر.*

ليس ذنبها إذا غشه تجار "الفاشر" وباعوه خشباً معالجَاً عوضاً عن البخور الفاخر، لكنهن لم يقتنعن، هن أساساً لا يملن لها؛ لا تروق لهن، يتقوّلن حولها سراً، ويتصرفن مثل دجاجات خائبة إذا ما جاءت الحكّامة، لا يتجرأن على إهانة ربيبتها "حَوّا" علناً، ويتصرفن بوضاعة وهن يتركنها

(*) خنزير

عند حفير الماء وحيدة؛ مرّتباتٍ عليها حمل الكثير من الماء من دون مساعدة.

فكرتْ وهي تعبئ دلوها أن تعاقبهن بقطْع البخور تماماً عن السوق الصغيرة في الخَرَبَقَة، ليمتن غيظاً وهن لا يجدن ما يغري أزواجهن على مضاجعتهن.

رفعت قدميها المعروقتين من الماء، وأرخت ثوبها المربوط محْكَماً إلى خاصرتها، فكرت: أين يكون "آدمو" في مثل هذه الساعة من النهار؟ مع "شديد"؟ ربما. فقد منعته الحكّامة من ارتياد المدرسة اليوم، فلاسَنَها بشأن رفقته لصديقه "شديد". لأول مرة تسمعه يلاسن الحكّامة، هي السليطة لا تجرؤ على ذلك، لا شك أن الحكّامة ستمنعه من اللحاق بـ "شديد" في مهامه الغامضة، كل الصغار لن يغادروا الخَرْبَقَة ممتثلين لأوامر الحكّامة بعد حكايات "أبَّكر" عن "العربيّات"(*) التي تروح وتأتي مثيرةً الأغبرة ممشّطةً السكة بين "نيالا" و"الضعين".

الحكّامة قلقة، لكن "حَوّا" ليست كذلك، لا يقلقها إلا تفكيرها بكيفية إغاظة بنات الحلة اللواتي سبقنها، وموازنة خطواتها في المسير لتلحق بهن ولا تفقد الكثير من ماء الدلو في طريق عودتها إلى الخَرْبَقَة.

عثرت بحجر فاهتز توازنها. شتمت الحجر:

- *سجم الرماد*(*).

سمعت طنيناً؛ فرفعت ناظريها الذاهلين إلى السماء. تعرف هذا الضجيج المكبوت الذي لا يأتي إلا من الأعلى، تعرف مصدره جيداً.

واجهت ضوء الشمس وقد أغمضت عيناً وقطبت الثانية. رأت ظلال الحوّامة في الوهج الفضي، لم تَنْسَ كيف تبدو الحوّامة المعدنية

(*) السيارات

(*) شتيمة تعني: هباب الرماد

الطائرة رغم أنها لم ترها منذ جاءت الخَرْبَقَة. تبادلت فتح الجفنين وإغلاقهما بين عينيها؛ اليمنى ثم اليسرى ثم اليمنى فاليسرى.

بدت الحوّامة حشرةً هائمة في الفضاء الساطع المفتوح، قدّرت "حَوّا" موقع الطائرة تماماً، لا شك أنها ستهبط وراء الغابة القريبة، نعم تهبط، هي تعرف كيف تهبط الحوّامات الطائرة.

- *بتعرفي الكلام ده من وين؟ أصله ما شفنا لينا حوّامة طايرة هنا!*

صمتت "حَوّا" مستخفّة بما يعرفون، يشككون بحكاياتها عن الحوّامة التي شاهدتها، أم يشككون بمعرفتها ماهية الحوّامة؟ في كل الأحوال وخلافاً لما هو معتاد منها. لم تجد في نفسها رغبة في مجادلتهم، كأنهم لم يسمعوها ولم تسمعهم.

التفتت إلى "آدمو" المقرفص بعيداً عن جلسة الصحب يمسد ظهر "ترترة":

- *يا ولد أنت حمار؟ ما قلت ليك عشطانة دايرة أشرب.*

علّقت "ست النفر" قائلة:

- *مالِك؟ سيبي الولد.. ترترة عيانة.. بابَنوس تجيب ليك تشربي.*

فزت "بابَنوس" كأنها تلقّت أمراً، وهزت "حَوّا" رأسَها ساخرة وقلبت شفتيها ازدراءً:

- *هه.. ترترة عيانة!.. أصلها ولدته، الحمار ابن الحمار.*

زجرتها الحكّامة بنظرة فصمتت مطأطئة رأسها. كانت "ترترة" قد بركت على مفاصلها صباحاً مما أفزع "ست النفر" وأعاد "آدمو" من جولة ملاحقته لـ "شديد". واست "بابَنوس" البهيمة ومسدت جسدها

بحثاً عن أثر لجرح أو إصابة من دون جدوى. لم تعد "ترترة" كما كانت في الماضي، صارت عجوزاً ضعيفة منذ زمن، وامتنعت خلال اليومين الأخيرين عن الطعام، نحلت ونتأت أضلاعها تحت جلدها الرمادي، قدرت "ست النفر" أن الحمارة شاخت وأنها تموت. وإن لم تر من قبل حمارة تجثو على ركبها كما الجمل، فالبهيمة تموت مستلقية على جانبها.

حزنوا متعاطفين حين بكى "آدمو" جالساً على مؤخرته يمسد ظهر "ترترة".

وحدها "حَوّا" سخرت منه ثم تراجعت أمام حزنه وعدم تفهُّم الجالسين على الدكة لتفاصيل ما رأت في الفضاء عند الحفير. لم تشرح لهم بالتفصيل، لم تخبرهم أنها تعودت في الماضي هبوط المروحيات الحوّامة وراء مبنى الكنيسة في الأرض الممهدة لها، يتطاير فستانها بتأثير الهواء الذي تثيره شفرتا الحوّامة وهي تستقبل النازلين منها، تحمل حقائبهم القليلة الصغيرة إذا ما جاءوا للمبيت لدى الأب "إيراكس".

آه.. كيف تذكّرته؟ لا ترغب في تذكّره الآن ولا في ما بعد.

وصفت لهم فقط كيف حامت الحوّامة قريباً من الحفير ثم غربت، واختفت وراء التلال كما لو أنها لامست الأرض وهبطت.

عُقِدَ مجلس الحكّامة بالصحاب المعتادين، وسرعان ما استقطب جمعاً آخرين وقد تفشى خبر رؤية "حَوّا" للمروحية العسكرية قرب الديار، حتى "أم تاجوج" جاءت وكادت تذهب بهيبة الجلسة وخطورتها وهي تقول:

- *كيف يعني؟ بس حَوّا هي اللي شافتا؟ كيف؟ عيونا عيون صقر!*

ردت "حَوّا" بلؤم:

- *أصل عيوني كبار، ما عمصة مثل ناس كُتار*(*).

تدخّل "باسالم" حاسماً الموقف مقدّراً ما تنطوي عليه رؤية الحوّامة قريبةً من الديار من تبعات. منع النسوة من المراددة، وأفسح للحكّامة أن تتنفس متهيئة لكلمتها الفصل، لم تكن "الرسالة" قادرة على كلمة فصل في هذا الخصوص، كان عليها تقصّي المزيد من المعلومات من الذين يغادرون الحلة ويجوبون الديار، ويعرفون أكثر عن معنى تحليق الحوّامة المروحية قريباً.

قال "الشفيع":

- *ما عندي خبرا لَمّنْ أنا عمدة الخَرْبَقَة ما عارف، وما في زول خبرني، ست الشاي حَوّا دي حتعرف؟*

رد "الزين":

- *دي حاجة ما ليها دعوة بالعمدة والا الخفير، حاجة شافتا المره بعيونا. دلوقت السؤال: شنو جاب الحوّامة حلّتنا؟ منو داسي ليهو زول من المتمردين، وّلا عامل ليهو عمله؟*

حاول "أبّكر" ود "باسالم" التخفيف من مخاوف القوم الذين لم يروا جسداً معدنياً طائراً من قبل، وجلّ ما يعرفونه من السيارات المصنعة كان ركشة "أبّكر"، وسيارة "الشفيع" المهكّعة، وبعض السيارات التي تتوقف بين الحين والآخر ناقلة بضاعة "البخيت". أخبرهم "أبّكر" أن الحوّامات لا تعني بالضرورة عملاً عسكرياً يهدد المنطقة، فكثيراً ما تطوف في الأرجاء في مهمات استطلاعية لا تبعات لها.

لم يقتنعوا، فلدى كلّ منهم حكاية عن القرى البعيدة أو المجاورة التي هُجّرت وحُرقت بعد ظهور الحوّامات بأيام، وأحياناً بساعات. هزت الحكّامة كفيها طالبة هدوء النقاش الخائف، لم تختفِ مخاوفهم وهي تزين

(*) كثيرين

لهم شأن الخَرْبَقَة التي لا يمكن احتسابها من المناطق الريفية التي تغري الأبالة والباحثين عن الأراضي الرعوية لماشيتهم، كما أنها ليست موقعاً يستجلب انتباه البدو الذين يحاولون انتزاع أراضي المستقرين، هي منطقة وهمية نكرة، حلم بسيط ألصقته هي نفسها يوماً على تلك البقعة المنسية، ليس فيه ما يشد انتباه المتصارعين.

لم تعالج كلمات الحكّامة روعهم، وانتبهوا قلقين حين صاح "البخيت":

- *وين الحارس "شديد كادوك"؟ يعني ما شايفه!*

تذكّروا بندقية "كادوك" على كتفه وزهوه بانتسابه إلى المتمردين، ومحاولة الحارس ضَمّ الشاعر "السر" إلى القوات المحاربة لولا أن العشق ضيع صوابه.

وقفت "حَوّا" فجأة على حَيْلها مضطربة؛ وانقضّت على ولدها المقرفص قرب "ترترة" المريضة، نتشته من ياقة قميصه؛ فانقطعتْ، دفعته بحزم إلى الحلقة وهي تحمّله مسؤولية تفسير ما خفي، سقط الفتى بينهم على ركبتيه وهو ينفض التراب الذي رش وجهه جراء السقوط، نهرت الحكّامة "حَوّا" وجاملت "آدمو" بدعوة رقيقة للجلوس، لم تكن تريد للفتى الشعور بأنه متهم، أسكتت هذرَ "حَوّا"، ومسحت كتف الصبي سائلةً إياه عن "شديد كادوك".

قال "آدمو" إنه التقاه صباحاً، فتجولا قليلاً في الغابة المحيطة، لكن لم يصادفا ما يريب، ولم يصيدا أيّ ثعبان، وأنه غادره سريعاً بعد ظهور "بابَنوس" تخبره عن مرض "ترترة".

استفسر "أبَّكر":

- *كان شايل الكلاش؟*

هز "آدمو" رأسه:

- *كان شايل الكلاش.*

لاموا أنفسهم على التهاون بشأن سلاح الحارس الذي قد يثير اهتمام المتحاربين في منطقتهم، ويفتح كوة في جدار عزلتهم، ولم يستبعد "الزين" بناءً على شهادة أحد مريديه اجتماع نفر من جيش التحرير في الغابة القريبة، لم يجرؤ "آدمو" على تأكيد المعلومة أو نفيها رغم أنه الوحيد الذي يعرف تفاصيل الغابة، ولكنه توجس، وجد ظنه يميل إلى وجود مسلحين، خاصة أن البنات البطّالات هجرن كوخهن منذ أسابيع، وصار "شديد" يرتاد الغابة وحده ويتهرب من ملاحقته له كأنه يمتنع عن صداقته. يمنعه من مرافقته قائلاً:

- *أنت لسه ولد شافع.*

لم يبح "آدمو" بشكوكه والجمع يقلّب الشأن على كل جوانبه.

قال الذين مالوا إلى كفة التخفيف من المخاطر ودفع الخوف؛ إن أحداً لم يسمع بالخَرْبَقَة التي لم تجند أولادها في حركة تحرير السودان ولا في حركة العدل والمساواة ولا في "الجنجويد". منطقة أشبه ببقجة المسافر، تفتحها فتجد طعامه وشرابه ولباسه ودواءه، كلها مخلطة بعشوائية تضيع خصوصية كل غرض على حدة. حتى لو جاءها المرحلون أو "الجنجويد" أو كبار متعلمي الحكومة والإداريين فإنهم لن يفلحوا في تحديد هويتها، ولن يعرفوا على أيّ جهة من المتحاربين يمكن تصنيف أهلها، فهم مزيج؛ فيها ترى ود البلد العربي الأحمر، والإفريقي الأزرق فحمي اللون، وما بين اللونين خلاسيون حملوا نتفاً من هذا ومشحاً من ذاك. فيها يمكن سماع الرطانة؛ بل الرطانات، كما تسمع اللغة العربية واضحة. في القطاطي التي لا يعرف ساكنوها القراءة، تجد صحائف القرآن تحت الوسائد تحميهم وتدفع عنهم شياطين الإنس والجن، ووراء سور البوص عند السفح المجاور حيث يتعلم الصغار قصارَ السُّوَر، علّقوا السبورة السوداء بسلك معدني

إلى فرع الشجرة وقد خط فوقها بالطبشور الأبيض عبارة تمحوها الريح وتجددها الأيدي كل يوم: "إنما الدين عند الله الإسلام".

من أين يأتي الخطر إذاً؟

يرى "باسالم" أن الخطر يحيق بالأرض الغنية بالسائل الأسود الموعود، وغابات الصمغ المحيطة بالخَرْبَقَة، ناهيك من أسرار اليورانيوم المخبأة في عمق الصخر تحت التراب.

- *هههووو هوو.*

هتف "الشفيع":

- *أنحنا راقدين فوق كنز سليمان وما عارفين! ليه ما لاقيين غير الدُّخن نعوس(*) بيه الكسرى(**)؟*

لم يستوقف استنكار "الشفيع" أحداً، وحين سأل "الزين" جاداً:

- *شنو ده الروانيوم؟ بياكلوه؟*

ضحكوا كأنهم أكثر معرفة منه، وانبرى شاب يشرح بهمة وحماسة:

- *ده بيسوي ليهو بمب تحرق الوطا من هنا حتين البحر الكبير المالح، أي والله.*

صمتوا عاجزين عن تصور القنبلة المزعومة، استمعوا بتوجس إلى تحليل "باسالم" وهو يشير إلى وقوع المكان على خط إفريقي حيوي، يعترض مسيرة السد العظيم الذي يريد الغرب توسطه إفريقيا باسم سد "إنجا العظيم"، يقام على نهر الكنغو ليكون الأكبر في العالم ويمد إفريقيا وجزءاً من آسيا -إسرائيل على وجه التحديد- بالكهرباء والماء، لهذا تشكل سدود "دارفور" المزمع إقامتها في منطقتَي "مروي" و"كجبار"

(*) نغمس

(**) خبز رقيق من الذرة

مشاريع منافسة خارج سيطرة الغرب، إذ تقع على الطريق معترضة سد "إنجا" المأمول، وتمنعهم من التحكم برقبة مياه القارة.

كانت هذه الأسباب جديرة باشعال الحرب في تقدير "باسالم"، لكن "الشفيع" صاح:

- *أنحنا ما لنا وسد نهر الكنغو؟ ولّا تقول لينا يرانيوم وبترول وذهب! خلاص؛ الجيعانين العريانيين أهلنا، هم ديل اللي حَيْحِلُّو مشاكل العالم! والسر كله في وطانا دي! ده كلام ساهي.. لحم راس، ما فيهو فايدة.*

هكذا توافقت الأغلبية على أن بندقية "شديد" كانت السبب في ظهور المروحيات. هز "باسالم" رأسه وصمت.

اطمأنوا أن ولداً مثل "آدمو" لم يتبع رفيقه، كما حلف لهم "الزين" أن ابنه الذي كان "كافراً شيوعياً" في الماضي؛ لم يستجب لإغراءات الحارس الغبي. وشكر ربه على ضياع رشده في العشق.

نظر "البخيت" بطرف عينه مستفزاً حين ذكروا "السر" العاشق، وتظاهرت "تاجوج" برفع قذى دخل في عينها، ومدت "حَوّا" شفتيها وصَرّتهما في حركة هزء حرة تبدو غير موجهة لواحد بعينه.

كانوا يدركون أن أيّ إخبارية تصل للسلطات عن تسكع المتمردين في الأسواق بأسلحتهم كافية لتجر الوبال عليهم. وقد جلب سلاح "شديد" عليهم شؤم الحوّامة التي تفقدت ديارهم.

لم تعترض الحكّامة حين اقترح "الزين" إقامة حضرة يشارك فيها أبناء الحلة جميعاً، بدت مهمومة صامتة زائغة العينين، فإذا ما انتهوا من الترتيب للحضرة المرتجاة التي ستنقذهم، همست الحكّامة بوهن مخاطبةً "ست النفر":

- *انقلي حاجات زينب العميانة من بيتا لبيتك. ما تسيبيها تمرق وتقعد براها.*

ثم التفت إلى "آدمو" و"بابَنوس" اللذين يشعران بالملل والنعاس قائلة:

- *ما تمشو بعيد.. اللي يشوف شديد كادوك يرسله بيتي. دايراهو، خبروه: الحكّامة دايراك.*

خيم صمت ثقيل على الجلسة، شعروا جميعاً أن كل ما قيل لم يفْضِ إلى حل أو تصور لما قد يكون، واستيقظت في أفكارهم حكايا القرى المحروقة المنهوبة والنسوة المغتصَبات، والأطفال المشردين، صار الهواء لزجاً ثقيلاً، وجفت حلوقهم، دارت حدقات العيون تتفرس في الوجوه، كل منهم ينتظر الآخر ليقطع الصمت، تململ "البخيت" تحت ثقل بطنه وقد انفلشت مؤخرته تحته، حاول تعديل جلسته من دون إصدار صوت يثير الانتباه؛ فلم يفلح. راقبوه ثم عادوا لمراقبة بعضهم بعضاً، في الركن القريب حشرجت "ترترة" ثم نهقت نهيقاً مخرشاً مختنقاً موجعاً، فلوى "آدمو" رقبته يرقبها جزعاً، وفقعت ضحكة "زينب" العميانة إثر نهيق الأتان. ظنها الجمع تضحك بخبل لدى سماعها النهيق المختنق، فأطلقوا ضحكاتهم يملأون الفراغ في صدروهم ويهشّون الخوف الذي يجوس بينهم. لم تشاركهم الحكّامة الضحكات العالية؛ مكتفية بابتسامة، ثم بإشارة خفية نحو "ست النفر"، تُنْبئها عبرها عن سبب ضحك "زينب" المفاجئ، وما يتبعه من مهمات على "ست النفر" أن تؤديها، فقد بالت "زينب" في موضعها.

* * *

تسكّع "السر" مساءً في الطرقات الترابية التي مهدتها خطوات السائرين بين قطاطي الحَزَبَقَة، كأنه بعّاتي يغالب موته. وقد أثقلت رأسه خمائر الشربوت والكيرا. وبدا القلة المتسكعين في الدروب يغالبون لفح الحرارة ذاك النهار كما لو أنهم ينتمون إلى موتى الشجرة وقد ضلّوا طريقهم.

يمّم معظم الرجال صوب قطية الحكّامة، واعتكفت النسوة في دُورهن إلا قليلاً منهن، إذ ردت "حَوّا" عن مجمع القطاطي التي تسكنها الحكّامة كل أم مرضع تحمل رضيعها مربوطاً وراء ظهرها، أو أيّ امرأة تجر وراءها الشفع المتشبثين بأذيالها، حتى الصغار القادرين على الافتراق عن أمهاتهم ركضاً ولعباً، مُنعوا من دخول التجمع الذي يكبر بانضمام مزيد من رجال الخَرْبَقَة إليه.

مع اكتمال رجال الجودية الحكماء، اكتظ المكان، فمارست الربيبتان "حَوّا" و"ست النفر" سلطاتهما في إقناع النسوة بأن المكان ضيق، وأن عليهن إخلاء مجالسهن للرجال، رددن النسوة؛ صداً وإقناعاً وتهويشاً ورجاءً، كلاً وفق طبعها.

تلاطفهن "ست النفر" بطولة بال:

- *ده ما عرس يا اخوانا، كلام كبير عند الحكّامة الليلة.*

وتصيح "حَوّا":

- *ده ما بِكا، كل واحدة تمشي بيتا أحسن، ما دايرين كواريك(*)، ما تعملو لينا وجع في راس.*

توتر الجميع يرغبون باستقصاء التفاصيل بأنفسهم، دست بعض النسوة ما لديهن من قليل الذهب والفضّة في صدروهن، كما حزمن كسر الكسرة وحبات الدوم والقنقليز والنبق بين حشايا ثياب قليلة، ربطنها استعداداً لرحيل متوقّع.

الأستاذ المتعلم الشيوعي السابق، "السر"، حافِظ كتاب الله، القادر على إفادتهم، العاشق السكران، لم يجد في نفسه القدرة على القعود في مجلس واحد مع "البخيت" و"تاجوج"، رآهما من بعيد يدلفان درب قطية الحكّامة مبكراً، لم يتعرف إلى مشية تاجوجه، بدت طيفاً بطيئاً كهلاً يسير

(*) صياح

في محاذاة شوال اللحم والشحم زوجها، حدق فيها علّها تشعر بوقع ناظريه فتستدير وتراه، ليعود إليها جمالها وبهاؤها وحيويتها؛ لكنها لم تفعل، واختفى طيفها البليد بين جموع الداخلين إلى الساحة التي فاضت بهم حتى افترشوا المكان حول سور القطية المزجّج.

انقطع الهواء ليلاً، واسودّت السماء وتوالت نجومها تباعاً، انتهوا من اجتماعهم المطول في حوش الحكّامة، وتفرقوا عائدين إلى قطاطيهم، تحدثوا همساً وهم يغادرون؛ انعكاساً للخوف الذي تربع في صدروهم؛ وإكراماً لصمت الليل وسكينته المنذرة بحدث ثقيل.

لم يَرَ أحدهم "شديد" الحارس طوال النهار والليل، قَضَّ اختفاؤه مضاجعهم، تخيلوه قادماً مع ثلة من الرجال المسلحين، لن يتمكنوا من صده، قد يتعاطفون معه ومع رفاقه المتمردين، وسيلحق به جند "الجنجويد" بأسلحتهم التي تشبه أسلحة العسكر، لتكون الخَرْبَقَة أرض التنازل التالية، ستشتعل النيران بأعواد البوص وأكوام القش، وتنقلب أسرة العنقريب المجدولة وتتفحم في ألسنة النار.

أيقنت الحكّامة أنها في امتحان عسير، لم تعد قادرة على اختيار ما يقود إلى السعادة أو يحقق حلماً صغيراً أو يداوي علة عابرة، لم يعد بالإمكان قطع الروح عن الدنيا والذهاب في مناجاة النفس، نظرتْ بعينَيّ ذئبة حذرة فانكشفت لها رؤيا شاملة مرعبة قد لا تتمكن معها من التركيز على خطوة تقود إلى الأمام.

قبل انصراف رجال الجودية وكبار الخَرْبَقَة من ساحتها مثقلين بمخاوفهم وأوهامهم، أهملت الحكّامة عامدة ما توافقوا عليه سابقاً من إقامة الحضرة والابتهال لرب العباد، وأصدرت تعليماتها:

- *الليلة ما في نوم، احفروا في بيوتكم حفراً عميقة، دسُّوا فيها قمحكم ودخنكم وحبوب الذرة وأكياس السكر، أيّ حاجة*

عزيزة عليكم ختوها في ثمار القرع المفرغة، وغطوها كويس، ودسوها في حفر في الوطا، اطمروها كويس، سَوُّوا التراب فوقا وما تسيبو أثر، دايراكم تنسو انتو ذاتكم ختيتو حاجتكم وين، لو طلعنا من الخَرْبَقَة ورجعنا ليها ثاني نلقى حاجة تساعدنا على الجوع، لُمّوا حاجتكم قبل يلمها غيركم. واسمعوني كويس، لو سمعتم أولاد الرصادة اللي رسلناهم يراقبون الدرب يصيحون، اعرفوا أن حمالة السلاح الجنجويد صاروا حولنا، تجمعوا في وسط الحلة، في ساحة السوق الفارغة، ارفعو أثواب النسوان البيضاء على أخشاب وأعواد، وادْعُوا ربكم الواحد الأحد ينجيكم نيران الفتن، لا تسيبوا شفعكم من يديكم، أقيفوا في دايرة مقفلة، يوقف في الوطاه المكشوفة الناس الحمر والخضر الّـ باين في وجوههم دم عربي، ارفعوا المصاحف، والّـ عنده حجاب يلبس حجابه، والّ يحفظ آية من كلام الله يتلوها، دسوا بينكم الزرق الّ نخراتهم مفلطحة، والّ ما يرطنون الكلام العربي، قدموا الشفيع وباسالم والزين للكلام، وأنا معاهم. اوعه تفزعوا، ولاّ تتفرقوا، لا تشيلوا حاجتكم وتهربوا من الخَرْبَقَة، لا تدسوا الذهب مربوط في شطور نسوانكم، لو لقوه يقتلو أمهات الشفع. اوعه تفزعوا وتهربوا، السكة ما آمان أكثر من ساحة السوق، الزول براه ما يقدر يحمي نفسه، خليكم جمع. إذا قالوا ليكم اطلعوا، امشوا ساكتين، ما في كواريك ولا واحد يساوي بطل كذاب، أدُّوهم البهايم فداء لأرواحكم، يعوضكم الله، خلّوهم يَنَفْسُو غضبهم في البوص والخشب والقش، إذا أحرقوا الحلة لا تمنعوهم، ولا تفقدوا أعصابكم وتنبزوهم غضبانين، في يوم بنرجع بنبني الخَرْبَقَة، المهم اليوم تحموا أرواحكم.

انصاعوا وإن توجع الرجال من التعليمات الخانعة، لم تعجب التعليمات الحكّامة نفسها. لكن الخيارات انعدمت، ابتعدت الحكّامة في كلماتها عن الزهو أو الإشادة بالبطولة والتصدي وما اعتادت تعظيمه في شأن الكرامة. عوضاً عن كل هذا وضعت لهم خطة استسلام صامت، مقهورة مقيدة تماماً أمام خيار الموت أو الحياة. للمرة الأولى في حياتها ترتجّ وهي تُحَكّم، طمأنت نفسها على سلامة حكمها، فالموت على هذه الصورة ليس شهادة يليها النعيم كما يهرفون، إنه موت فقط، موت لئيم جاف عدواني قاسٍ، موت يحصد الأرواح ولا يمنحها الفرصة لعبور شجرة الموتى. أما الحياة؛ فهي خيار يحتمل فرصاً مغايرة، ينطوي الانحناء للعاصفة أحياناً على وعد بالخلاص.

قضى أبناء الخَرْبَقَة ليلهم يحفرون مخبّئين مؤونتهم، جادل بعضهم النساء اللواتي اقترحن الفرار، وبّخوهن، ولم يستجيبوا إلا لما قالته الحكّامة. الذين غلبهم النوم منهم فزعوا مرات وتقطّع نومهم، استيقظوا على ريح نتنة كما لو أن بعاثي الموتى يهيمون في الديار بحثاً عن فريسة حية. ليلة كابوسية بامتياز.

لم يتردد المؤذن فجراً في رفع.. "الله أكبر".. راجفة واهنة، كما قفز الديك فوق سور الحكّامة ونفش جناحيه وصاح أيضاً كأنه لا يعرف ما سيحدث، رد عليه ديك "الشفيع" وديك "باسالم" مُحْدثين جلبة الفجر المعهودة.

لم يتحرك الهواء بتاتاً في حلة الخَرْبَقَة هذا النهار، ولم يغادر الناس مهاجعهم إلا نفر قليل، تفرق فتية الرصد الذين تم اختيارهم بعناية خفافاً يرقبون الدروب التي تقود إلى الخَرْبَقَة؛ يسبرون أيّ حركة مريبة فوقها. منعت الحكّامة "آدمو" من مرافقتهم، فاحتجّ ضارباً قدمه بقائمة العنقريب، ودقت "حَوّا" صدرها تصيح بغلظة لئيمة:

- *ما بتمرق لو تقتلني، إنت قايل نفسك شنو؟ لو شافوك كده عبد أسود يرصصوك(*)، حتى عينيك دي ما حتشفع ليك، ما حيشوفها لبنية(**) ولّا خضرا ولّا مصيبة زمان.*

لم يشكل لون "آدمو" له حيرة أو يستوقفه، منسجم مع الدنيا، وزرقة عينيه التي شكلت له هماً في صغره، تغلّبَ عليها بصيد الأفاعي. نسي "آدمو" أنه أسود؛ حتى ذكّروه. كذلك "بابَنوس" التي بادلته النظرات متذكّرة، ثم حنت رأسها تنظر الوطاة الترابية.

لم ترتفع الشمس بعيداً في صدر السماء، حين بدأ الأهالي يسمعون زعقات شبابهم الرصادة، ورأوهم يتواثبون رادّين إلى الحلة يرسم الفزع وجوههم، تدافع أهل الحلة إلى وسط ساحة السوق، ومرقت "بابَنوس" مسرعة مرتبكة ملاصقة للقطية فنتش عود خشبي كتفها وأدماها؛ فما أعارت جرحها انتباهاً. جَرّت "حَوّا" ولدها بعنف حين أقعى بجوار البهيمة التي انبطحت أرضاً وبدأت تحتضر مصدرةً غرغرة موجعة وسط زبد كثير تدفق من حنكها في حين ارتفعت قوائمها متشنجة، خرجوا يتدافعون والحكّامة تذكّر "ست النفر":

- *زينب.. هاتي زينب.*

ثقلت "زينب" وأبت الاستجابة لذراعَي "ست النفر"، ضربَتْها علّها ترغمها على مبارحة العنقريب، لاطمت العمياء كل يد تمتد نحوها، بدت أقوى من الجميع الذين انصاعوا لتكرار الصيحات:

- *تجمعوا في السوق.*

بدا المشهد غريباً، تجمع الرجال والنسوة يتلاصقون، ظلت قلة في الحظائر والمراعي ترقب الماشية اللاهية رافعين خرقاً بيضاء على أعواد

(*) يقتلونك بالرصاص

(**) زرقاء

البوص، وشلّ الصمت ألسنتهم وهم يسمعون بوضوح كركبة العربات تنهب الأرض في طريقها إليهم، ثم شاهدوها بأعينهم تقترب وتقف محيطة بالجمع الدائري. عشر سيارات "لاند كروزر"، وشاحنتان؛ صغيرة وكبيرة، تنتصب مواسير مدافع "البازوكا" فوق المركبات العشر التي توقفت تماماً.

مرت لحظات فكرت الحكّامة فيها أن تتقدم راجلةً لمحادثة القادمين، لكنها تراجعت حين شُق رتل المركبات بركب من الإبل والخيل، اقترب "الجنجويد" فوق صهواتها متمهّلين شاهرين الأسلحة، مثل ظلال سوداء أكبر من أحجامهم الأصلية، يصعب معرفة ألوان ملابسهم العسكرية أو مطاياهم. تتضح الصورة كلما اقتربوا، واجه أولهم على حصانه أهل الحلة، رأوا بوضوح رتبة عسكرية على كتفيه؛ ولم يعرفوا تصنيفها، كما قدروا أن لون زيه العسكري باهت مقارنة بزي العسكر في الشاحنات. اصطكت ركبتا "الشفيع" والحكّامة تدفع ظهره لملاقاة عسكري "الجنجويد"، تأتأ قائلاً:

- *أنا العمدة.*

ضحك رجل "الجنجويد" ساخراً؛ فبان الفراغ بين أسنانه، وتخطى بناظريه "الشفيع" إلى الحكّامة التي تقدمت مجدداً، قال:

- *أنحنا جينا نأخد نصيبينا من الزكاة.*

لم تمهله الحكّامة، أشارت إلى مراعي الحلة القريبة من الحفير، دلت الرجل على قطعان المواشي، فأشار بكفه لصحبه الذين اندفعوا مقتربين، فيما ظلت السيارات العسكرية ساكنة، اخترق "الجنجويد" بإبلهم وخيلهم دائرة الأهالي، يمم بعضهم إلى المراعي مباشرة، في حين ترجل آخرون مندفعين إلى القطاطي الفارغة، وتحرك الذين ظلوا على ظهر مطاياهم كراً وفراً مثيرين تراب الأرض. حوقلت الحكّامة وبسملت مغمضة العينين آملة في انتهاء الغزو من دون خسائر بشرية.

حفلت حياة الحكّامة بالمآسي والتقلبات، عاشت عمرا ظنته وهمياً بين الجوع والشبع والخوف والنقص، تذكرت رحلة ذويها من "الفاشر" وكيف حولتها بحكمتها إلى حياة ثابتة على أرض الخَرّبَقَة التي لم ترسمها الخرائط، أما هذا السعير فهو أمر مختلف، إنها فوهة الجحيم تراها بوضوح وتُقاد إليها مرغمة، ثم تُطرد منها إلى الموت.

صَفّرَ أحد رجال "الجنجويد" ووقف مفتوناً لدى رؤيته "تاجوج"، تراجعت المرأة وراء لحم زوجها الذي ينتفض خوفاً، فطالتها يد الرجل وانتزعتها من بين الجمع، جرها وهي تصيح، وقع البخيت أرضاً، فجأة اندفع "السر" الذي لم ينتبه أحد أنه بينهم، اندفع محاولاً تخليص "تاجوج" من قبضة الغازي، صارخاً:

- *ما تاجوج.. لا.. لا.. ما تاجوج.*

لم يتمكن من إكمال صرخته، ولا من شد محبوبته التي غيبها العسكري في أول قطية صادفته، وظلت صرخاتها تصم آذانهم، تشجع "أبّكر" معتمداً على ملامحه العربية:

- *سيبوا البت، خدوا كل المواشي، والدخن والسمسم، سيبوا البت.*

لم يترك الجنجويد البت، وقفز أحدهم من فوق صهوة حصانه مستدركاً اندفاع "السر"، مصوباً بندقيته إلى رأسه.

لعلعت الرصاصة؛ وعرفت الحكّامة أن الأمر أفلت من بين يديها وتخطى خطتها وأمانيها، دارت الأرجل وتراجعت الأجساد إلى الوراء مفسحة لجسد "السر" أن يتهاوى بينهم مضرجاً بدمه.

صاحت "أم السر" وهي تنحني وتقوم تباعاً تعفر التراب على رأسها، وأمسك الرجال بـ "الزين" الذي يجوح ويحاول التفلت، انفرط اصطفاف الأهالي وتدافعوا خائفين، واستقامت حركة "الجنجويد" الذين أحاطوا بهم بإحكام، ودوى صوت الرصاص مجدداً لاجماً الحراك.

فرز "الجنجويد" الرجال عن النساء ببندقياتهم المقلوبة والموجهة، دفعوا "الزين" فسقط على وجهه، وشدوا "أبَّكر" عن جسد والده المتهاوي، بحثت عينا "باسا لم" عن الحكّامة ونَقَّلَ بصره بفزع بينها وبين امرأته التي تشد "أروى" و"سيف" إلى حضنها وتميد، غُطي وجه "البخيت" بالتراب والدم، تصايح الرجال الذين انساقوا تحت كعوب البنادق، إلى أن كدّسوهم تحت تهديد السلاح طالبين أن يجثو كل منهم على ركبتيه برأس مُنْحَنٍ، سكن الكون وعيون أهالي الخَرْبَقَة تنظر رجالها، لم يَرَ الرجال الرصاص الذي حصدهم من الخلف وإن سمعوا صيحات "الجنجويد":

– *اقتلوا النوبا.. اقتلوا النوبا.*

لم يتمكن الرجال من معرفة من ظل منهم على قيد الحياة، فقد اصطنع أحياؤهم الموت بين جثث الموتى دفعاً للموت. ورفع "الجنجويد" الأول هاتف الثريا(*) إلى أذنه متحدثاً عبر الأقمار الصناعية بصوت عال:

– *تمام، خلصنا قرية المتمردين، كله تمام.*

دفع جند "الجنجويد" النسوة النائحات المفجوعات دفعاً وهن يتملّصن ويحاولن الرجوع إلى الخلف، انفلتت "حَوّا" ثلاث مرات قبل أن تتلقى طعنة بفوهة ماسورة البندقية، صاحت مثل ذبيحة وانثنت فجَرّوها عنوة، قادوا النسوة إلى حيث تقف السيارات العسكرية والشاحنات، في تلك اللحظة دُفعت "تاجوج" من قطية اغتصابها معفّرة بالتراب والقش والدمع والدم، كانت قد فقدت للتو زوجها وحبيبها، رمى بها مغتصِبها لصاحبه الذي جرها إلى القطية مجدداً. ما عادت تملك صوتاً تصيح به، وعلا صياح النسوة وتداخلت زعقاتهن، وتميز صوت الحكّامة كما لو كان ريحاً عاصفة تهز الكون.

(*) شبكة اتصال

رأين رجالهن من كانوا بالأمس آباءً وأبناءً وعشاقاً غارقين في دمائهم في كومات متفرقة، شاهدن ألسنة اللهب تلتهم في ثوانٍ أعوادَ البوص والقش التي كانت بيوتهن، وسمعن صيحات "زينب" العميانة التي تموت احتراقاً في مكانها، كما وصلهن خوار "ترترة" رغم صيحات الرعب.

جر عسكر "الجنجويد" المواشي القليلة من حمير وأغنام إلى الشاحنة الأكبر، وتأكدوا من اشتعال النيران في المؤن والعفش، فخالطت رائحة البوص المشتعل رائحة شواء لحم "ترترة"، في حين قاد آخرون النسوة والصبية إلى الشاحنة الصغيرة، كوموهن بينما الحكّامة تقف وتنتفض، وتدفع أذرع الرجال ورأسها الأشيب المنكوش يعاند، وعت في تلك اللحظة أنها قد تنتهي عجوزاً مستضعَفة شمطاء تقرفص عند خيمة في معسكر للاّجئين، ليس في العالمين من يعرف قدر حكمتها، أو يرى في وجهها المنكسر مجدها القديم، تموت الحكّامة ولا تستسلم لهذا المصير، كذلك تفعل النسوة وهن يدافعن عنها ويناوشن الخاطفين بقوة كما لو كن نمرات غاضبات، الجندي الذي يحرك مؤخرة بندقيته في وجوههن رجّح أنهن يدفعن عن حبوبتهن، تذكر حبوبته؛ ثم أقصاها عن مخيلته.

أعاد المغتصب جسد "تاجوج" المنهار، وأرغموها على تسلق الشاحنة فانشحطت قدمها بالكامل، ولطخ دمها ثوبها.

جالوا بين النسوة المكدسات بأنظارهم، ثم راحوا يرمون من الشاحنة من كانت عجوزاً أو قبيحة، ألقوا "أم تاجوج"؛ تلتها الحكّامة. صاحت النسوة فزعات وهن يحاولن الوقوف واللحاق بجسد الحكّامة الذي يتفعفل في التراب كما لو كان كُرَة. ضُربت معظمهن بمؤخرة البندقية، وأُجلسن رغماً عنهن. من بعيد تلامعت الخَرْبَقَة كتلةً لهب في أعينهن، و"الجنجويد" يسوقون الحلال والماشية، وأجساد رجالهن مكومة في السوق، وجسد الحكّامة يهمد منقلباً عند بوابة حوشها.

انكمشت "بابَنوس" حول جسدها ترتعد باكية والشاحنة تثير عجاج الأغبرة وراءها، أغمضت عينيها وفتحتهما مراراً في إزاحة للمشهد واستعادة متتاليتين، رمشت مراراً وعيناها لا تصدّقان العالم وهو ينسحب بعيداً عنها كأنه لم يكن، منذ تلك اللحظة انقلبت دنياها التي عرفتها وعاشتها، صارت أخرى غير الفتاة التي كانت. حين تمكنت من إدراك واقعها فوجئت بجسد يلتف على نفسه محاولاً إخفاء ذكورته عن أعين "الجنجويد" المسعورة بالاختباء بين النسوة، كان ذلك "آدمو" يشد جفنيه على عينيه الملونتين فزعاً.

تمايلت النسوة وتطوحن مكومات بعضهن فوق بعض؛ كلما مالت الشاحنة فوق حفر الأرض وحصبائها، استنشقن العجاج الذي شكّل غيمة دائمة وراءهن، مع ذلك شعرن بزفراتهن المشتركة وتعرُّقهن يسيل على أذرعهن الناشبة في أكتاف بعضهن بعضاً.

بعد ساعات توقف صراخهن ودمعهن، وتبادلن همسات حذرة عَمّن عاش ومن مات، سمعن تمتمات "الثومة" وهي تشد إلى صدرها صغيرتها "أروى" التي نامت واستيقظت بالتعاقب فزعةً، لمسْنَ "أمَّ السر" بحنان علها تكف عن حشرجتها وهن يتساءلن عما تفعله الحكّامة تلك اللحظة؟ هل قُيّض لها أن تقوم من الوطاة أم إن عظامها الواهنة لم تحتمل سقطتها المريعة وتدحرجها الأليم؟

تمنّت "ست النفر" موت الحكامة رحمة بها، وهمست "حَوّا" التي انكفأت فوق جسد "آدمو" تحجبه عن الرؤية:

- *الحكّامة زي الكديس؛ بسبع أرواح، حتقوم، وتدفن بيديها كل رجال الخَرْبَقَة الّ كتلوهم.*

أعادت كلماتها الدموع إلى مآقيهن، ولكزن خواصر بعضهن بعضاً حريصات على ألاّ يثرن غضب عسكري "الجنجويد" الواقف فوق

رؤوسهن، رفعن نواظرهن حذراتٍ حين سمعن هدير الحوّامة تعود في دورات حول المكان ممشطة آثار الحريق، سلمن لما شاهدته "حَوّا"، ولم ينبسن، لم يعد للأمر أهمية بعد أن صرن أرامل وثكالى ويتيمات.

لولا كف "بابَنوس" في كفّها، لم يعد لحياة "ست النفر" معنى، الكف الطرية الراجفة التي تسكن كفها، تذكرها بحضن أمها "تركية" وضمّها العنيد، وأغاني الليل الحزينة التي لا يفهمها أحد.

ضربتهن الشمس طوال الطريق ولم يشعرن بجوع أو عطش، وأوشك الليل على ابتلاع المكان والزمان وهن لم يتناولن زاداً بعد ولا شربن، كن قد سلّمن أراوحهن للحزن فحسب. حين أحست "بابَنوس" بخيط الدم ينساب بين فخذيها لم تعرف كيف تفسره، وأي جرح يمكن أن يشقها فجأة فَيُحدث هذا النزف، ضمت فخذيها بقوة خجلى.

أفاقت "تاجوج" من إغمائها لكنها ظلت تئن بانتظام، فتقطعت نياط قلوب النسوة، حتى اللواتي كن يحسدنها أو يضمرن لها احتقاراً. رفعت "ست النفر" طرف ثوبها ومررته مشفقة فوق دماء "تاجوج"، فلم يمسح الدم الجافّ المكوم فوق الجرح، وصاحت "تاجوج" توجعاً لدى لمس جروحها، وبدأت "أروى" في البكاء.

دفع العسكري بمؤخرة بندقيته في خاصرة أقرب امرأة إليه فَمِذْنَ كما حصى متساندة متتابعة، وربتت "ست النفر" على رأس "تاجوج" بحنو، ووضعت "الثومة" كفها على فم "أروى" هامسة:

- *إشششششش.*

توقفت الشاحنة الصغيرة، فانقشع العجاج، وبانت الصحراء المفتوحة حولهن، اكتشفن أن الشاحنة التي تقلهن قد انفصلت عن رتل السيارات العسكرية في وقت لم ينتبهن له، وأن شاحنتهن توقفت وسيارة "لاند كروزر" مدنية بيضاء ترفع علماً أبيض تقترب منها. رأت النسوة

الرسم على جانب السيارة وهي تحاذي شاحنتهن؛ ظهر بوضوح اللون الأحمر الذي رسُم به تجريد لشخص قُطع جسده على نحو أفقي واستقر رأسه فوق الخطوط الحمر، وعلى موازاة الرسم كُتبت حروف لاتينية، تحتها كتب بالعربية "أطباء بلا حدود".

أرجع العسكري في الشاحنة سلاحه خلف كتفه، وفتح سائق الشاحنة بابها مترجلاً في الوقت الذي ترجل فيه نفران من سيارة "أطباء بلا حدود"، تمكنت "ست النفر" من تمييز إحداهن؛ أنثى حمراء نحيلة بشعر أسود مربوط إلى الخلف، ارتدى كلٌّ من القادمين الجديدين بنطالاً و"فانيلة" بيضاء رسُم فوقها الشعار الذي شاهدنه على بوابة السيارة وعلى القبعات، لم يكن من فرق بين الرجل والمرأة في زيهما، كأنهما جنس ثالث، إلا أن الرجل تحدث بلغة غريبة، ليست الإنجليزية قطعاً وإلا لتعرف عليها "بابَنوس" و"آدمو" بما أتيح لهما من تعليم.

تحدثت المرأة بعربية منكهة بدت للنسوة محببة قريبة إلى النفس مُطَمْئنة، كانت تسأل عن أمر الشاحنة وكأنها تمتلك سلطة أعلى من المسلحين، وكانوا يجيبون بودّ ويجاملونها!

سمعت راكبات الشاحنة إجابة السائق بأنه ينقل جمعاً من اللاجئات اللواتي تم العثور عليهن هائمات على وجوههن إلى مخيم "كلما" القريب. زين السائق أمر الحياة في المخيم الذي لا شك أنه أكثر رفاهاً من أيّ قرية عشن بها، فهو حي شعبي بكل المقومات المطلوبة، هناك طعام وفير وعناية صحية وماء، وشرطة تحمي الأمن، ومدارس وأسواق، وبيوت من حصير وسعف النخيل، كما أنه قريب جداً.

اختلست الطبيبة العربية نظرات سريعة إلى النسوة اللواتي رفعن رؤوسهن ورحن ينظرنها وفي أعينهن استعطاف ورجاء خفي.

قالت:

- *مخيم كلما مش قريب أوي زي ما بتقول، ده بعيد عن نيالا يجي أربعة عشر كيلو، وبتهيأ لي إنتم ماشيين في سكة تانية.*

حايلها السائق في أنه كان على وشك أن يعود أدراجه، ولكن الطبيبة المصرية صرفت دقائق طويلة تتهامس وزميلها الأجنبي وراء سيارتهما مما أثار توتر العسكر، فراحوا يدورون حول الشاحنة مترقبين. حين عادت الطبيبة أدراجها أكدت أن الدرب إلى معسكر "كلما" طويل، ولا بد من فحص النسوة للتأكد من قدرتهن الصحية على مواصلة الطريق، لم تطل مقايضة العسكر للأطباء الذين راحوا يساعدون النسوة على الترجل من الشاحنة ويصحبونهن واحدة واحدة وراء شاحنتهم الصغيرة للفحص الطبي.

كشفت الطبيبة أجساد النسوة بلطف وهي تمرر سماعتها فوق صدروهن العارية متمتمة بكلمات مواسية هامسة:

- *معلش، لحظة بس أتأكد إنك بخير، معلش استحملي.*

دار العسكر حول شاحنتهم قلقين، والطبيب الأجنبي يعيد النسوة واحدة تلو الأخرى إليها، ووراء سيارة الأطباء أمسكت "ست النفر" بساعد الطبيبة راجيةً وهي تعزل "بابَنوس" مشفقة على دم حيضها الذي لطخ ثوبها، همست:

- *دي بتي.*

همست الطبيبة:

- *ما تخافيش، حتكون بخير، هي كويسة، بس البنت كبرت، حنتطمن عليها ونجيبها لحد عندك في المعسكر ما تخافيش.*

تواطأت "حَوّا" مع الطبيبة وهي تبين لها أن "آدمو" ولدها ذَكَرٌ بين نساء مخطوفات، وقد يُقتل إن اكتشفوا أمره.

دفعت الطبيبة البنت والصبي داخل سيارة الأطباء، كذلك فعلت بجسد "تاجوج" المتهالك برفق.

لم يجادل عسكر "الجنجويد" إزاء فقدان ثلاثة من حمولتهم، واستدارت شاحنتهم وقد علّقت كل من "ست النفر" و"حَوّا" نظرات الرجاء وراء العجاج الذي عاد وفصل بين السيارتين.

قبل سقوط العتمة تماماً دخلت سيارة "أطباء بلا حدود" معسكرها القريب، ورأت "بابَنوس" وهي تغادر السيارة جمعاً من الصغار والنسوة وبعض الرجال الذين ضُمّدت جراحهم يمشون بين الخيام البيضاء، وقد أنيرت فوانيس تعمل بالبطارية، كان هناك مزيد من الرجال والنساء الذين يرتدون الفانلات البيضاء المزدانة بشعار الرجل الأحمر المخطط.

تمطّى "آدمو"، طقطق عظامَ ظهره، بدا معافى الجسد لكنْ زائغ النظرات، بينما نُقلت "تاجوج" سريعاً على محفة حملها اثنان وأدخلوها خيمة بعينها، سارت "بابَنوس" وراء الطبيبة تبعاً لأوامرها، وولجتا خيمة ثانية، هناك طلبت منها الاغتسال، وزودتها بالفوط الصحية، بدت "بابَنوس" ذاهلة محتارة، ولكن بعد ساعة كانت نظيفة مسترخية وقد ارتدت مريولاً طبياً أبيض رُسم فوقه شعار المنظمة العالمية، فامتلكت الجرأة لأن تطلب المبيت في خيمة واحدة مع أخيها "آدمو".

تعانق الولد والبنت ليلتها، وناما على الصورة التي تمنّتها "بابَنوس" سراً، كانا يرفعان أكفهما بين الحين والآخر يمسح كلّ منهما الدموع عن وجه الآخر.

عندما غفت أعينهما، لم يريا أحلاماً ولا زارتهما الكوابيس، بدا كل ما مضى وهماً لا يمكن التفكر به مجدداً، غفيا على يقين بأنهما سيستيقظان غداً ويلحقان بركشة "أبّكر" الذاهبة إلى مدرسة الضعين، سيشتمّان رائحة ملاح "ست النفر"، ويسمعان جلبة "حَوّا" وهي تتهيأ

للخروج إلى السوق، وسيريان الحكّامة تصلّي، وقد يداعبان "ترترة" التي لم تعد مريضة، بدا العالم بخير تماماً في أحلامهما، وكانت أول إشارة على غريب أحلامهما عندما استيقظا فجراً في خيمة بيضاء ضيقة متلاصقَين؛ وقد عالجا خوف نهارهما المنصرم بالعناق طوال ليلهما.

افترقا على خجل، بدلت "بابَنوس" فوطتها الصحية، ولحقت هي و"آدمو" بالطبيبة التي يعرفان، اطمأنا على "تاجوج" النائمة منقطعة عما حولها، تناولا إفطاراً طيباً؛ خبزاً ولحماً يذوب في الفم، شربا حليباً في كاسات زجاجية، ثم جلسا خارج الخيمة يرقبان الحركة بطيئة تنشط، ثم تعود لتنقطع إذا ما ارتفعت الشمس في قلب السماء، تمَنَتْ "بابَنوس" لو أن الزمان يتوقف بها فتعْلَق في تلك المرحلة الهانئة، لا ماضيَ سعيداً يحترق نصب عينيها؛ ولا آت مجهول ينتظرها، يمكنها أن تعيش اللحظة المحايدة إلى الأبد.

كانت أول من لمح السيارة التي دخلت المعسكر الصغير، "لاند كروزر" مموهة، يحمل بابها شعاراً بدا لطيفاً مضحكاً، دمية تمثل دباً أصفر أحيطت أطرافه بحروف لاتينية ثلاثة، Z o e، بينما كُتبت عبارة كاملة بالحروف اللاتينية على شكل قوس في أعلى الدب الضاحك اللطيف. ترجّل من الشاحنة رجل فارع يرتدي الشعار نفسه على "فانلة" بيضاء، دلف إلى الخيمة المجاورة ثم خرج برفقة الطبيب الأجنبي مجدداً، اقتربا يتأملان "بابَنوس" و"آدمو" من دون كلمات، ثم تنحيا جانباً يتهامسان بعد أن اختفيا لحظات وراء خيمة الطبيبة التي خرجت مبتسمة للولد والبنت:

- *الله الله، إحنا النهاردة زي الفل، ما شاء الله، انتو حظكو حلو قوي، دول جمعية فرنسية "آرش دي زوى"، يعني "قوس الحياة"، رايحين مخيم كلما النهاردة، حياخدوكم وياهم، حتلاقو أمهاتكم يمكن آخر النهار بإذن الله.*

- *وتاجوج؟*
- *زميلتكم لسة عيانة، حنبعتها لما تبقى كويسة.*

لم يسمعا اللغة العربية بعد كلمات الطبيبة العربية المصرية لوقت طويل بعد ذلك.

طالت المسافة القريبة الموعودة وهما يتأرجحان في عربة الـ "لاند كروزر" المكشوفة، تذكّرهما السائق مرتين فوقف وأمدهما بالماء، ولكن الإنهاك نال منهما والشمس تغيب ثم تشرق عليهما مجدداً؛ فينالان جرعة ماء ويُطْعَمان حبات من البلح الناشف.

بدلت شاحنة "قوس الحياة" دربها، بدلاً من الاتجاه المفترض إلى معسكر "كلما"، انحرفت وواصلت سيرها صوب الحدود التشادية.

تُرك الفتى والبنت نائمَين لوقت طويل في معسكر الجمعية، ووَضَعَ رجلٌ لطيف الكماداتِ المبللة على جبهتيهما يخفف ما أحدثته الشمس من حرارة ودوار. ناما طويلاً إذ شعرا بالتعب يفتّ طاقتهما، تقلّبا على كوابيس عابرة، وشكّا مطولاً إذا ما كانا في طريقهما إلى المخيم الذي ظنا أن امهاتهم نُقلت إليه، لكنهما لم يسألا ولم يجادلا، بدت اللغة المتعامَل بها بين الرجال في المخيم غريبة على سمعيهما.

مضى نهار كامل قبل أن يستعيدا وعيهما تماماً، وجدا نفسيهما في خيمة طويلة مجهَزة بالأسرّة؛ يحتل كلَّ سرير فيها طفل أو طفلة، قرابة خمسين شافعاً، جميعهم في عافية وراحة يأكلون ويشربون ويتبادلون الحكايات بالعربية والرطانة والتشادية أحياناً عن قراهم التي نُهبت وأهلهم الذين انقطعوا عنهم سواء في المخيمات أو القرى. لم يطل بهم المقام، فقد جاء عدد من الممرضين، لاطفوهم وشرحوا لهم بلغة لم يفهموها ضرورة أن يَبدوا جرحى ومرضى.

استسلم الصغار الذين اختلطت عليهم شؤون حياتهم للممرضين يلفون سيقانهم وأذرعهم ورؤوسهم وصدورهم بضمادات ولفافات الشاش، ويصبّون الجبائر حول أطرافهم، استمتعوا بالعكازات التي منحوهم إياها لتسهل سيرهم، كان نصيب "آدمو" جبيرة تثقل سيره، وكان نصيب "بابَنوس" ذراعاً ملفوفة بـ "الجبس" والشاش.

تم تجهيز الصغار ورُفعوا إلى شاحنة كبيرة. عندها أيقن كل من "بابَنوس" و"آدمو" أنهما والآخرين؛ لن يروا عائلاتهم بعد ذلك أبداً.

كانت طائرة "البوينج" التابعة للخطوط الجوية اللوكسمبورجية جاثمة فوق مدرج مطار "ابشي" التشادي، ليست المرة الأولى التي تستأجر فيها منظمة "قوس الحياة" طائرة لنقل المعدات أو البشر، ولكن تلك الدفعة كانت مميزة للغاية، ينتظرهم مستقبل مختلف لم يحلموا يوماً به، سيكونون أبناءً لأسر تشتهي طفولتهم، وتدفع أثمانهم سخية، يرافقهم عدد من المتطوعين في المنظمة الدولية.

مشت صبية طويلة شقراء أمام الصغار يرافقها الشاب فارع الطول، نظما مسيرتهم وساعدوهم على اعتلاء سلّم الطائرة، تنبهت "بابَنوس" إلى أن مشاط مسائد شعرها ثقيلة تتأرجح بثبات خلف ظهرها، بينما يطيّر الهواء شعر الصبية الأشقر المقصوص كأنها شبائب الذرة، يسفح الهواء وجه المرأة الفرنسية "أولمب" ويرفع تنورتها كاشفاً عن فخذيها، وفي مشهدية وهمية عجيبة استرجع "آدمو" صباحات العيد حين تقاد الخرفان جذلى تتراقص خلفها إلياتها الطويلة السمينة تنحشر بين فخذيها وهي في طريقها إلى ساحة الذبح.

حلّقت الطائرة فوق البحر مخلّفةً القارة السوداء وراءها؛ ميمّمة صوب أوروبا.

* * *

بابَنوس... باااااابنووووووس.. باابنوس...

سمعت النداءات واضحة، فهمت "بابَنوس" الصوت الغامض المنهَك الذي يصيح بحروف اسمها متقطعة كما لو كان يعرفها، وينبعث من الكوة المعدنية المحاذية لرأسها، كتلة باردة على شكل نافذة، ربما يخترقها الصوت ولا يصدر عنها! ركزت رأسها الثقيل الدائخ على حافة النافذة، ثم انتفضت إثر البرودة المفاجئة، وكأن الكوة تنفح هواءً له رائحة تشبه رائحة قوالب الثلج التي كانت تُلَفّ بأكياس الخيش وتُحْمَل إلى معسكرات الناس الحمر. ينبجس الصوت من عمق بعيد، وتلفح خدها البرودة. عمق داكن غوير، توهّمته منبسطاً عندما جلست في المقعد وشدوا حزاماً حول خاصرتها، ارتكزت على ذراعها الملفوفة بـ "الجبس" والشاش، وحملقت في السماء الزرقاء والغيم المتحرك، في اللحظات الأولى كانت الكوةُ المتسعَ الوحيد لتسرح ناظريها في المشهد الذي تعرفه سماءً عالية حين تكون على الأرض، الآن تدرك أنها تحاذيه، تخترقه وهي داخل الجسد المعدني الطائر. العالم يركض قربها؛ ويصغر بعد ارتجاجات كثيرة. شعرت والطائرة ترتفع أنها تهبط إلى هوة سحيقة، تماسكت واستعانت بالنافذة إلى يسارها كي توهم النفس أنها لم تُقْتَلع وتطير، شعرت بالضياع وقد فصلوها عن "آدمو" فاصطحبوه إلى مؤخرة الطائرة حيث لا تراه، بينما جلس الفرنسي "ألكسندر" إلى جوارها.

مضت ساعات خانقة مريبة، وصار الفضاء داكناً، والبحار كأنها سراب تحتها. يأتي الصوت من أسود الغيم؛ أو من التماعات الماء الغامضة في الأسفل.

لم يكن نداءً ملحّاً يدعوها للغرق في هوة الماء البعيدة، لكنه أشبه برجاء استنجاد، أو تنبيه، أو مواساة!

صعب عليها تفسيره بوضوح وإن لوّعها وامتلأت به، أدركت أن هذا الصوت الذي لم يسبق لها سماعه يعرفها معرفة اليقين، ويحبها؛ بصورة غامضة يحبها، يرافق رجفة جسدها المرهق، وانثناؤه العليل كأنه يسندها أو يعانقها!

داخت حتى لم تعد تتنفس؛ وانحبس دمها، ثم ثقل رأسها وتأرجح على جيدها؛ ومال جسدها. أحست بذراع "ألكسندر" المفتولة ترتطم بذراعها الملفوفة بعناية، ورأت كفاً بيضاء غليظة تمسك لفافة "الجبس"، كانت ذراعاً بيضاء مشوية، لوحتها سياط الشمس ببقع حمراء وصفراء وبنية، شعرها أبيض منتوف، عضلاتها نافرة، لكنها بيضاء جداً؛ باهتة.

شعرت "بابنوس" بالغثيان يتصعد في بدنها عبر معدتها ثم حلقها، هناك ما يخنقها ويبتلع صوت معاناتها في حشرجة واهنة، وعرق غزير يتصبب من ذراعيها ووجهها، تحس بنقاط عرقها تتمشى بين خصلات شعرها مثل حشرات صغيرة، تسيل في المجاري التي رسمتها مسائر شعرها الممشوطة، تسيل وتنساب باردة، ثم ينساح العرق دافئاً مثل خيط مائع على طول عمودها الفقري، تهزها قشعريرة مصحوبة بغيبوبة طفيفة، تغمض عينيها وتفتح فاها، ثم حين ترفع جفينها مجدداً وهي تغالب لحظة الوهن، يقع ناظراها على ذراع الأبيض مجدداً، تبدو مشدودة، ليست باهتة جداً كما قدرت منذ ثوان، تنفر أوردته وشرايينه في عروق زرق مشدودة ومفتولة كحبل غليظ، واليد مغطاة بالشعر، شعر أشقر، زغب متلفلف بين الأوردة، كما لو كان شعراً محترقاً، كيف يكون شعر الجسد أشقر؟ مثل نفو منتوف.

عاودت النظر إلى الكوة الصغيرة دائخة، رأت الماء تحتها داكناً بعيداً، غائراً مثل بئر، تتلاطم أمواجه البعيدة؛ ينفث زبداً مثل رغوة الحليب، يلمع وينطفئ مكسراً الضوء بين طياته، مزغللاً ناظريها في ألوانه

وخفي غضبه، دار رأسها وصدمتها رائحة ماء مالح، مجدداً سمعت الصوت نقياً واضحاً:

- *بابَنوس.. بابَنوس..*

هناك في البعيد، في البحر المجهول، وراء الأفق، هناك من يعرفها باسمها، فهل تفرح! فرحت لوهلة خاطفة؛ ثم ذعرت، ماذا لو كان هذا صوت الموت يناديها!

تجددت دوختها وهزتها اليد الغليظة البيضاء المشْعرة، فتدلى رأسها إلى صدرها، وانطوى وسطها في مقعدها الضيق المربوط فصارت مثل جنين، تشبثت بكفها الطليقة بلوح بلاستيكي على ظهر الكرسي الذي أمامها، ولأنها اختنقت بالقيء الذي اجتاز حنجرتها، والدوار الذي أرخى جسدها بالكامل في حبسها الصغير بين المقعدين، فقد فقدت رعبها سريعاً وحل محله استسلام تام، للموت، للحياة، للقيء، كأنها أدركت لوهلة أن هذا صوت جدّتها "رحمة" المخطوفة التي لم تعرفها بتاتاً، قادماً من البحر عابراً الزمن ليواسيها، انفلتت معدتها في شلال سائل رخو أصفر فقير انفلش على قدميها وحَوْلها وفوق الذراع البيضاء المعشوشبة. سحب "ألكسندر" ذراعه شاتماً بالفرنسية:

- *ميرد.. ميرد.*

لطخ القيءُ ذراعَهُ التي سندَتْ جسدها المتهاوي، فمسحها في ثوبها، ومررها بغلظة في منتصف ظهرها كمن يعاقبها. انتهت غائبة عن الوعي خائرة على ركبتيها، وقبض الفرنسي بكفه على منتصف رأسها، شد غاضباً مسائر شعرها المجدلة الكثيرة، ودق خاصرتها بكوعه، شعرت بالضربة الموجعة رغم غيبوبتها، قبل أن يصيح منادياً مضيفة الطائرة، مخيفاً الأطفال المضمدين بشتائم الغضب، راسماً في العيون السود المحيطة به هلعاً وترقباً.

راحت الطائرة تهبط.

"عاج وأبنوس"

تفلّت الصغار من أحزمة المقاعد؛ وتدافعوا في الممر الضيق بوجوه مرهَقة وأطراف سوداء شابها اصفرار، فيما حرك أحشاءهم غثيانٌ طفيف لدى هبوط الطائرة.

حاولت الشقراء "أولمب" تنظيم صفوفهم وهي تصيح بلهجة سودانية عربية ركيكة:

- *بالراهة.. بالراهة*(*)..

وقف "ألكسندر" ممشوقاً ضخماً طويلاً مهاباً؛ يمط ذراعيه إلى الأعلى، فاتحاً في السقف صندوقاً. أخرج حقيبته وسحب أحزمتها ممرراً كتفيه عبرها لتستقر وراء ظهره. بالعربية الركيكة نفسها؛ صاح بـ "بابَنوس" وهي تمسح صدرها وذراعها مما علق من قيء:

- *كوم. كوم بت*.

لم تتجاوب مع ندائه وقد غيب الدوران إدراكها السليم بالحركة المحيطة بها، لكنها بعد لحظات تنبهت إلى حراك الصغار المتدفقين في ممشى الطائرة، فانقشعت دوختها وحدقت فرِحة هاتفة:

- *آدمو*.

اصطفّ "آدمو" وراء الأطفال الذين يتقدمون في الممر، انفرجت أساريره مبتهجاً لرؤيتها، مد ذراعيه وكذلك هي؛ فتلاقيا، تعانقا معيقين

(*) بهدوء

اندفاع الصغار، تحسس ذراعها مندهشاً فقد نسي لوهلة زيف ضمادتها كما "جبس" قدمه، خُيّل إليه أنها مصابة حقاً، ومالت نحوه متعاطفة تسنده بكتفها وهو يعرج قاطَعين ممر الطائرة.

هبطت الطائرة في مدرج مطار "رانس فاتري" الفرنسي؛ وفُتح بابها. انتبهت "بابَنوس" في أعلى السلّم المعلّق بالطائرة إلى أنها ما زالت ترتدي رداء طبيبة "أطباء بلا حدود"، وأن قماشه خفيف لا يقيها لسع الريح الباردة المندفعة في الفضاء المفتوح. التصقت بـ "آدمو" يداريان هجوم صقيع مفاجئ.

نظمت "أولمب" الصغار المرتجفين في صف، وأعطت كل واحد منهم صورته التي يبدو فيها مبتسماً ليرفعها فوق رأسه. تختلف الصور قليلاً عن أصحابها، وجوه ضاحكة وأسنان بيض على الورق المقوّى؛ لا تشبه الوجوه المنكسرة المتعبة لأصحابها المرتعشين برداً.

لم يحْظَ "آدمو" و"بابَنوس" بصور مماثلة، فقد التحقا بالمرحَّلين متأخرين، ولم يتسع الوقت لالتقاط صورتيهما وطبعهما على الورق اللامع، ولم تطلهما اجراءات الترحيل وصفقات التسليم التي خضع لها بقية الأطفال المرحَّلين، كما لو أنهما وقعا بالقرعة من نصيب "ألكسندر" الذي لم يفارقهما بتاتاً منذ لحظة الهبوط، بدا مسؤولاً عن حراكهما وحده؛ يتبعان له بصورة غامضة. مع ذلك؛ لم يتنبه لارتجافهما جراء البرد القارس كما فعلت "أولمب" مع الصغار وقد دثرت كتف كلّ منهم ببطانية ثقيلة.

مضى صف الأطفال السود المضمَّدين وراءها.

تنازعَ ضوءُ الشمس الباهت وعتمةُ الهواء الأفقَ حولهم، وغمرهم ظِلّ شهر أيلول الرمادي الذي لم يعرفوه تحت الشمس الإفريقية، طأطأوا رؤوسهم يتلافون تياراً هوائياً يسفع وجوههم بصقيع أصابهم بالذعر،

بالكاد ساعدتهم دثارات "أولمب" على أكتافهم، ارتجفوا وهم يعانقون أجسادهم بسواعدهم ويسرعون خطواتهم علّهم يحصلون على دفء يرفع الوخز الذي استشرى في عظامهم، أخرجت "أولمب" من حقيبتها قبعة رياضية بيضاء نُقشت باسم جمعية "قوس الحياة"؛ فاعتمرتها. كذلك فعل "ألكسندر"، وتقدما غير آبهين بالبرد، يقودان الركب نحو الكاميرات التي ومضت فلاشاتها في النهار الرمادي.

اندفع الصحافيون والمصورون نحوهم، استقطبت "أولمب" اهتمامهم أولاً بجسدها الرشيق ووجهها المنمنم الجميل، تحدثت بحماسة وحبور ولغة موسقة أمام ميكروفونات التسجيل الصغيرة وقبالة العدسات التي تومض وتنطفئ، ثم تفرق الصاحفيون يسألون "ألكسندر" تارة أو قائد الطائرة الذي ترجّل برفقتهما، قبل أن يتلاشى هدير الطائرة تماماً؛ رجحت "بابَنوس" أنهم يتحدثون الفرنسية.

قرفص عدد من المصورين وابتسموا للصغار وهم يلتقطون لهم صوراً قريبة تعكس ذهولهم، حين ساروا بعض خطوات شاهدت "بابَنوس" بوضوح الرسم المشرق الذي سبق لها رؤيته في مدخل المخيم على الحدود السودانية التشادية، شمس ملتهبة بألوان كثيفة تنثني كما قوس أو خيمة، تحتها رجل أسود مخفيّ الملامح يرفع ظلاً لطفل أسود. شاهدت الرسمَ صورةً واسعة على لافتة قماشية رفعها رجلان على أعواد في الميمنة والميسرة، هرول تحتها عشرات النسوة والرجال متقدمين يرتدون "فانلات" بيضاء وعلى صدورهم طُبع الرسم الملون نفسه، رفع بعضهم لافتات أصغر خطت بأحرف لاتينية، حاول "آدمو" تهجّي الحروف، فلم يتعرف عِليها صراحة، حدس معناها من دون يقين، وهو يقاربها إلى الإنكليزية التي علّمته إياها "فاطمة" في مدرسة الضعين.

رفعت العائلات الفرنسية السعيدة صور الأطفال القادمين إلى جانب اللافتات التي حملت عبارات: (sauver les enfants du darfour) و(Adoptes les enfants du darfour).

"أنقذوا أطفال دارفور"، "تبنّوا أطفال دارفور".

وقف الجمع مباشرة مواجهاً صَفّ الصغار. في اللحظات الأولى؛ تعذّر على أزواج الشبان والشابات الفرنسيين الذين ابتاعوا الصغار التعرف على من سيصيرون أبناءً لهم، بدا الأفارقة السود متشابهين كما تتشابه الأرانب. كلهم سود؛ يرتعشون ويبتسمون الابتسامة المذهولة الخائفة نفسها، ويحملون الأنف المفرطح نفسه، والعيون الواسعة المسكونة بالدهشة ورعب لا يفصح.

لكنهم بعد تدقيق وعبر مقاربة الصور التي زُوّدوا بها مسبقاً لأطفالهم المفترضين، وتلك التي يحملها الصغار فوق رؤوسهم، تعرفوا على أهدافهم. رفعوا الصغار المضمدة أطرافهم معانقين، وضحكوا لهم مطْلقين عليهم أسماءً محببة لا تشبه أسماءهم التي يعرفون، بكى بعض الفرنسيين فرحاً والكاميرات تدور في لحظة شديدة الانفعال والإنسانية.

اشتد الصقيع وطال الوقت والفرنسيون يتبادلون الأوراق اللازمة مستعجلين انتهاء المهمة، كان الأزواج الذين تبنوا الصغار قد دفعوا سلفاً ما يقارب خمسمائة ألف يورو في صفقة جماعية لقاء تلك اللحظة، وحدهما "آدمو" و"بابَنوس" لم تُستكمل إجراءات تسليمهما لأيّ جهة، وترُكا للمتطوع "ألكسندر" يفكر في مصير مختلف لهما؛ وضع يدر عليه ربحاً معقولاً.

تفرق الصغار برفقة أزواج من ذكر وأنثى حملوهم فرحين؛ ومضوا عابرين المدرج إلى سياراتهم التي احتلّت "الكراج" الموازي. ولأن "ألكسندر" قضى وقتاً يتهامس و"أولمب" الشقراء، فإنها لم تتنبه إلا

متأخرة للبرد الذي يعاني منه اليافعان "آدمو" و"بابَنوس". كان المصورون والصحافيون قد انصرفوا وراء العائلات السعيدة.. كما اختفى قائد الطائرة حين اجتازت سيارتان مدرج المطار وتوقفتا بمحاذاتهم. ألقت "أولمب" ببطانيتين فوق الكتفين المتجمدتين في حركة تعاطف أخيرة ثم غابت في مركبتها، وقادهما "ألكسندر" إلى المركبة الأخرى.

تلاصق الصغيران في خلفية السيارة التي قطعت منطقة "الميلي" مخترقة الضواحي الشرقية لباريس، أطبق ظلام الليل تماماً واندحرت محاولات الشمس الباهتة، انفلشت أضواء مغايرة تنبعث من مصادر منخفضة، تراقصت أنوار تمر سريعاً على نحو لم يعهداه، فبدت المسافة التي تجاوزت المائة كيلو نفقاً طويلاً مخيفاً مجهولاً لا يمكن التكهن بماهيته، ولا يمكن للعابرَين فيه العودة إلى الوراء كأن وراءهما سيل عارم.

ترجّل ثلاثتهم من السيارة في حي تروح الناس فيه وتجيء غير معنية بهم، لم يتمكن الولدان من رؤية الأشياء والبشر حولهما بوضوح في صراع العتمة والأنوار المتلألئة، وظلت "بابَنوس" ترمش خائفة من العمى التام في مواجهة الضوء الملون الذي يلعب في فضاء الليل.

في "الموتيل" القديم الذي أويا إليه، نفثت أغطية الأسرة الخشبية ووسائدها عبقاً زنخاً بعض الشيء، وقطع "ألكسندر" الضوء بضغطة واحدة على زر في الحائط، فغرق الاثنان في نومهما مجهدَين.

رأى "آدمو" في حلمه "ترترة" منبطحة يرغي حنكها بزبد كثير، واشْتَمّ رائحة شواء لحمها تنتشر في الهواء وتزكم الأنوف. ورأى أمه "حَوّا" في شد وجذب مع "الجنجويد" وهم يمزقون ثوبها ويدفعونها إلى قطية "تاجوج" فيحدث صراخها صدى لا يبارح الحلم. في زاوية أخرى من حلمه رأى رجالاً بيضاً بأذرع كالأفاعي يحشرونه في جحر الأفعى "أم نوام"، ساخرين من زرقة عينيه وحالك بشرته.

ورأت "بابَنوس" في حلمها جدتها "رحمة" التي لا تعرفها واقفة تحت أغصان شجرة الموتى تلوح لها، لم تكن بيضاء كما قالوا، أشاحت بوجهها عنها كأنها تخافها، فتلبستها بقوة غامضة، حتى لم تعد تميز بين جسد الجدة ودمها المراق بين فخذيها. رأت أنها تركض عبثاً، والحكّامة تنقلب من أعلى الشاحنة أرضاً، يتدحرج جسدها ويتعفر ثوبها الترابي بعجاج الأرض؛ ويتعالق وقدميها المتشنجتين في الهواء. وتواصل "بابَنوس" ركضها، عبثاً؛ لا تصل.

سيرى الفتى والصبية هذه الكوابيس في أحلامهما مرات عديدة، كآخر ما علق في الذاكرة من أرض السودان التي لن يتسنى لهما رؤيتها مجدداً؛ وإلى الأبد.

تنقّل "ألكسندر" ببضاعته في ضواحي باريس الشرقية القريبة من المطار، زار أكثر من "موتيل" وشقة مفروشة؛ ليقايض فيها القوادات مالكات بيوت الدعارة.

لوت النسوة المحنكات شفاههن رافضات، اشتكين كساد أحوالهن، ونصحنه بارتياد شمال المدينة أو منطقة الغابات حيث يكثر الطلب على الخلاسيين والسود، إذ إن جُلّ العاملات في بيوتهن من الأوروبيات، مزاج زبائنهن يتطلب بيضاوات بلا أرداف، كما يقل لديهن الطلب على الذكور.

في كل الأحوال؛ كن يخشين التورط بمشاكل طفلين أسودين مسلمين عذراوين، أو التعامل مع بضاعة مهربة لا سند قانونياً لدخولها البلاد، خاصة أن وزير الداخلية الصارم الذي سن القوانين لملاحقتهن، غلّظَ ساعده؛ إذ صار رئيساً للوزراء منذ أشهر، وباتت يده تصل إلى أبعد مدى، وراحت الحكومة تلاحق القوادين والسماسرة الذين يخالفون القانون بتشغيل الأجنبيات ودعارة الشوارع الحرة، أو يمارسون المهنة من دون تصريح.

قدم "ألكسندر" تنازلات في السعر الذي طلبه لقاء بيع الشاب والفتاة، إلا أن القوادات ومالكات دور الدعارة فضّلن الابتعاد عن المشاكل.

تحاول باريس لملمة ظاهرة الرذيلة فيها، وتقنينها، والحد من آثارها، في إجراءات وصفها وزير الداخلية بعملية تنظيف حارات فرنسا من نفايات المجتمع.

طارد قانون "ساركوزي" نسوة الشوارع والقوادين، فمنع تسكع المومسات المبتدئات واللواتي هرمن بحثاً عن زبائن عابرين، وترصّدَ القوادين الذين يكثرون في المقاهي السياحية ومراكز التسوق، معرّضاً المخالفين للحبس بما لا يقل عن ستة أشهر، إضافة إلى دفع غرامة تبلغ ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين يورو. وهو مبلغ لم يكن "ألكسندر" مستعداً للمجازفة بخسارته، خاصة أن حصته من صفقة ترحيل الأطفال لم تكن مجزية، فالستمائة يورو –وهي ثمن الطفل الواحد ممن اقتنتهم العائلات– دُفعت في أوجه كثيرة وتوزعت بين أطراف عدة، مما جعله لا يأمل الربح من تلك الرحلة التجريبية، ويطمح إلى تعويض جهده ببيع الفتى وأخته، كما يعتقد أنه تعلم جيداً كي يصير أكثر حصافة ومهارة في الرحلة القادمة في أكتوبر إذ ينقلون عدداً أوفر من البضاعة البشرية السوداء.

ابتاع للولدين ثياباً مناسبة للبرد، وأطعمهما وجبتين في النهار؛ ليغالبا الإرهاق على محياهما، ويستعيدا حيويتهما. لكنه بعد أسبوعين لم يفلح ببيعهما، واستثقل عبء اصطحابهما في تنقلاته، خاصة أن موعد الرحلة التالية اقترب، وصار لزاماً عليه العودة إلى "دارفور"، كانت البطاقة التي أعطته إياها "أولمب" بصيص الأمل الأخير وفيها اسم امرأة موثوقة في حي "بيجال".

سار الولدان بشيء من الألفة في الحي الواقع في الدائرة الثامنة عشرة في وسط "باريس"، فهناك روائح إفريقية تنبعث من الممرات الضيقة،

وفوق بعض المحلات لافتات تحمل حروفاً عربية شوهاء الخطوط، لم يتمكنا من قراءتها بوضوح، فذاكرتهما مختلّة ينمحي خزينها رويداً رويداً.

ابتسما لـ "فلاش" الكاميرا الذي سلطه مصور على وجهيهما على غير العادة وهما يقفان في محاذاة نافورة مقابلة لملهى "لي مولان روج"، نزلا من القطار الصغير في الشارع فخطفت أنظارهما لافتاتٌ مضيئة تلمع وتنطفئ بانتظام معلنة عن بضائع الجنس، أعضاء مطاطية لينة وأخرى تعمل بالبطاريات وملابس كاشفة، أصفاد وسلاسل وكرابيج، وأفلام وصور فاضحة وعروض حية مثيرة. حضّهما "ألكسندر" على اللحاق به في الزقاق متفحصاً بطاقة تحمل العنوان، بينما اجتازا ذاهلَين نسوة معطرات تعرّين إلا من قليل رغم البرد، وتبرّجن حتى بدت وجوههن بلاستيكية. شد "ألكسندر" "بابَنوس" بجسم وأحد المارة يداعب مسائرها، كانت و"آدمو" قد فكا الجبائر الزائفة، وتعلّما كلمات فرنسية قليلة، بعد أن أمضيا أسبوعين برفقة الرجل الأشقر فارع الطول.

طلبت لهما المرأة اللطيفة التي تفحّصتهما مبتسمة كأسين من العصير الملون، راحا يشربانه متريثين وهما يصغيان بانتباه إلى الكلمات التي لا يتمكّنان من فهمها. كانت "أوسني" أمل "ألكسندر" الأخير في بيع بضاعته، لِما عُرف عنها من المجازفة، كأنها لا تعترف بالكساد الحاصل.

أسندت المرأة ذراعها إلى مسند الكرسي وتحدثت وهي ترمقهما في نظرات متوالية، استمع "ألكسندر" هازاً رأسه، ذمّت قانونَ الأمن الداخلي الذي فرضه "ساركوزي"، سمّته "قانون النفاق الاجتماعي"، فالنسوة اللواتي مُنعن من التسكع على أرصفة الشوارع والتقاط الزبائن تفرقن في الغابات القريبة، حيث الخطر كبير؛ والحماية مستحيلة. كما تدنّت أجورهن وغابت الرقابة الصحية فتحولن إلى مصدر للأمراض الخطيرة. كانت "أوسني" مقتنعة بالنظام المعتاد؛ وتعتقد أنه لا يمكن

للعاهرات العمل من دون مؤسسة تضم السماسرة والقوادين الذين يدفعون الضرائب بانتظام كأيّ مهنة معتبَرة في المجتمع الفرنسي.

خلا وجه المرأة الأربعينية "أوسني" من المساحيق الملونة التي لاحظت "بابَنوس" كثافتها في وجوه النسوة العابرات، إلا أنها ساومت "ألكسندر" بلطف وبراعة تاجرة مدركة لمحنته واستعجاله الرحيل وإتمام الصفقة، عارفة ما يناسبها تماماً.

بمساومة محنكة عابت فتنة لون عيني "آدمو" الزرقاوين في وجهه حالك السواد؛ رجحت أنه ولد بلا خبرات، لا تعرف على وجه العموم إن كان يمكن استخدامه كذكر يفترع النساء، أم تركه للرجال الذين يبحثون عن الصبيان؛ ناهيك من أنها لا تتعامل مع الصبيان عموماً، ولا تميل في بيتها إلى الدعارة المثلية، وهو مبدأ حافظت عليه لتميز خدماتها ووسمها بالرقي. لهذا، تذمرت بأنها لو ابتاعت الصبي ستكون ملزمة بترحيله إلى دار أخرى تفيد منه، بينما تحافظ هي على سمعة دارها الراقية وسيرتها، كما أن وجود شقيقين في دار واحدة غالباً ما يتسبّب بالمشاكل العاطفية والاصطفافات المزعجة والمؤامرات التي لا تحبذها.

أبدت "أوسني" مخاوفها من ديانة الشابة والفتى التي قد تقود إلى مشاكل هي في غنى عنها، إذ يصعب ترويض المسلمات الصغيرات اللواتي يقعن في حمأة الاكتئاب عندما يُرغمن على ممارسة الجنس مع زبائن كثر؛ خشية العقاب الإلهي، كما يقعن في الحب بسهولة، وقد يهربن أو يتمردن أو ينتحرن، مما يعني خسارة بضاعة ومال وجهد ووقت.

صوّرت السيدة شراء الإفريقيّين اللذين لا يتمتعان بوجود قانوني في البلاد على أنها مجازفة ومغامرة خطيرة في جوانبها المختلفة. سخرت وضحكت وهي تساءل "ألكسندر" كيف لم يجد لهما عائلة تتبناهما رغم شغف الفرنسيين بتبني السود بعد أن تعطلت خصوبتهم وتراجعت أعداد

الأطفال في باريس! هز "ألكسندر" رأسه ونفث الهواء بين شفتيه مصدراً صوتاً مستهيناً، شتم العائلات التي لا ترغب بالأطفال الكبار، مؤكداً أنهم بضاعة القوادين المثلى، وأن عليها اغتنام الفرصة. ناقشها بتحايل مشيراً إلى أن معظم العاملات في بيوت الدعارة هن من المقيمات بصورة مخالفة، وهو أمر لن يعجزها ترتيبه وجعله سهلاً قانونياً بما لديها من نفوذ، اقترح أن يعمل الفتى حارساً للبنات بساعديه مفتوليّ العضلات، أو يباع بربح وفير. أما الفتاة فهي أصغر من أن تلتزم بتعاليم دينها، يمكن ترويضها بسهولة لدى امرأة خبيرة مثل "أوسني"، عدا أن للعذرية ثمناً لا يجهله في عالم الدعارة.

لم تكن "أوسني" لينة في مفاوضاتها رغم هدوئها الظاهر ولطفها وضحكاتها المجاملة، احتملها "ألكسندر" كطوق نجاة أخير. حاول كلاهما معاينة جسد "بابَنوس"، فتشبثت بقميصها وبنطالها والجاكيت الذي ابتاعه لها "ألكسندر" لتشبه نسوة باريس إذا مرت في شوارعها، حدقت فزعة في وجه "آدمو" ثم انكسرت نظراتها حياءً، بدت مستعدة للموت على أن تتعرى أمام ناظريه.

أخرجا الفتى من الحجرة ليتمكنا من مسايستها بلطف، واكتفيا بكشف أولي سريع وسطحي، فقد بكت الفتاة جائحة متفلّتة من كفيهما، دب الذعر حين قفزت قفزات عالية كقطة برية أصابها التوحش والجنون.

تظاهرت "أوسني" أنها لم تُعْجَب بالردفين الصلبين والنهدين المنتصبين والخصر الدقيق والفخذين المكتنزين، مررت إبهامها فوق خشونة جرح كتف "بابَنوس" الذي أصابها حين مرت بمحاذاة القطية يوم حرق الخَرْبَقَة، مع وجع ملامسة الجرح عادت الذكريات دافقة حارقة، فصاحت البنت مجدداً مثل ممسوسة وقفزت ضاربةً الباب بكفيها بقوة، ابتعد كلاهما

ليتيحا لها أن تهدأ وترخي ثيابها فوق جسدها محتميةً بزاوية الحجرة مثل لبؤة محاصَرة.

قالت "أوسني":

- *في جسد الفتاة خدش يقلل ثمنها.*

هز "ألكسندر" رأسه معترضاً، لكنه في نهاية النهار، عقد صفقة بدت له معقولة حين باع "بابَنوس" بستة آلاف يورو، و"آدمو" بأربعة آلاف.

صار جاهزاً للعودة إلى "دارفور" لمرافقة الشحنة التالية.

* * *

تدير "أوسني" أعمالها بنجاح منذ أعوام، وقد انتقلت من خانة العاملات إلى صفّ صاحبات الأعمال قبل أن تداهمها بوادر شيخوخة بالكاد تُلْحَظ، لكنها كافية لتعلم المومس أن قد أفل مجدها. تبدو "أوسني" للناظر إليها من الخلف دمية رشيقة بمؤخرتها اللطيفة وقدميها الصغيرتين؛ فتية يافعة، فإذا ما استدارت انكشفت في وجهها الناضج المليح إشارات طفيفة على تقدم العمر، تغضّن جلد صدرها البارز من فتحة "الديكولتيه" بدرجة لا تكاد تلحظ، كما لو كان ممتلئاً فقدَ رواءه وتهدّل، مع ذلك أثبتت "أوسني" أنها امرأة صلبة لم تستسلم لانهيار الأعمال الذي اجتاح باريس، بل راحت تخطط لتوسيع أعمالها ومقارعة رئيس الوزراء بجرأة تُحسَد عليها.

فاتنة ذكية، لم تفقد بساطتها ومرحها الريفي القديم الذي وُلدت معه في نشأتها الأولى، ولا تركيزها وأناقتها وخبثها الذي علّمتها إياه باريس المدينة، ولا دقّتها وهمّتها التي اكتسبتها لمعالجة مشاق مهنتها.

مع تناقص عشاقها وزبائنها، حولتهم إلى أصدقاء يعاشرون الفتيات الصغيرات اللواتي يعملن تحت حمايتها ورعايتها وفق إجراءات صارمة لا

تسمح لمرض "السيدا" وغيره من الأمراض الجنسية بالظهور في بيتها وبين فتياتها، تعرضهن لفحص طبي دوري، وتهتم بنفسها بتوفير إجراءات السلامة في الحمّامات وبصورة لائقة لا تصدم الزبون.

اكتفت "أوسني" لنفسها بعاشق كهل ثري واحد متيَّم بها؛ كان سياسياً لامعاً في شبابه، ولديه من الأسباب ما يجعله ناقماً على "ساركوزي"، راغباً في استفزازه، فقد ضمهما حزب واحد حين كانا عضوين في الاتحاد من أجل حركة شعبية، لكن عاشق "أوسني" بات يرى في رئيس الحزب القديم انزياحاً مضلِّلاً إلى أقصى اليمين، جعله أشبه بأتباع الجبهة الوطنية في خطابهم النازي.

بعيداً عن الهوية السياسية للكهل العاشق؛ تحسدها رفيقات المهنة على إخلاصه ومحبته ورعايته، وقد وافق مؤخراً على مساعدتها في تنمية تجارتها الرابحة من دون أن يكون شريكاً معلَناً، أراد أن يزعج خصمه عبر دعمه لمعشوقته، فوعدها بالخروج من الزقاق الضيق الذي تعفن بالماء إلى محل أوسع يرهج بالأنوار على ناصية فارهة في شارع "بيجال"، لم تطلب أكثر، وإن كانت تتمنى لو أنه يساعدها إلى الانتقال إلى شارع "الشانزلزيه" الشهير حيث رجال الأعمال وأثرياء العالم وعلية القوم من السائحين الشرقيين الكرماء الذين يفيضون نفطاً وذهباً، ويتحرقون لمعاشرة غوانيها الصغيرات المدربات، لكنها لم تطلب، فأجمل أمانيها يصعب تحقيقه في "الشانزلزيه" مهما فعلت، كانت تطمح إلى زيادة أرباحها وتميز بضائعها، بعرض أجمل فتياتها عاريةً مكشوفةً على الطريق في فاترينة زجاجية مضاءة مثلما يفعلون في "أمستردام"، ولأن القوانين الجديدة تلاحق العاملات بمهنتها وتضيق عليهن وتمنع عروض "الفاترينات" الزجاجية خاصة في الشارع السياحي "الشانزلزيه"، فقد لا تتمكن من تحقيق مطامحها إلا في "بيجال". ببعض الرشوة والعلاقاتِ المدفوعة فتياتٍ جميلاتٍ؛ يمكنهم غض البصر عنها.

صبرت "أوسني" على الفتاة التي نزفت دم حيضها مجدداً وأصيبت بانهيار عصبي حين أخذوا شقيقها.

اعتبرت "أوسني" الفتى صفقة حين ابتاعته بسعر بخس وأعادت بيعه بربح ألْفَي يورو، بيع "آدمو" لقواد ذكي فحصه بانتباه وقدّر إمكانية استخدامه حارساً شخصياً للعاهرات؛ ريثما يتقبل فكرة تسليم جسده للراغبين بالصبيان، ولعله بعضلاته الجميلة ولونه يكون مطلوباً للرجال الذين يرغبون بلعب دور الأنثى، قلّبَ القوّاد كل الاحتمالات وراهن أن تحقيق واحد منها يجعل من الفتى غنيمة، وقد يتمكن من إعداده لأداء تلك الأدوار مجتمعة.

ابتسم المشتري وربّت كتف "آدمو" متودداً وقال بعربية قلقة:

- *شالوم عيني*.

اصطحب "داود" الفتى "آدمو" وقد قبل نصيحة "أوسني" بعدم تغيير اسمه، فللاسم إيحاء لطيف قد يجلب له الراغبين، ضحك لفراستها ووعدها بتدبر ديكور محلها الجديد الذي تحلم بتزويده بـ "فاترينة" زجاجية. كما وعد بالعودة إليها إذا احتاجت إليه مترجماً يسهّل التفاهم مع فتاتها الإفريقية الجديدة.

"داود" عربي يهودي هاجرت عائلته من العراق إلى أرض الميعاد، وقد كبر في "أورشليم" على المقامات الحزينة التي يجود بها جده كل مساء بكلمات عربية تثير الشجن، كما أبكته آهات جدته وحكاياتها العاطفية وذكرياتها عن أرض الرافدين، استمع إلى خلافات جديه ووالده الذي اختار ارتداء الزي العسكري. تعلم شذراً من العربية من جديه، كما تعلم العبرية من والديه وفي مدرسته، وشعر بفصام حاد منذ الطفولة، لم يعرف مطلقاً إذا ما كان يهودياً إسرائيلياً أم عربياً عراقياً. كان من الممكن أن يتحول إلى واحد من العرب اليهود المعادين لاحتلال فلسطين رغم

أنهم يحتلونها، خشي أن يُحسب موقفه على دمه العربي، ويُطرد من فردوس "إسرائيل"، خاف السياسة مثل خوفه من العفاريت، وأسعفته فرنسا حين صفحت عن هويته المخاتلة، وخبأته في مواخيرها.

جاءها طالباً للدارسة، هَجَرَ تبلبلَ لسانه بين العربية والعبرية إلى الفرنسية، طلّق هويته المخاتلة، وتحول إلى فرنسي.

ساعدته سمرته الدافئة على احتراف مهمة تسلية العجائز والتقاط السائحات الوحيدات، وبحساب دقيق تمكّن من عقد شبكة اتصالات واسعة، وأكتشف أن الرجال أكثر طلباً للرجال، فأقام إمبراطورية تاجرت بالفتيان والشواذ، بات متخصصاً، كما أصدر صحيفة مثيرة مصورة تدر عليه أرباحاً لا تصدّق، وأنشأ موقعاً إلكترونياً خاصاً يدخله آلاف القراء كل يوم، يستمتعون بصوره وأفلامه الإباحية، ويجدون عبره طريقهم إلى فتيانه، وقد جمعته بـ "أوسيني" رفقة الكار وإعجابه بصلابتها وسعة أحلامها وطموحها، وميلها إلى معاملة المشتغلين معها بصبر وحنكة.

اختار "داود" مساعدتها في إعداد موقعها الجديد، لم تقلقه المنافسة، فبضاعتاهما مختلفتان، بل إنهما كمحترفين يكملان بعضهما بعضاً ويتعاونان، يقومان بتبادل الزبائن عندما يلمسان طلبهم لنكهةٍ مغايرة عما يقدم كل منهما، وقد أرسل إليها أحدَ زبائنه مطمئناً، وهو مهندس شاذ موهوب سيساعدها في هندسة ديكور المحل الذي تعده.

لـ "أوسني" الأنيقة الذكية نظريات تدير بها أعمالها، إحداها أن الإكثار من اللون الأحمر كما في البيوت الأخرى، مبتذَل ونمطيّ للغاية، تفضّل البرتقالي الذي يشحذ قدرات الزبون ويساعده على التركيز، أطلعها على سر هذا اللون زبون هندي منذ سنوات. كما لا تحبذ التعامل مع المشاكل المحبطة أو العنيفة، تفضّل فتيات جميلات رائقات يرغبن بالمهنة طواعية شغفاً بالجنس أو حباً بالمال، يقمن بعملهن بحرفية عالية بلا أيّ

متاعب، ذكيات، مثقفات، لا يكثرن من التبرج، لهن مظهر بنات المجتمع المخملي بحيث يصلحن مرافقاتٍ لكبار الشخصيات، مثل أجمل فتياتها "سابرينا" البوسنية.

معظم بناتها طالبات جامعيات أو أمهات معوزات، يغادرن بيتها بعد الحصول على شهادة أكاديمية أو عمل مجْزٍ، يتحولن إلى سيدات مجتمع فاضلات، تنساهن وينسين حقبة العمل في دارها في "بيجال"، تعدّهن موظفات استقلْنَ، لم يسبق لها أن ابتاعت غير البنت البوسنية لترافقها، وقد تورثها دارها، مع ذلك اقتنعت بشراء الصبية السمراء "بابَنوس"، إذ عرفت بخبرة نسوية حصيفة أن العذراء السوداء الصغيرة تمتلك مقومات لا توجد بين فتياتها، وأنها ستشكّل حالةً مميزة ونكهة مغايرة، لهذا الظن؛ صبرت عليها، واحتملت تقلباتها النفسية، هيجانها وزعيقها منادية الحكّامة و"ست النفر" و"آدمو"، ورفضها غسل جدائل شعرها الأكرت الملبّدة بالأوساخ والأتربة، واقتدارها الفذ على جوعها وعطشها؛ وتحطيمها الأواني الزجاجية التي يؤتى لها بالطعام فيها، احتملت احمرار عينيها كأن بها مرضاً خطيراً، حين تتسارع أنفاسها وترتعش أطرافها ثم تتجمد رغم تدفئة الحجرة التي أفرزت لمعالجتها، عدا سقوطها في الغيبوبة لأيام.

تعرف "أوسني" أعراض الانهيار العصبي، فقد اكتوت بوجعه وخبرته بنفسها في زمان بعيد.

عالجت الفتاةَ بإبر مهدّئة تساعدها على نوم كالموت، كما أذابت أقراص "الزيروكسات" في الماء الذي تدفعه البنات إلى جوفها رغماً عنها، لتغفو ليلتين متتاليتين، وتصحو مسترخية غير قادرة على التركيز فاقدة قدرتها على الصياح والبكاء والقفز عالياً.

خففت زيارات "داود" المتكررة توتر "بابَنوس" وامتصت خوفها تدريجياً، إذ يجلس على حافة سريرها يحدّثها بأحرف عربية خشنة تفهمها،

مواسياً مستلطفاً علّها تهدأ وتفارق جنونها المؤقت. تحدق بعينين متوسلتين متذكّرة أنها رأت "آدمو" آخر مرة برفقته. يعدها كذباً إذا تحاملت على وجعها وباتت عاقلة متماسكة، باصطحابها إلى شقيقها في محله في شارع "سانت ديني" القريب.

تباعدت حالات الهيجان والصراخ، وفارقتها الغيبوبة تدريجياً مع العلاج، فإذا ما نامت قامت البنات بتدليكها بزيت المساج المطري "ل اورييال" المشبع بعطر "اللافندر".

انطفأت نيران الغضب، وتباعدت الكوابيس، وانكسرت الروح في فراغ مبهم. كان رأسها يثقل وصور عقلها تتشقق، في حين يلين جسدها وتلتمع بشرتها متهيئة كبضاعة فاخرة.

على فترات متباعدة، يهاجمها كابوس من الماضي وتضربها الحمى فجأة فتهذي لأيام، حينها يوشك صبر "أوسني" على النفاذ متشككة في إمكانية الإفادة من إفريقيتها الصغيرة.

تغيرت "بابَنوس"، حدث شيء جلل حَوّلها إلى مخلوقة بليدة، لا تركض في التراب، ولا في الأحلام، لا تضحك إلا خلسة حين تتراسم و"سابرينا".

انتابها وعي طفيف، تساءلت: لماذا أنا هنا؟ ماذا أفعل مع هؤلاء؟ لا أحب ملابسي، ولا قَصّة شعري، ولا رائحتي. أين "آدمو"؟ لا أتذكر ذاتي إلا برؤيته، كأننا صرنا آدمياً وظله.

حاولت "بابَنوس" التركيز أكثر على فكرتها فتتبددت المشاهد أمامها، ووقعت فريسة لضعف مبهَم.

في نوبة الحمّى رفعت ذراعها، ومررت سبابتها فوق اليد اللامعة المشرقة التي انحنت صاحبتها نحوها مبدلةً الكمادة الباردة فوق جبينها، رأت "بابَنوس" في أيامها الأخيرة نساءً ورجالاً بيضاً كثراً، ولكن هذه اليد

تحديداً بدت حانية ومألوفة تشع ضوءاً ناعماً، حين لمست إصبعُها السوداء الزندَ الأبيض ومضت الذكرى كأنها حلم، رأت في مخيلتها تمثال "أبَّكر" العبقري، المرأتين اللتين أسندتا ظهريهما متلاصقتين، امرأة الأبنوس وامرأة العاج.

أفرحتها الزرقة الخرزية لعيني البنت، تلك التي تذكّر بلمعان عيني "آدمو"، ابتسمت للبيضاء المنيرة التي تبدل كماداتها، أرادت منحها اسماً يتناسب وفتنتها، همست بشفتين جافتين وصوت متحشرج:

- *عاج.*

قفزت تلك وقد خُيّل إليها أن الإفريقية طلبت ماءً، عادت مسرعة بكوب من الماء، وآخر من البرتقال، أسندت الرأس الذي صار كتلة خشنة، حايلتها بلغة لم تفهمها على تبليل شفتيها بالماء ثم شرب البرتقال.

أدركت "أوسني" أن شقراءها الفاتنة البوسنية "سابرينا" مفتاح جيد لتجتاز "بابَنوس" محنتها.

الحسناء البوسنية "سابرينا" في الثامنة عشرة من عمرها، ثمرة مغوية ناضجة كما لو كانت في الثلاثين، تتوهج كجوهرة، لا يمكن العثور في جسدها وملامح وجهها النضرة البريئة على عيب خلقي، تبدو بطولها الفارع وجسدها الرشيق المتناسق وشعرها المنسدل كسبائب الذهب آلهة للجمال، عرفت "أوسني" من النظرة الأولى أن هذه بضاعة لا تقدَّر بثمن، اكتمال الجمال البلقاني النموذجي. وصلتها الشابة قبل عامين وقد نالت تدريباً معقولاً يجعلها سلسة منقادة، وإن كان عليها تهيئتها لتكون مرافقة لكبار الشخصيات من رجال الأعمال الذين يعانون الوحدة.

استبشرت "أوسني" بتلك الرفقة التي بدأت تنسج بين الصبيتين على اختلاف لغتيهما، وحين فسر لها "داود" الكلمة التي سمت "بابَنوس" بها

رفيقتها الشقراء، ضحكت بحبور، أعجبتها المقاربة الفنية بين بياض بشرة الفتاة وتحفة العاج الثمينة، وظنت أنها بصدد الوصول إلى حل معجز، يمكنها تسمية البوسنية "آيفوري"، ليماثل الاسم لونها الوردي وذلك الضياء الخلاب الذي تتمتع الفتاة به، ولكن لفظة "عاج" العربية تبدو أقرب إلى التسليع التجاري، سيكون لديها تحفتان لا مثيل لهما: عاج وأبنوس.

حدثت "أوسني" المهندس العبقري الشاذ بحبور حول تسمية الفتاتين، بهره الأمر وراح يعيد تخطيط الماخور الجديد بمزاج رائق كأنه يعدّ معرضاً للتحفتين؛ البيضاء والسوداء.

قررت "أوسني" افتتاح المقر الجديد بداية الصيف حين يكثر السائحون وتنتعش الأعمال التي تتخذ من الأجساد تجارة لها. اقترح المهندس الفنان إضافة اللونين الأسود والأبيض الرخامي إلى البرتقالي الذي يميز ديكورات المحل، طالباً أن يكون تخطيطه مفاجأة يقدمها لـ "أوسني" في وقتها.

"أوسني" واحدة من النسوة صعبات المراس والإرضاء، لا تستسلم بسهولة، وهي مصرّة على تحقيق حلمها بدار راقية تعرض أجمل تحفتين فيها عبر "فاترينة مضيئة"، ولا يمكن لـ "ساركوزي" المنافق التعرض لها حتى لو كان رئيساً للوزراء، فلها قنواتها ومواطن قوتها.

تمكّنت "سابرينا" من غسل رأس "بابَنوس" برضاها، وسكبت فوق الشعر الأشعث كمية كبيرة من مطرّي الشعر، وجدلته وإن لم تُجِد المهمة كما يجب، لكنها وقد أصبحت مكلّفة باستعادة الفتاة الإفريقية لعافيتها؛ بذلت جهداً كبيراً على الرغم من اختلاف اللغة وتعثّر التواصل، لم تعد الإفريقية ترمقها بنظرات الذعر أو تنفر إذا اقتربت، بل باتت تمازحها بضحكات مقتضبة خجولة وهي تلصق ذراعها السوداء بالذراع البيضاء،

عثرت الصبيتان على طريقة تضحكهما معاً وتفضي إلى تفاهمهما وتقيم نوعاً من الصداقة التي بدأت خجولة ثم تعمقت.

تعلمتا كيف تتواصلان من دون عناء، وبكثير من المرح، تترجم كل واحدة منهما الكلمات التي تود نقلها لصاحبتها برسمها على الورق، خصصتا دفترين لهذا الشأن، دفتراً للطعام وآخرَ للحكايات.. الأول علني والآخر سرّي.

ضحكت "أوسني" حين اطّلعت على دفتر الطعام، هناك رسم دقيق للتفاحة خَطّته "سابرينا" الموهوبة، ورسم مرتبك بدائي للماء يتدفق من جذع شجرة؛ خَطّته الإفريقية، يمكن تمييز خطوط كل منهما، أشجار وفاكهة ولحوم، بعضها قطع مبهمة والأخرى تبدو كما لو كانت دجاجة مجمدة، تحت الرسوم أحرف عربية وكلمات تسمّي الأشياء، وأحرف لاتينية تجاورها. لم تعد "بابَنوس" تطلب الويكة أو العصيدة إذ مهما رسمت لن يفهم أحد، وستكتفي بضرب رأس رفيقتها بلطف ضاحكةً كأنها تتهمها بنقص الفهم.

أقبلت "بابَنوس" على رغيف الخبز الفرنسي الطويل الجاف الذي يقدّم لها لتلوكه مع قطع الجبن المنقورة، تعودت الطعم واستساغته، كما تلذذت بطراوة حبة الفراولة، وضحكت لبعض شروح "سابرينا" حول طعام لم تميزه.

حرصت الفتاتان على إخفاء الدفتر السري عن عيون "أوسني"، فقد رسمت فيه "سابرينا" نساء يفتحن أرجلهن لرجال عراة، وأشارت إلى صدرها ثم إلى "بابَنوس"، فهمت "بابَنوس" الإشارة فقفزت مستاءة صائحة:

- *أنا دنقري ما لعبتو، ما بلعب هسه قلة أدب.*

هجمت "سابرينا" على رفيقتها تخفف حدة هياجها وتكمم فمها وقد علا صوتها، لم تكن لتجازف بانكشاف أمر دفترهما الذي تضمّن

رسماً لبعض النقود، ثم حين أدركت "سابرينا" أن "بابَنوس" تعرف الأرقام وتجيد العَدّ؛ كتبت بعض الحسابات القليلة حول ما يمكن للفتاة أن تكسبه وما يذهب ضريبةً لمديرة المحل، ناهيك من الضريبة الحكومية.

جلست الفتاتان مثل أختين في السرير تتدربان على كتابة اسميهما بلغات عديدة، بالعربية والبوسنية والفرنسية، صححتا اعوجاج الحروف في كتابتهما معاً. شعرتا بالتقارب، وصمتت "سابرينا" لحظات تتذكّر؛ ثم ببطء رسمت في الدفتر رجلاً ضخماً يمسك بكفه كتف فتاة نحيلة تشبهها ويسلّمها لامرأة شقراء تشبه "أوسني" ويقبض بكفه الأخرى نقوداً.

ضربت "بابَنوس" رأسها ضربات متتالية وهي تدرك أن الأمر نفسه تكرر معها.

اكتظ الدفتر بصور المدينة أيضاً، رسمت "سابرينا" بنتاً سمراء تشبه صاحبتها الإفريقية تسير بمحاذاة مبنى في واجهته شفرات مروحة عالية، كان ذلك ملهى "المولان روج" الذي تعرفت عليه "بابَنوس" حين سارت قربه قبل ولوج المكان، والتقطت الصور على بابه برفقة "آدمو". رسمت "سابرينا" شارعاً فيه رجال كثيرون يرتدون أزياء متنوعة وقبعات يشدّون البنت السمراء من أطرافها. قالت كلاماً كثيراً كررت فيه لفظ "بوليس" وهي تلوح بإصبعها كما لو كانت تحذر، أدركت "بابَنوس" أن خروجها من المكان محفوف بالمخاطر. لكنها كانت تخاف أن تُقاد إلى فتح رجليها لغريب.

تطبق عليها كوابيس الخيارات الصعبة، تغمض عينيها محدّثة نفسها:

- *أنا ما هنا.. أنا ما هنا، لا، دي ما أنا.*

رسمت "بابَنوس" ساحة الخَرْبَقَة والقطاطي تشتعل، والرجال جاثين على ركبهم مخردقين بالرصاص ملوثين بالدم، والنسوة محاطات برجال بثياب عسكرية وقبعات وبنادق. كان رسمها ساذجاً بالقياس إلى رسم

"سابرينا" المتقَن، بالكاد يمكن تبيُّن الخطوط وفهم دلالاتها، أمسكته "سابرينا" مطولاً تفك رموزه، ثم انخرطت بالبكاء وقد فهمتْ.

كررت "بابَنوس" كلمتي "الخَرْبَقَة" و"دارفور" وهي ترسم قطاطي وشجرة وحفير الماء، كما رسمت الحكّامة جالسةً على عنقريب، وأمها أمام الموقد و"آدمو" يطعم "ترترة".

كررت "سابرينا" كلمة "سربرنيتشا" مرات كأنها تريد لصاحبتها حفظها، ثم خَطّتْ على الورق بيوتاً صغيرة بقرميد أحمر وأسيجة بنية، محاطة بشجر كثير أخضر، وماء يترقرق، ودجاجات تسرح، وامرأة تقطف عشباً، وطفلة بجدائل شقر تجري وراء فراشة ملونة.

ابتسمت الصبيتان بحبور، وأشارت الشقراء إلى الطفلة على الورق ثم إلى صدرها، هزت "بابَنوس" رأسها وقد فهمت، ولكنها أيضاً جاحتْ حين أعملتْ "سابرينا" قلمها في الرسمة الأنيقة، أضافت إليها رجالاً مسلّحين ونيراناً تشب في قرميد البيوت، ورجلاً يطعن امرأة العشب بسكين كبيرة، وآخر يشد الطفلة من كفّها. انهار العالم في الرسمة وبدا كما لو أنها صورت الجحيم.

أسرعت "سابرينا" إلى دس الدفتر تحت الوسائد حين سمعت صوت "أوسني" قادمة، وانصرفت إلى تهدئة "بابَنوس" وعناقها كي تستريح.

لا تتذكر "سابرينا" كثيراً من التفاصيل، كانت في الخامسة من عمرها حين نجت من مذبحة "سربرنيتشا" بكثير من الحظّ، تتذكّر النسوة اللواتي يغطين رؤوسهن ويَنُحْنَ، تتذكر الرجل الذي طعن أمها بمدية ثم ربطها بعربته وسحلها فوق الحصى والزرع وفي كفها حزمة أعشاب، بينما وقفت هي مختنقة صامتة كما لو كانت ريشة تنتظر أن ينفخها الله في الفضاء.

تتذكر أكثر كم كانت البلدة هادئة جميلة ترتادها الفراشات من الغابات المحيطة، وتتراكض في ساحتها دجاجات أمها، لا تذكر متى

اختفى والدها، ولكنها شاهدت رجال القرية يُقتادون إلى الغابات حيث كانت تلعب، وسمعت صوت الرصاص، لم يهدأ الصوت حتى بعد أن قام جند الصرب الذين ارتكبوا المذبحة في القرية البوسنية الصغيرة باصطحابها بعيداً، نامت في عربتهم رغم جوعها وخوفها، غلبها التعب وظلت الأصوات رفيقة نومها وخوفها السري الذي لا يفارقها وإن صارت رفيقة النبلاء وسريرة الرجال المتيَّمين بحسنها.

بات للفتاتين سرٌّ لم تفضحه واحدة منهن، سر يغلَقُ عليه غلاف دفترهما الذي تتواصلان عبره، أضافت إليه "سابرينا" صوراً كثيرة لوجوه رجال ونساء مروا على الصغيرة بعد فقد أبويها، من كان حانياً ومن كان يضربها بحزامه الجلدي؛ من كانت تأمرها بتنظف الحمامات، ومن كانت تحضُّها على جني النقود بفتح جسدها للرجال العابرين؛ من باع، ومن اشترى.

خجلت "بابَنوس" من رسومها لعالمها المثالي قبل الفاجعة، مدرسة الضعين تحت ظل الشجرة، وعرس "تاجوج"، والبنات اللواتي يحملن قرعات يفيض منها الماء عند الحفيرة، وامتطاء "ترترة"، و"آدمو" يصطاد ثعبانه، والحكّامة تضرب الدلوكة وتحزّرها: دخل القش ما قال كش.. يبقى شنو؟

أدركت أنها كانت في الفردوس، عاشت حياة هانئة سعيدة بالمقارنة بما وقع للشقراء "سابرينا" التي حاولت أن تشرح لها أن اسم "سابرينا" الذي علق بها لم يكن اسمها، ولكن اسم أمها الذي ظلت تصيح به، فظنوه يخصّها ونادوها به، أما اسمها الحقيقي فلم تعد تتذكره.

تختفي "سابرينا" لساعات، وتعود صامتة، لا تشرح ولا تفسر مكان غيابها، تطرحها مخيلة "بابَنوس" على الفراش تفتح فخذيها لأصحاب الخطوات الرزينة في ممر الدار، تتبادل الفتاتان النظرات صامتتين.

مع مجيء الشهر العربي "رمضان" يصوم المسلمون ويتحلّون العبادات ويتجنبون المعاصي، تنخفض نسبة الحراك في الدار وتقل أرباح العمل، إذ يخجل السائحون العرب من طرق أبواب دور الدعارة في هذا الموسم، يرتاد بيت "أوسني" حينها زبائن فرنسون كهول عافوا بيوتهم، ويرسل رجالُ الأعمال في طلب الرفيقات لموافاتهم في مكاتبهم وشققهم السرية.

لم تتعجل "أوسني" فتاتها الإفريقية وأنجزت العملَ الطفيف بـ "سابرينا" وأخريات يُطلبن عند الضرورة، لم تكن معنية بتفاصيل العمل قبل الانتهاء من ديكورات مقرها الجديد، كما انشغلت عن الفتاتين بالتصدي بشراسة لقانون الأمن الداخلي، كانت تصْعَد جادة "بيجال" مجتازة ساحة "بلاس داليدا "كل يوم مرتدية ثياباً وقورة لا تليق بمهنتها، تصل إلى منطقة "مونمارتر" العالية مارة بكنيسة "السكر كير"؛ القلب المقدس، ثم بالفنانين الذي يفترشون الرصيف على الجانبين حتى توافي التجمع اليومي لرفاق المهنة في "كافيه أنطوانيت".

يجلسون عشوائياً على المقاعد الخشبية، يشربون البيرة، ويتصايحون بأصوات عالية، تظن "أوسني" أن رفاق المهنة رجالاً ونساءً يفتقرون إلى التهذيب وأناقة العبارات، يبدو سلوكهم سوقياً، لكنها تجالسهم مجْبَرة.

كانوا قد توافقوا للتوّ على تأسيس جمعية تتصدى للقوانين المعادية للمهنة، يُبرزون عبرها أهمية مهنتهم في اجتذاب السياحة إلى البلاد، ومدى التزامهم كمواطنين صالحين بدفع الضرائب، في حين يتهرب الأثرياء وأصحاب الملايين من أداء حق مواطنتهم. اتهموا الرئيس بالعنصرية وبقهر فئات المستضعَفين منهم.

نبهوا إلى المخاطر التي تتهدد السلام الاجتماعي لو أن مهنتهم زالت من حياة "باريس". وهتفوا مبتهجين وهم يقررون تسمية الجمعية باسم "فرنسا الدعارة".

ناقشوا الإجراءت الرسمية لتسجيلها قانونياً حتى يكون لها سلطتها، وتوافقوا على أن تلعب "أوسني" فيها دور الاتصالات نظراً لما تتمتع به من نفوذ وحضور مقنع يبعث على الاحترام والجدية.

صفقوا حبوراً، ثم تلهّوا طلبت كوباً من "الكبتشينو" عندها مال "داود" نحوها برأسه، وهمس في أذنها يخبرها أنه بتساهله وعدم انتباهه لتحذيرها عند اقتناء الفتى المسلم الأسود ذي العينين الزرقاوين "آدمو"، فقدَهُ.

اجتاز الفتى شقته في شارع "سانت ديني" مندفعاً لشراء الحلوى التي تُعْرَض على الرصيف في رمضان، واختفى تماماً، لعله ولج أحد المساجد الثلاثة الواقعة على رصيف "فريبورج" المقابل.

أكدت "أوسني" بخبرتها العالية إمكانية استرجاع الفتى لو أنه دخل مسجد تنسيقية الباكستانيين؛ فهؤلاء لا يرغبون في المشاكل مع قوّادي الشارع المقابل، كما أن المشرفين على مسجد المركز الثقافي الإسلامي التركي لن يأووا عربياً أسودَ مجهولَ الهوية، لكنه سيتمكن من الفرار لو احتمى بمسجد عَلِيّ التابع لجماعة الدعوة والتبليغ، ولن تتفاجأ لو اشترك في عملية إرهابية في "مترو باريس" مثلاً.

صمت "داود" وهو يفكر بالبحث عن فتاه الهارب أو الضائع بين متشردي "مونمارتير" أو متسولي "نوتردام"، بينما راحت "أوسني" تناقش مع المجموعة خطط الجمعية.

رأت في الإجراءات القانونية التي سُنّت ضد مهنتهم العتيقة نقطة ضعف كبيرة إذا ما فُتحت دفاتر رئيس الوزراء واستعيدت سيرته، إذ تذكّره بما يحاول إنكاره ونسيانه من كونه ابناً لمهاجر عمل مرتزقاً في الجيش الفرنسي في "الجزائر" لقاء حصوله على الجنسية، وعاد سياسياً صلفاً عنصرياً ينكّل بالمهاجرين والمستضعَفين. كان زملاء المهنة أكثر قلقاً منها،

أصابهم الهلع على أرزاقهم، وصورة فرنسا التي يعرفون، أظهروا تأزماً وغضباً أحمق في نقاشهم، بينما كانت تحاول مع بعضهم إقناع السماسرة والقوادين ومالكات دور الدعارة بأن أنجع السبل تكون باللطف واللين والرشوة وشراء الرغبات من دون حاجة للّجوء إلى العنف الذي يفضّله بعضهم ويتداعون له. حاولت انتزاع اتفاق منهم والفوز بكلمة شرف تلزمهم؛ ولم تفلح.

في الأيام التي تلت تأسيس الجمعية حرقَ الذين اختاروا العنف مقارَّ الشرطة وأثاروا الشغب بالتظاهر وتكسير زجاجات الكحول على طريق السيارات العابرة، شككوا برغبة "أوسني" في المواجهة مع المسؤولين، بعضهم ظنّ أنها باعت قضيتهم لقاء تسهيلات ومزايا تنالها هي دون سواها، هكذا فسروا شبكة علاقاتها المميزة ودارها الجديدة التي انتهت من تأثيثها وزوّدتها بأسرّة وثيرة كما لو أنها في فندق فاخر فئة النجوم الخمس، أسرّة رحبة مغطاة بالملاءات البرتقالية، ومرايا في أسقف الغرف، وإضاءة خفيفة في الممرات، ولوحات مقلدة للوحات الفنان غوغان.

ظل "داود" على يقين بحسن نوايا "أوسني"، ووقف يساندها في مساعيها لتخفيف العنف والتوتر مع مجموعة تمنّت عليها أن تدير الأزمة بصورة عاقلة، انقسم أعضاء الجمعية الوليدة، وذهب كل طرف إلى ممارسة قناعاته، فهم لم يتعودوا التكاتف في مهنة تستعر فيها المنافسة ويُسمح فيها بكل وسائل الصراع.

خرجت التظاهرات السلمية شرارةً واهنة من "بلاس داليدا" في "بيجال"، وصعدت السلّم العالي لـ "مونمارتر"، فانتشرت بنات الليل صباحاً يرفعن اللافتات ويطالبن بحقوقهن كمواطنات صالحات يدفعن ضرائبهن بانتظام. تغيبت "أوسني" عن التظاهرة لتقود النقاش الدبلوماسي مع أطراف الحكومة، فاتها خروج التظاهر السلمي عن قواعده، وإحراق

مقر الشرطة في "سانت ديني"، ثم اندلاع عنف كبير وصل إلى حد اشتباك مع رجال الأمن، انتشر في باريس ثم اجتازها إلى مدن أخرى في "روان" و"نيس" و"ليل" و"تولوز" و"مارسيليا".

راح المجتمع الفرنسي يتفرج ضاحكاً على معركة الحكومة والعاهرات.

وحدها "أوسني" تصرفت كأن شيئاً لم يكن، ناوأت وتحدّت بطريقتها الخاصة، وتجرأت فطبعت بطاقات الدعوة لافتتاح مقرها، أرسلت بعضها لمعارفها الرسميين الذين تعرف أنهم لن يجازفوا بالحضور العلني، ولكن سيكون من المفيد أن يعرفوا أنها متوفرة عند اللزوم، تعود بانقضاء الشتاء الفرنسي إلى الساحة بحلة جديدة.

في ذلك المساء الصيفي الرائق، ارتدت "أوسني" ثوباً بلون حبات المشمش؛ غطّى تهُّدلَ صدرها بالكامل، مفتوحاً من الخلف حتى الخطّ الفاصل أعلى مؤخرتها، راهنت على فتنة مقفاها، وقلبت السلسلة الذهبية وقلب "الزركون" اللامع من صدرها إلى ظهرها، رفعت شعرها وتبرجت تبرجاً خفيفاً، بدت امرأة راقية نبيلة مشرقة تستقبل المهنئين كما نجمات السينما، أضفت البالونات البرتقالية التي شُدّت بخيوط متينة قبالة دارها الجديدة بهجةً على جادة الشارع، وتلألأت أحرف اسمها فوق اليافطة، لم يكن في الدار الأنيقة ما يشي بأيّ لمحة مبتذَلة، كما لو كانت معرضاً للفنون لا داراً للدعارة، ووقف المهندس فخوراً أمام المهنئين يتبادلون نخب الافتتاح في كؤوس الشمبانيا التي وُزعت عليهم في الشارع.

لحظتها؛ كان فتى أسود بعيون زرقاء تميل إلى الخضرة كأنه ساحر قادم من الحكايات، يلعّب الأفاعي برفقة بعض الغجر في ساحة كنيسة "نوتردام" في عرض لافت. وكان "ألكسندر" المتطوع في العمل الانساني، عضو الجمعية العالمية، يُقاد على درجات سلّم الطائرة في مطار "ابيش" التشادي مكبّل الكفّين محاطاً بالجند وقد قُبض عليه وانكشف أمره.

أما "أوسني"، فقد ابتسمت بدلال وزهو والمهندس يُسقط الغلالات عن النافذتين الزجاجيتين في افتتاح محل الدعارة، أُضيء ضوء حاد مثل الألعاب النارية، وانكشفت البنتان وراء الزجاج تقفان في وضعية جانبية تداريان عورتيهما، بينما تعرضان صدريهما على الجمهور السعيد، بدتا لوحتين من الفتنة والجمال.

وقفت "بابنوس" كأنها كنز إفريقي، عارية تماماً، بعينين ذاهلتين جراء إبرة التخدير، سوداء مغوية، بُطن قفصها الزجاجي من خلفها بغلالات "ساتان" حريري عاجي اللون، تجلّت ضوءاً أسود فجَّ من البياض.

كذلك كانت الصبية البوسنية "سابرينا"؛ فاتنة مثيرة وهي تنطعج بجسدها الرشيق وراء الزجاج المدثّر بمخمل أسود، نوراً ينبعث في العتمة.

بين النافذتين، أسفل قدمَيّ الفتاتين، ثُبتت لافتة خُطَّ فوقها بخط الثلث العربي كلمتان باللون الذهبي: عاج وأبنوس.

أسفل الكلمتين ترجمة فرنسية بالحروف اللاتينية:

Ivoire، ébène

سميحة خريس

صدر لها:

في مجال القصة القصيرة:

- "مع الأرض"، دار الأيام، الخرطوم، 1978.
- "أوركسترا"، دار الكندي، عمّان، 1996.
- "دومينو"، دار نارة للنشر والتوزيع، عمّان، 2009.

وفي سيرة المدن:

- "على جناح الطير"، دار الحوار، اللاذقية/سوريا، 2012

وفي مجال الرواية:

- "رحلتي"، دار الهيثم، بيروت، 1980.
- "المد"، دار الشروق، عمّان، 1990.
- "شجرة الفهود - تقاسيم الحياة"، دار الكرمل، عمّان، 1995 (حُولت إلى دراما إذاعية).
- "شجرة الفهود - تقاسيم العشق"، دار شرقيات، القاهرة، 1997 (حُولت إلى دراما إذاعية).
- "القرمية"، أمانة عمّان الكبرى، عمّان، 1999. ط 2، دار السنابل، القاهرة.

- "خشخاش"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000 (حُولت إلى دراما إذاعية). وأعادت الروائية كتابتها على شكل نص مسرحي بالاسم نفسه، دار نارة للنشر والتوزيع، عمّان، 2008.
- "الصحن"، دار أزمنة، عمّان، 2003 (ترجمتها "ماريا كرندوفر" إلى اللغة الألمانية، دار علاوي، كولن/ألمانيا، 2010).
- "دفاتر الطوفان"، أمانة عمّان الكبرى، عمّان، 2003. ط 2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2003 (ترجمها "بابلو جارسيا سوريز" إلى اللغة الإسبانية، دار دون كيشوت، مدريد/إسبانيا، 2005؛ وترجمها فؤاد العوض إلى اللغة الألمانية، دار علاوي، كولن/ألمانيا، 2009؛ وحُولت إلى دراما إذاعية ومسلسل تلفزيوني).
- "نارة.. إمبراطورية ورق"، دار نارة للنشر والتوزيع، عمّان، 2006.
- "نحن"، دار نارة للنشر والتوزيع، عمّان، 2008.
- الأعمال الروائية، أمانة عمّان الكبرى، عمّان، 2008.
- "الرقص مع الشيطان"، دار نارة للنشر والتوزيع، عمّان، 2009.
- "يحيى"، دار ثقافات والدار العربية للعلوم، بيروت، 2010 (نالت منحة من الصندوق العربي للثقافة والفنون، وترشحت لجائزة "بوكر" عام 2010، ووصلت إلى مرحلة التصفيات النهائية في جائزة الشيخ سلطان بن زايد
- "بابَنوس"، (نالت الكاتبة منحة من وزارة الثقافة، لإنجازها ضمن مشروع التفرغ الإبداعي الثقافي.

نالت عدداً من الجوائز من بينها:

- جائزة الدولة التشجعية في الآداب/الرواية، عن روايتها "شجرة الفهود"، 1997.

- جائزة أبو القاسم الشابي من تونس، عن روايتها "دفاتر الطوفان"، 2005.
- جائزة منتدى الفكر العربي/الإبداع الأدبي، عن مجمل إنتاجها، 2008.
- الجائزة الذهبية لأفضل عمل متكامل عن سيناريو "شجرة الفهود" من مهرجان الدارما بالقاهرة، 2003.
- الجائزة الفضّية عن سيناريو مسلسل "القرمية.. الليل والبيداء" من مهرجان الدراما بالقاهرة، 2007.

البريد الإلكتروني:

Khrais_samiha@yahoo. com

الموقع الإلكتروني للكاتبة:

www.samihakhrais.com

بابَنوس

سميحة خريس

▪ روائية أردنية.

▪ لوحة الغلاف للفنان:
سلفادور دالي

«الموازنـــة بين الحكمة والعدالة والهوى، أمر أختبره كل يوم بصورة مضنية».



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com